

دراسات في الحضرة الهلينية

فادية محمد أبو بكر
أستاذ مساعد التاريخ القديم
كلية أداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٨

دار المعرفة الجامعية
١٩٣٠١٦٣ - شارع بورسعيد، الإسكندرية
٢٨١ شارع العبدان، الإسكندرية - ٥١١٣١٤٦

دراسات فى العصر الهللىنىسى

الفصل الأول
مصر والفتح المقدوني

أولا : حالة مصر منذ الأسرة السادسة والعشرين حتى الفتح المقدوني

لما كان أول عهد مصر باستقرار الاغريق فيها يرجع الى العصر الصاوى ، أى الى ما قبل الفتح المقدوني بعدة قرون ، وكان الاغريق قد لعبوا دورا هاما فى تاريخ مصر منذ حطوا رحالهم فيها ، فانه لكى نفهم بجلاء تاريخ مصر فى عصر البطالمة . يجدر بنا أن نستعرض فى ايجاز حالة مصر منذ العصر الصاوى .

ملوك نباتا يردون على الوادى وحدته :

عندما سيطرة أسرة لبيبة على مصر فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، انقسمت البلاد الى أمارات محلية ، ورفض كهنة آمون الخضوع لسلطن الليبيين مما حدا بهم الى الهجرة الى السودان حيث أقام كبيرهم فى نباتا ملكا جديا وجعل من نفسه وارثا شرعيا لعرش فرعون . ولم يكد الملك الشاب بعنقى يستوى على عرش نباتا حتى صبح عزمه على أن يتخذ شمال وادى النيل من أيدي الغاصبين وأن يرد على الوادى وحدته وفى عام ٧٤٠ كللت مجهوداته بالنجاح .

أشور تفتح مصر :

وعندما استولت آشور على مصر فى عام ٦٧١ ولم يستطع طهراقا ، خامس ملوك نباتا ، صد هذا الغزو الاجنبى عن شمال مملكته ، انسحب جنوبا تاركا الدلتا تحت رحمة الأشوريين . وما كاد آشور حادون يعود الى نينوى ، حتى استعاد طهراقا سيطرته على الدلتا . وعندما ارتقى آشوربانيبال العرش أعاد فتح مصر فى عام ٦٦٧ ثم أقام « نخاو » أمير سايس حاكما على الدلتا وأحاطه برجال آشوريين وبذلك حال دون نجاح طهراقا فى استعادة الدلتا . وعندما أفلح نرت آمون ، خليفة طهراق ، فى غزو الدلتا ونصب نفسه فى منف فرعوناً على مصر بأجمعها ، استشاط آشوربانيبال

غضبها وغزا مصر ثانية فى عام ٦٦٣ وطرده تنوت أمون فى الوجه القبلى ، ثم ترك مصر تحت أمره أبسمتيك . ومع ذلك يبدو أن تنوت أمون احتفظ بنفوذه فى طيبة حتى عام ٦٦١ ، وهو العام الذى حمل فيه أبسمتيك القاب الفراعنة بعد أن بسط سلطانه على مصر كلها ، وأصبح ملكها دون منازع من البحر الى أسوان .

تأسيس الأسرة السادسة والعشرين :

وهكذا أسس أبسمتيك (٩٦٣ - ٦٠٩) الأسرة السادسة والعشرين وجعل سايس حاضرتها ، ولم يلبث أن حرر مملكته من كل تبعية لأشور . وبيان ذلك أنه ازاء انهماك آشور حينذاك فى حربها مع الأم لم يعبأ آشور بانبيال بما كان جاريا فى مصر مادام أبسمتيك يدفع له الجزية ، ويحتمل أنه استمر يفعل ذلك بانتظام حتى حوالى عام ٦٥١ عند ما سحبت الحامية الأشورية من الدلتا بسبب مقتضيات حرب الأم ونشوب ثورة فى بابل ، ومن ثم توقف أبسمتيك عن دفع الجزية لأشور . وبعد حروب الأم المضنية ، كان أبسمتيك بفضل جنوده المرتزقة فى مركز أقوى من أن تتهدده شور .

استقرار الأغريق فى مصر :

وقد كان فى مصر اذ ذاك عدد كبير من الاغريق ، فانه منذ حوالى ٧٢٥ ق . م . أخذ تجار مليتوس يترددون كثيرا على مصب نهر النيل وخاصة المصب الغربى ، عند كانوب (أبى قير) ، أما لسهولة الوصول اليه من بحر ايجه ، أو لبعده عن حركة نشاط الفينيقيين . وقد ترتب على ازدياد تدفق التجارة الاغريقية أن أخذ فرع النيل الكانوبى يزداد فى الأهمية على فرعه البلوزى ، وكانت تجارة مصر مع فينيقيا قد أكسبته أهمية كبيرة فى عهد الأسرتين العشرين والثانية والعشرين ، أى فى عهد الرعامسة (حوالى ١١٩٨ - ١٠٩٠) وملك بوباسطس (حوالى ٩٤٥ - ٧٢٥) .

تأسيس نقراطيس :

وعلى مقربة من سايس ، أحي مدائن مصر الهامة أسس تجار مليتوس محلة لهم ، أطلق عليها اسم « قلعة أهل مليتوس » . ويحدثنا استرابون بأن تجار مليتوس أقاموا محلثهم فى عصر أبسمتيك ، أى حوالى عام ٦٥٠ ق . م . ولكن من المحتمل أنها أقيمت حوالى عام ٧٠٠ أو قبل ذلك ، ويحتمل أن ما حدث فى عصر أبسمتيك هو أن القلعة ازداد اتساعها ، وأصبحت تعرف باسم نقراطيس (Naucratis) . ويفضل الثروة التى عادت على مصر من تجارة الاغريق تمكن أبسمتيك من استخدام عدد كبير من الجنود الاغريق والاناضوليين ساعده على توطيد مركزه فى مصر ، وبذلك تخلص من منافسيه ومن تهديد ملوك نباتا ومن سيطرة الأشوريين .

عطف ملوك العصر الصاوى على الاغريق :

وعندما استتب الأمر لأبسمتيك أراد أن يكافىء جنوده المرتزة ، فاتخذ منهم وحدهم حرسه الخاص مما أساء الى الجنود المصريين حتى أن حاميتهم التى وضعها الملك عند أسوان لحماية الحدود الجنوبية هربت الى بلاد النوبة ، فقد عز عليها أن يختص الملك جنوده الاغريق بتكوين حرسه الخاص .

وقد أقام أبسمتيك لهؤلاء الجنود معسكرين ، أحدهما فى ماريا بالقرب من كانوب ، والآخر فى دفنة (Daphnae = تل دفنة عند برزخ السويس) ليكونا بمثابة حصنين يصدان هجمات كل من تحدته نفسه بالاعتداء على مصر ، وأباح أبسمتيك للأغريق أن ينشئوا مؤسسات فى سايس ونقراطيس وكانوب . وقد هدأت الحال فى مصر بفضل الحزم الذى أبداه أبسمتيك ، وسرعام ما أصبحت علاقته مع أشور علاقة الند للند ، لكن لما كان هذا الملك مدينا بمركزه فى مصر لأشور ، فانه لم ينس ذلك وبقي حليفا أميننا لأشور حتى توفى فى عام ٦٠٩ ، وخلفه ابنه نخاو الثانى (Noech II) الذى

حاول دون جدوى مساعدة آشور على بابل . ومن ثم وقف جهوده على الأعمال السلمية في مصر ، فاهتم بشق قناة تربط النيل بالبحر الأحمر ، وأوفد بعثة لترتاد سواحل افريقيا ، ووجه عناية خاصة لتجارة مصر ، فأثرت البلاد ، وازدهرت فيها فنون السلم ، وظهر في كل فروع الفن طراز جديد يمتاز باحياء طراز الدولة القديمة .

وعندما توفي نخاو الثاني في عام ٥٩٣ ، خلفه ابنه أبسمتيك الثاني الذي حكم حتى عام ٥٨٨ . ولعل أهم ما يعنينا في هذا المقام من أمر أبسمتيك الثاني هو أنه اقتفى أثر أبيه وجده في اتباع سياسة مشربة بروح العطف نحو الاغريق . ولا جليل في أن عطف ملوك مصر في العصر الصاوي على الاغريق يرجع الى ما كانوا مدينين به من ثروتهم لتجارة الاغريق العسكرية ، وذلك من ناحية للذوذ عن حياض مصر ضد المالك الفتية القوية في آسيا ، ومن ناحية أخرى لدفع ما يتهدد العرش من الأخطار الداخلية .

ازدياد العطف على الاغريق يلهب شعور المصريين :

لكن ازدياد ذلك العطف ثار شعور المصريين بالتدريج ، حتى دفعهم الى الثورة على أبريس (٥٨٨ - ٥٦٦) وكان شابا متهورا ، خاضعا لجنوده الاغريق الى حد بعيد . وقد أذكى حقد المصريين عليه اخفاقه في ميادين القتال ، فاندلع لهيب ثورة قومية معادية للأجانب ، حل لواءها قائد مصرى يدعى أماسيس . ولم تنته هذه الثورة في عام ٥٦٩ الا باعلانه شريكا لأبريس في الملك . لكن ابريس قتل بعد ذلك بثلاث سنوات وخلفه أماسيس وحده على العرش .

ارتقى أماسيس العرش بوصفه عدو الاغريق ، لكنه كان أفطن من أن يحتفظ بهذه الصفة وكذلك من أن يصبح صديقا حميما للأغريق وخاصة أول الأمر ، فتهج في سياسته طريقا وسطا . ولكي يرضى شعور الشعب ألغى

معسكر دفنة فى سياسته طريقا وسطا . ولكى يرضى شعور الشعب ألقى
معسكر دفنة ونقل رجاله العسكريين الى منف ، حيث أخذ منهم حرسا
خاصا بحجة وضعهم تحت رقابته . وبالتدريج أزداد عطفه على الاغريق
وضوحا ، ونستدل على ذلك من صداقته لبوليكراتس (Polycrates) طاغية
ساموس وكرويسوس (Croesos) ملك ليديا ، ومن هداياه الشمينة للمعابد
الاغريقية ، ومن زواجه من سيدة اغريقية من أهل قوريناثة (برقة) .

وفى عهد أماسيس ساد الأمن والسلام فى البلاد ، فازدادت ثروة مصر
نتيجة لرواج تجارتها شمالا وشرقا وجنوبا كما ازداد عدد سكانها ، وأنشئت
عدة معابد كبيرة . وازدهرت العلوم والفنون حتى بلغت شاورا بعيدا . ومع
ذلك فانه فى ذلك الوقت كانت الأمة المصرية قد شاخت وانحلت واضحت
غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، فتملكها الخوف عندما استولى الفرس
على ميديا فى عام ٥٥٠ ، وعلى ليديا فى عام ٥٤٦ ، عندما استولى
الفرس على ميديا فى عام ٥٣٩ ، ثم على سوريا وفلسطين بعد ذلك
بقليل ، الا أن مصر كانت لاتزال مستمتعة باستقلالها عند وفاة أماسيس
فى عام ٥٢٦ .

كفاح الشعب ضد الفرس

استعمر الفرس مصر سنة ٥٢٥ ق . م . بعد أن ذاقوا الويل على أيدي أبنائها الأبطال . ولم يجدوها - كما ظنوا - لقمة سائغة أو فريسة سهلة هينة ، فقد كتب القتال على المصريين وهو كره لهم ، وكان عدوهم جبارا يمتلك موارد هائلة ، ولكنهم لم يرهبوه ، وإنما قارموه - على نحو ما مر بنا في الصفحات السابقة - مقاومة الأبطال الاحرار ، وأبوا عليه أن يظأ أرضهم الطيبة إلا مخضبة بدمائهم الزكية .

فمنذ فقد وادى النيل استقلاله ، وأصبح عضوا في الامبراطورية الفارسية ، بدأ أبنائه الأحرار كفاحهم الشعبى للتخلص من نير المستعمرين . فإن المصريين الذين بذلوا دماءهم رخيصة ذودا عن حريتهم واستقلالهم ، لم يكن منتظرا منهم أن يركنوا الى الهدوء فى ظل الحكم الاستعمارى البغيض ، فقد كانت قلوبهم تنبض بفخارها الوطنى ، وصدورهم تضطرم بنيران الحق والكراهية للأجنىبى المستعمر ، فإذا بهم يهبون فى وجهه ثائرين ، وإذا بشوراتهم تتكرر ، حتى أحوالوا الوادى كله الى شعلة ملتهبة من الكفاح الشعبى المسلح .

الثورة الأولى

وكأن المصريين يتحينون الفرص المناسبة للقيام بحركاتهم الاستقلالية ، ولهذا تأججت نيران أول ثورة قومية ضد الحكم الفارسي في عام ٤٨٦ ق . م ، عندما كان الملك الفارسي « دارا » في شغل شاغل بالاستعداد للزحف بقواته البرية وأساطيله البحرية على بلاد الإغريق في قارة أوروبا^(١) . واشتبك المصريون وقوات الاحتلال المنبثثة في أرجاء الوادي . فأفندوها عن آخرها ، ونجحوا في تحرير أنفسهم وبلادهم من رقة الاستعمار ، واضطر الملك « دارا » الى تأجيل زحفه على بلاد الأوغريق حتى يقضى أولا على ثورة المصريين . وقد عقد العزم على أن يتولى هو نفسه قيادة قواته الى وادي النيل .

ولكن المنية عاجلته في سنة ٤٨٥ ق . م . فاعتلى العرش الفارسي بعده ابنه الملك « أجزركسيس » وبدأ هذا الملك يجهز جيشا قويا وأسطولا كبيرا لمنازلة المصريين في ديارهم ، فلما اكتملت عدته في عام ٤٨٤ ق . م . زحف على وادي النيل ، فتصدى له أبناؤه الأبطال يدافعون عن حريتهم واستقلالهم ، وأبوا أن يستسلموا للملك الفارسي وجحافل الهائلة ، وإنما ثبتوا أمام سيل بشرى عرم من المهاجمين في البر والبحر ، ولم تفلح القوات

(١) كان الملك « دارا » قد عزم على غزو بلاد الأوغريق الأوربية وتأديبها لقيامها بمساعدة أوغريق آسيا الصغرى - التابعين له - في ثورتهم ضده . واشتبك الأوغريق والفرس في حرب طويلة تعرف في التاريخ القديم باسم الحروب الميدنية ، بدأت بمعركة « ماراثون » التي انهزم فيها الفرس فوق الأرض الاغريقية ، وانتهت بمعركة بلاتايا البرية ، ومعركة كركالي البحرية ، وانتصر الاغريق في المعركتين معا ، وتخلصوا نهائيا من الاستعمار الفارسي .

وبعد هزيمة قوات « دارا » في معركة « ماراثون » استبد به الغيظ ، ورم على غزو بلاد الاغريق بجيش لاسبيل الى قناره « وفي أثناء استعداده للقيام بهذا الغزو أعلن المصريون ثورتهم الاستقلالية الأولى .

الاجنبية فى احتلال أراضىهم الا على أشلائهم ، وبعد أن كبدها خسائر فادحة .

وقد نكل الملك الفارسى بالمصريين أبشع تنكيل بعد أن احتل أراضىهم . وأقام أخاه « أخايمينيس » حاكما عليهم ، وكان رجلا غليظ القلب . اصطنع كل أساليب القسوة والعنف للقضاء على قومية المصريين وإماتة روح المقاومة فيهم ، بيد أن أساليبه الاستعمارية هذه كانت حافزا للمصريين على بذل كل ما فى وسعهم للتخلص من قبضة الفرس واسترداد استقلالهم المسلوب .

الثورة الثانية

بدأ المصريون من فورهم يستعدون لإشعال نيران ثورتهم التحريرية الثانية ، وقد واتتهم الفرصة حين اضطرت الجيوش الفارسية الى التراجع مدحورة أمام قوات الإغريق فى أثناء الحروب الميدية ، فاضطرت شئون الملك فى العاصمة الفارسية اضطرابا عظيما ، ولقى الملك « أجزركسيس » مصرعه فى إحدى المؤامرات التى شاعت فى بلاطه ، فرتقى العرش من بعده ابنه « أرتاجزركسيس » .

ولم يكن ينقص أهل مصر سوى الزعيم القادر الذى يقود ثورتهم ليخلصهم من أبض حكم أجنبى عرفوه ، وسرعان ما عثروا على هذا الزعيم المنشود فى شخص الأمير « إيناروس » الذى أعلن الثورة على الحكم الفارسى متعونا هو وزعيم ثائر آخر يدعى « أميرتاوس » ، ووصف الشعب المصرى بجميع فئاته وطبقاته صفحا واحدا خلف زعيميه هذين ، وقد عقد العزم على التخلص من ربة الاستعمار الفارسى واسترداد كرامته الوطنية المسلوبة مهما كلفه ذلك من تضحيات .

وقد بدأ « إيناروس » بتجنيد قوة عسكرية من أبناء وادى النيل ، لكنه

وجدها غير كافية لسحق المعتدين والقضاء على حامياتهم المنبثة فى أنحاء البلد ، فاستعان بقوة أخرى من المرتزقة الاغريق فى أنحاء البلاد ، فاستعان بقوة أخرى من المرتزقة الاغريق حتى تهيأ له جيش دفاعى كبير ، ولم يكتبف « إيناروس » بهذه القوة المسلحة ، وإنما بدأ يبحث عن العون الخارجى ، فتحالف هو وملك برقة ، وأوفد رسله الى ولاية « أثينا » يطلب مساعدتها لتحرير مصر ، وكانت الولايات الاغريقية قد انتهت حين ذاك من الحروب الميدية . وخرجت منها ظافرة . فكونت فيما بينها حلفا كبيرا تحت زعامة « أثينا » هو « حلف ديالوس » لذى كانت أهدافه الكبرى تنحصر فى إبعاد الخطر الفارسى عن بلاد الاغريق ، وتخريب الأراضى الفارسية نفسها انتقاما لما أنزلته الجيوش الفارسية بالأراضى الاغريقية من خراب ودمار فى أثناء معارك الحروب الميدية ، وكان طبيعيا أن تستجيب زعيمة الحلف المعادى للفرس لنداء « إيناروس » . ولهذا بعثت الى المصريين قوة بحرية لشد أزهم فى طرد المستعمرين .

أما الملك الفارسى « أرتاجزركسيس » فقد جمع جيشا كبيرا أوفده الى مصر تحت قيادة عمه « أخايمينيس » ، والتحم هذا الجيش الفارسى وجيش مصر الشائرة فى معركة كبيرة دارت رحاها عند مدينة « بلوزيوم » على حدود مصر الشرقية . وبذل المصريون دماءهم رخيصة فى سبيل الظفر بحريتهم واستقلالهم . واستبسلت قواتهم بالرغم من ضآلتها استبسالا رائعا أمام القوات الكاسحة التى عبأها الملك الفارسى من أرجاء امبراطوريته الواسعة ، وانتصرت قوى الحق والايمان على قوى الشر والطغيان . فأنزل أبناء النيل بجيوش « الملك العظيم » - وهو لقب الملك الفارسى - هزيمة منكرة تمخضت عن مصرع الغالبية العظمى من قواته ، على حين لجأ من بقى حيا من رجاله الى الفرار من البلدان .

وهكذا كآل المصريون الاحرار ضربة قاصمة للاستعمار الفارسى ،

فطار صواب « الملك العظيم » ، ولجأ الى وسيلة أخرى يحاول بها حرمان المصريين عون حلفائهم الأثينيين ، فاستغل فرصة الشقاق الذى دب بين زعيمى العالم الاغريقى « أثينا واسبرطة » - على أثر تكوين حلف « ديلوس » - وبعث الى الاسبرطيين سفيره « ميجابازوس » يعرض عليهم عقد حلف عسكرى لغزو « أثينا » حتى تضطر هذه الى سحب قواتها من مصر ، ومن ثم يقف المصريون وحدهم فى الميدان . لكن هذه المحاولة الاستعمارية باءت بالفشل الذريع ، إذ قوبل السفير الفارسى فى إسبرطة بمقابلة غير كريمة . واضطر الى العودة كاسف البال من حيث اتى .

وحين ذاك لم يجد « أجزر كسيس » بدا من قتال المصريين مرة أخرى . فجمع حشودا جديدة من أنحاء امبراطوريته ، وأعد أسطولا ضخما قوامه ثلثمائة سفينة حربية هائلة ، وأرسل هذه القوات البرية البحرية الكاسحة الى وادى النيل . ولم يفزع المصريون وحلفائهم الأثينيون ، وإنما خاضوا المعركة أبطالا يدافعون عن حريتهم واستقلالهم . وحاربوا حربا مريرة غير متكافئة أمام جحافل لا تحصى لها . فلم تستطع القوة الغاشمة أن تدخل بلادهم الا بعد أن قاست الأهوال وكابدت أفدح الخسائر .

الثورة الثالثة

ولم يتسرب اليأس الى نفوس المصريين المكافحين . وإنما كانت الدماء الزكية التى أهرقها المستعمرون على أرض الوطن حافزا لهم على الاستماتة فى سبيل استخلاص حريتهم من برثن الملك الفارسى .

وكان « أجزر كسيس » قد توفى حوالى عام ٤٢٤ ق . م . فخلفه على العرش الملك « دارا الثانى » . وحاول هذا الملك أن يجتذب قلوب المصريين بأسلوب جديد ينطوى على العطف واللين بدل أساليب البطش والعدوان التى اتبعها أسلافه . ولهذا أحسن معاملة الأهالى واحترم الآلهة المصرية وتودد الى الكهنة عله يظفر بفترة من الهدوء والاستقرار على جنبات

الوادي . بيد أن روح الكفاح التي سرت في دماء المصريين كانت أقوى من أن تخمدها مثل هذه الأساليب الاستعمارية الخبيثة . فسرعان ما بدأ الاستعداد لجولة ثالثة ضد الاستعمار البغيض .

وتزعم حرب التحرير الجديدة مصرى ناثر يدعى « أميرتاوس الثانى » الذى جمع جيشا كبيرا من أبناء الوطن والمرزقة الاغريق . وهاجم حاميات الملك الفارسى المنتشرة فى أرجاء البلاد قضى عليها . ثم نادى بنفسه ملكا على مصر المستقلة حوالى عام ٤٠٤ ق . م . مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين الفرعونية .

ونشط « الملك العظيم » ليقضى على ثورة المصريين ، فبعث بحشوده الهائلة الى وادى النيل لتأتيه برأس هذا المصرى الذى أعلن استقلال بلاده وتحررها من قبضة الفرس . ولكن القوات المصرية الباسلة استمانت فى الدفاع عن ارض الوطن ، فأنزلت - بالرغم من ضآلتها - هزيمة منكرة بجيوش « الملك العظيم » وأكرهتها على التراجع دون أن تظفر بشيء . ولم يستطع الملك الفارسى أن يجهز قوات جديدة لمنازلة المصريين بسبب ما كان يسود عصمة ملكه من قلاقل واضطرابات .

وهكذا تحررت الأرض الطيبة من دنس المستعمرين ، وتبوأ الفراعنة عرش آبائهم وأجدادهم الأولين ، ونعمت البلاد باستقلالها نحو سبعين عاما توارث العرش فى خلالها ملوك الأسرات الـ ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ الذين عملوا ما فى وسعهم الطامعين ، فتحالفوا هم وملوك قبرص وحكام أثينا ، ونشطوا فى تعمير ما خربته قوات الشر والعدوان .

ولكن ملوك الفرس لم ينسوا ثراء مصر وخصوبة تربتها وأهمية موثغها الجغرافى ، ففقدوا بفقد وادى النيل ألمع درة فى تاج إمبراطوريتهم الواسعة ، ولهذا باتوا يحلمون باسترداد هذه الدرّة الغالية ، ويتحينون الفرص للانقضاض من جديد على هذا الوادى الأمين والاستيلاء

على خيراته الوافرة .

وسنحت لهم الفرصة حوالى عام ٣٨٦ ق . م . عندما عقد الصلح بين بلاد فارس والإغريق ، فاذا بمصر تفقد معاونة حلفائها الأغرقيق ، وتقف وحدها فى ميدان النضال ، فعياً الملك الفارسى قواته فى البر والبحر ، وأرسلها الى مصر لتعيدها كما كانت جزءاً من ممتلكاته ، لكن المصريين وقفوا لهذه القوات بالمرصاد وأنزلوا بها هزيمة مريرة ، وردوها على أعقابها دون أن تظفر من أراضيهم بشبر واحد .

ولم ييئس ملوك فارس من معاودة الكرة ، فأعد « أرتاجزر كسيس أرخوس » قوة برية وبحرية هائلة ، وزحف بها على مصر فى سنة ٣٤٢ ق . م . وكان يجلس على عرش الفراعنة حين ذلك « نختنابو الثانى » آخر ملوك الأسرة الثلاثين ، وقد حشد هذا الملك قواته واشتبك بها وقوات الملك الفارسى فى جرب ضروس بذل فيها المصريون دماءهم رخيصة فى سبيل الذود عن حريتهم واستقلالهم . لكن الكثرة الجارفة غلبتهم على أمرهم ، فترجعوا الى « منف » حيث لحقت بهم قوات الملك الفارسى . وبعد معركة مزيرة أخرى ، استطاعت القوات المعادية أن تحتل البلاد .

بيد أن المصريين لم يستسلموا لهذا الطغيان ، وإنما ظلوا يناوئون المستعمر حتى أحوالوا حياته بينهم جحيماً مستعراً بنيران الغضب والانتقام ، وظلوا كذلك الى أن تغيرت الأوضاع فى العالم القديم كله على إثر قيام الإسكندر الأكبر بغزو الشرق .

تلك هى صفحة الكفاح الشعبى ضد الاستعمار الفارسى ، وهى صفحة تفيض بضرور البطولة والتضحية ، وأنها لجديرة بإبناء وادينا الأمجاد الذين جعلوا من أرضهم قبرا لغزاتهم الطامعين فيهم .

كان المصريون يقفون فى وجه المستعمرين المعتدين مسلحين

بسلاحين بتارين : سلاح الايمان ، وسلاح الحق . وكلاهما أمضى من أية جحافل يمكن أن تحشد فى أى ميدان . فإذا غلبوا على أمرهم أمام الجيوش الاستعمارية الجارفة ، لم يهنوا ولم يستسلموا ، وإنما كانوا دائماً يعملون جاهدين لتخليص أنفسهم من ريقة الاستعمار ، وكانوا يستعينون على بلوغ اهدافهم فى الحرية والاستقلال بالتحالف مع الأمم الحرة القوية التى كانت لا تبخل عليهم بالمعونة ، فتمدهم بالرجال والسلاح ، وتقف الى جانبهم تشد أزهرهم فى معارك الشرف والاستقلال .

وكانت العلاقة بين المصريين والاعريق قوية متينة فى خلال فترتى الاستعمار الفارسى وفترة الاستقلال التى فصلت بينهما : فقد أمدت أثينا المصريين بقوة بحرية عاونتهم على حرب التحرير التى أعلنها « إيناروس » . وحالفتهم اسبرطة بعد أن انتصر « أميرتاوس الثانى » على جيوش الفرس وأعلن نفسه ملكا على مصر المستقلة . وكان المرتزقة الاعريق لا يترددون فى الانضمام الى صفوف اقوات المصرية كلما دعوا الى ذلك ، وأبلى هؤلاء المرتزقة بلاء حسنا فى الحرب المريرة التى دارت بين « نختابو الثانى » والملك الفارسى ، فلم يضعفوا قط ، وإنما وقفوا الى جانب إخوانهم المصريين يبدلون دماءهم فى شجاعة وإصرار حتى اللحظة الأخيرة .

أ - مراحل تطور العلاقات بين اليونان ومصر قبل الفتح المقدوني :

يمثل فتح الاسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٢ ق . م نقطة تحول كبرى فى تاريخ مصر العام . اذ عندها ينتهى تاريخ مصر الفرعونية ويبدأ تاريخ مصر فى العصر البطلمي والرومانى . والأحداث الكبرى فى التاريخ لا تحدث فجأة ، وإنما تكون نتيجة لدوامل ومقدمات تسبقها وتنتهى اليها . فلم يكن فتح الاسكندر المقدونى لمصر عملا فرديا فجائيا وإنما سبقته مقدمات وعوامل قادت الى النتيجة الطبيعية وهى فتح مصر . من أجل هذا كان من الضرورى عند كتابة تاريخ مصر فى تلك الفترة على أساس علمى أن تدرس نوع العلاقات^(١) التى وجدت بين مصر وبلاد اليونان قبل فتح الاسكندر الأكبر .

لم يأت الاغريق الى مصر مع الاسكندر للمرة الأولى ، بل أن العلاقات بين الانثين ترجع الى اقدم الحقب التاريخية ، فقد كشفت الحفائر التى تمت حتى الآن فى جزيرتى كريت وساموس عن آثار مصرية تثبت وجود علاقات بين مصر وهذه الجزيرة منذ عصر ما قبل الاسرات ، وان التقارب بينهما بلغ ذروته فى عصر الدولة الحديثة . وتؤيد هذه الآثار نقوش مصر القديمة التى تمثل وفدا من أهل كريت يقدمون لتحتومس الثالث اوانى فضية وسبائك من البرونز ، لعلها هدايا للملك المصرى من اجل تحسين العلاقات وللسماح لهم بالتبادل التجارى مع مصر .

(١) د/م العبادى ، مصر من الاسكندر الاكبر الى الفتح العربى ص ٧ وما بعدها

ولم يقتصر الأمر على كريت ، بل أن الآثار المصرية التي عثر عليها
بكميات وفيرة في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة اليونانية ذاتها تثبت ان
تجارة مصر قد وصلت الى الاسواق اليونانية الهامة في ذلك الوقت فكل
اسبطة ومركبتى وارجوس . لكن هذ العلاقات الاولى تنتهى عند نهاية
الالف الثانى ق . م بعد سقوط الدولة البيونية في كريت والدولة الميكنية
في شبه الجزيرة .

مرت بلاد اليونان في القرون الثلاثة التالية بفترة من الفوضى
والاضطراب بسبب الغزو الدورى وآثاره ، وفي نفس الوقت حثت في
مصر تطورات سياسية عنيفة قضت على الدولة الحديثة وعرضت البلاد
للحكم الليبى والفارسى .

وكان لظهور اسماتيك مؤسس الاسرة ٢٦ (٦٦٣ - ٦١٩ ق . م)
في تلك الفترة الحاسمة ، اثر بالغ الأهمية . فقد اجلى كل الحاميات
الاجنبية وكان آخرها الحامية الاشورية التي كلنت ترابط في أرض
الدلتا . وبذلك تخلصت مصر منهم نهائيا . وسار اسماتيك نحو التقدم
والرخاء فقد استمر في احياء مجد البلاد القديم والرجوع الى
ماكان لمصر من علوم وفنون وثقافة حتى رد لها شيئا من مكانتها
القديمة .

يضاف الى ذلك انه أخذ يتصل بالبلاد الاجنبية لمجاورة لمصر
وخاصة انه كان في حاجة الى تكوين جيش قوى في تلك الفترة ليدافع
عن مصر وليتصدى لكل الاعداء والمماليك الناشئة التي ظهرت في العالم
وقتئذ على انه لم يكن في استطاعته ان يحقق هذا الهدف لو اعتمد على الجنود
الوطنيين فقط . ومن ثم لم يسق أمام اسماتيك وسيلة أخرى للنهوض

بالجيش الا أن يؤلف جيشا من الجنود اللذين كانوا يفدون عليه فى مصر من البلاد الاخرى ، وخاصة بلاد الاغريق ، مما عرف عنهم من تقدم فى فنون الحرب والتسليح . فسهل لهم اسمائيك الاستيطان فى مصر وكان سخيا معهم فى معاملته ، ليحقق غرضه فى أن يجعلهم يخلصون فى خدمته . فمُنح ^(١) هؤلاء الجنود المرتزقة قطاعات من الأرض الممتدة على الفرع البلوزى للنيل (فرع دمياط) عند تل دفنه (الى الجنوب من موقع مدينة دمياط الحالية) ليرزعوها اوقات السلم ويستقروا بها . وبلغ من سخاء اسمائيك على جنوده ان قريهم الى شخصه ومنحهم مرتبة ^(٢) الشرف فى جيشه . ولقد كان هؤلاء الجنود يجنون فائدة كبيرة من زراعة الارض ومن الأجور العالمية . ووصل اسمائيك الى درجة كبيرة فى ثقته بهم حتى انه جعل الاطفال المصريين يتعلمون اللغة اليونانية ^(٣) بل وانشأ اولاده تنشئة يونانية .

ولما تولى أمازيس (من ملوك الاسرة ٢٦ من ٥٧٠ - ٥٢٧ ق . م) الملك بعد ذلك نقل الجنود المرتزقة واسكنهم مدينة منف . اذن لقد اقام الجنود المرتزقة عند دفنه وفى مدينة منف بينما عين حكام مصر مدينة نقراطيس ^(٤) شمال غرب الدلتا مركزا لاقامة التجار الاغريق .

(١) عن تفاصيل الاجور التى كانت تمنح لهم انظر :

Herod. 11 . 168 .

(2) Diod . 1 . 67 .

(3) Herod. 11 . 154, Diod. 1 . 67 .

(٤) نقراطيس هى اقدم المدن اليونانية ، انشأت حوالى القرن السابع ق . م تقع شمال غرب الدلتا . كانت مركزا تجاريا هاما ، يمكن عن طريق التحكم فى الصادرات والواردات من والى اليونان وتمتعت المدينة اليونانية وبدأت المدينة فى الاضمحلال منذ القرن الثانى . مكانها الان قرية كوم جعيف مركز ايتاى البارود .

الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الثانى - كوم جعيف .

اذن يمكننا أن نفهم أهمية هذه العلاقة الوثيقة التي تمت بين الاغريق والمصريين منذ القرن السابع حتى عصر الاسكندر ، ومعرفة حقيقة الظروف التاريخية التي في ظلها نمت واشتدت هذه الاتصالات حتى اصبحت ضرورة سياسية في كل من مصر واليونان على السواء ، فمن البديهي انه قلما انفصلت العلاقات الاقتصادية عن السياسة في العلاقات الدولية . وهذا هو ما حدث بين مصر وبلاد اليونان في هذه الفترة فقد تلازمت السياسة والاقتصاد في هذه الحقبة أيضا .

لقد كانت هناك ظروفًا معينة هي التي حددت صورة الموقف السمسدولي خلال هذه القرون الثلاثة .

اولها: ان فارس قد اصبحت اقوى دولة في العالم القديم في القرن السابع واخضعت مصر لسطانها وكذلك كانت أكبر خطر واجهة الاغريق في تاريخهم القديم باسره ، فقد كانت فارس عدوا مشتركا لكل من اليونان ومصر .

ثانيا : كانت مصر مركزا من أهم مراكز انتاج القمح في العالم بينما كانت بلاد اليونان من اقلها انتاجا له ، ولهذا كانت المدن اليونانية في حاجة دائمة الى قمح مصر .

ثالثا : انتشرت في هذا الوقت عادة استخدام الجنود المرتزقة وكان الاغريق من خيرة هذه الجنود ، فاستعان بهم ملوك العصر الصاوي للقضاء على العناصر الليبية المتغلغلة في صفوف الجيش المصري آنذاك ولمقاومة العدوان الفارسي .

رابعا : كانت بلاد اليونان غنية في مناجم الفضة وكانت قد توصلت الى

استخدامها فى صناعة العملة التى اصبحت الوسيلة العالمية للتبادل التجارى ودفع الاجور . وفى نفس الوقت لم يكن لدى مصر مناجم فضة ولذا كانت فى حاجة الى فضة الاغريق فى صورتها الجديدة وهى العملة لتسليح جيشها ودفع اجور الجنود المرتزقة .

نتيجتان هامتان لهذا التقارب التجارى السياسى يمكن أن نختم بها هذه المقدمة التاريخية عن العلاقات بين مصر واليونان .

الأولى : ان وفرة العملة اليونانية فى مصر جعل المصريين يقدمون على اصدار عملة مصرية لأول مرة . ولقد كان الرأى السائد الى زمن قريب ان الاسكندر والبطالمة هم أول من سك العملة فى مصر . ولكن اكتشاف العملة ودراستها فى السنين العشر الأخيرة تدل على انه فى عصر الاسرات المتأخرة شرع المصريون فى صناعة العملة . والنماذج التى عثر عليها من هذه العملة ذهبية فقط وتحمل على أحد وجهيها رسم حصان راقص وعلى الوجه الاخر كتابة هيروغليفية ترجمتها « ذهب جيد » .

النتيجة الثانية : انه عن طريق التبادل التجارى الوثيق أخذ الاغريق يدركون مدى ثراء مصر واهميتها كمصدر للفلال . وكان ذلك فى الوقت الذى اتجهت فيه افكار اليونان نحو عزو اسيا وهو العمل الذى حققه الاسكندر .

ولما كان الاسكندر سياسيا موهوبا وقائدا عبقريا فلا بد انه ادرك اهمية امتلاك مصدر كبير للقمح لشموين بلاد اليونان من ناحية ، وجيوشه الغازية فى آسيا من ناحية أخرى وهو ممكن أن تسوم بهذا السوم . ولعل هذا من أكبر الدوافع وراء قرار الاسكندر المظنير ببدء شركة ابيروس ان يعبر الى مصر اولاً بدلاً من تتبع الملك الفارسى المنهزم الى الشرق .

ب - الفتح المقدوني

فيليب الثاني Philippus II

(٣٥٩ - ٣٣٦ ق . م)

كان فيليب قد أرسل وهو فى سن الخامسة عشرة كرهينة الى طيبة (باقليم بويوتيا) حتى أقام ثلاث سنوات . وقد أفاد من هذه الإقامة التى هذبت من طباعه القومية الموروثة التى تتسم بشيء من البدائية والخشونة . لقد كان المقدونيون على الرغم من تأثرهم بمظاهر الثقافة الاغريقية لا يزالون أمة غير متمدنية . وقد وافقت إقامته وقتا كانت فيه طيبة زعيمة لبلاد الاغريق عسكريا وسياسيا (٣٧١ - ٣٦٢) . وهكذا سنحت له الظروف أن يتزود حينئذ بقسط كبير من الثقافة الأدبية والمعرفة العسكرية اذ تردد على نواديها التربوية ، وشاهد ترساناتها وخبر أنواع أسلحتها . وكان هؤلاء جميعا نماذج بالنسبة لفيليب وقدوة ، ومبعث الهام له وحافزا على أن يجعل من بلاده دولة ان لم تكن هللينية الطراز فعلى الأقل شبيهة بالدول الهللينية ، وعلى أن يحرز لنفسه مكانة مرموقة كمكانة زعماء طيبة وقادتها الذين كانوا الى جانب همتهم العالية وذكائهم المفرط يجمعون فى ثقافتهم بين المعرفة العسكرية والمعرفة الفلسفية والأدبية .

فى الواقع أن مقدونيا - كما يروى المؤرخ ليفيوس - لم تنل حظا من الشهرة الا منذ عهد فيليب الثاني Philippus (٣٥٩ - ٣٣٦) . فقد بدأ بتنظيم شؤون بلاده الداخلية ، ووجد الأمة بأن شد النبلاء بدرجة أكبر الى القصر شذوا ان يحرضهم من امتيازاتهم الأساسية . فقرر فيليب أن يتلقى أبناء النبلاء فى البلاط ويأمرهم بتعليمهم فى البيت المالك تعليمهما مشتركا فى

البلاط الملاكى ، وقصر عليهم المناصب والمرتب الكبرى مما أبقاهم على مقربة منه . لقد جعل منهم صفوة مختارة متميزة تتمتع بامتيازات أكثر من قبل وأما والفلاحون الأحرار فعلى الرغم من بقائهم مرتبطين بقبائلهم وزعمائهم المحليين بروابط الولاء القديمة ، الا أن انخراطهم فى سلك الجندية كمشاة رفع من قدرهم وزاد من اعتزازهم القومى وجعلهم يشعرون شعورا أقوى بانتماثلهم الى وطن واحد أو أمة واحدة . وهنا نلمس ما كان للجيش المقدونى من أثر وفضل فى دعم وحدة الأمة . لقد كان الفخر بالجمد القومى هو ما يحرك هذه الهيئة المحاربة . ولما كان الملك ذاته قد صار رمزا تتجسد فيه آمال الوطن ، فان هذا الشعور لم يكن منفصلا عن الولاء لشخص الملك وأسرته . كانت خدمة الملك هى واجب كل مقدونى ومناطق فخره . وطن على الملك بدوره أن يخدم المقدونيين ويقودهم بوصفه زعيما أو حتى سيدا ، لكن دون أن ينسى أنه يقود رجالا أحرارا يقاسمهم أعباءهم مثلما يقاسمونه هم مجده .

ولعل أعظم مقومات نجاح فيليب - بغض النظر عن كفايته الفطرية - هو استيلاؤه على أمفيبوليس فى عام ٣٥٧ ، وعلى مناجم الذهب فى جبل بنجاوس عبر الحدود الطراقية . كانت أمفيبوليس - التى تقع على الضفة الشرقية من نهر ستريمون ولاتبعد عن البحر بأكثر من ثلاثة أميال - مدسنة طراقية الأصل - استعظمها الأثينيون عام ٤٣٧ - ثم استسلمت المدينة لاسبيرطة أثناء الحرب البظلوبونيزية عام ٤٢٤ . ولم يستطع الأثينيون استردادها برغم من بذلوه من جهود عسكرية ودبلوماسية ، فظلت المدينة مستقلة . وكانت أمفيبوليس تسيطر على المعر المؤدى الى طراقيا حيث يقع أيضا على الضفة الشرقية لنهر

ستريمون جبل بنجايوس الذى اشتهر بمناجم الذهب ، حيث اشتبك الأثينيون وقتئذ مع القبائل الطراقية المحلية من أجل الاستيلاء على هذه المناجم . وكان أحد أسلاف فيليب وهو الإسكندر الأول (حوالى ٤٩٥ - حوالى ٤٤٠ / ٤٥٠) قد دفع بحدود مقدونيا الشرقية الى الضفة الغربية لنهر ستريمون بمحاذاة مجراه الأدنى (بعد ٤٧٩) . لكن فيليب الثانى هو أول ملك مقدونى ينتزع هذه المنطقة الغنية ويضمها الى ممتلكاته . وقد وطد سيطرته عليها بتأسيس مدينة فيها تحمل اسمه وهى فيليبى فى عام ٣٥٨ - ٣٥٧ .

هذه المناجم درت على فيليب دخلا سنويا يقدر بحوالى ١٠٠٠ تالنت . وصار هذا الدخل دعامة لسلطته اذ مكنته من ربط بلاده بشبكة من الطرق ، وانشاء جيش قومى دائم لأول مرة فى تاريخ بلاده ، يتألف من جنود محترفين كان أعظم من أى قوة عرفت حتى ذلك الحين . لقد استخدم اذا ذهب مناجم بنجايوس - مثلما استخدم ثيمستوكليس الاثينى من قبله (٤٨٢) فضة مناجم لاويوم (باقليم أتيكيا) فى بناء القوة البحرية - للضغط العسكرى وممارسة الضغط السياسى كلما تلوح الفرصة . لقد اختار من بين الفلاحين والرعاة - وهم خامة قتالية ممتازة - أصلح العناصر ونظمهم فى شكل فيلق مشاة ثقيلى العدة (phalanx) غير كثيف . وخلع عليهم لقب « اقران الملك المشاة » (pozetairoi) وهو لقب فخرى منح لهم على سبيل التشريف واثارة الحماس . ويسمى الاغريق المشاة ثقيلى العدة باسك هوليتاى (hoplitae) وهم الذين كان كل جندى منهم يتسلح بدرع ثقيل من البرونز مثبت على الكتف والذراع الأيسرين بيسيور من الجلد ، ويقى صدره بزرد (thorax) من

النحاس أو الجلد ، ويضع فوق رأسه خوذا من البرونز وأحيانا من الجلد يتلى منها غطاء لوقاية الأنف والخدين ، ويرتدى وقائين برونزيين حول ساقيه . وكان الدرع الثقيل والزرذ والخوذة ودرعا الساقين هي أسلحته الدفاعية ، وإن كان الدرع البرونزي الثقيل هو سلاحه الدفاعي الرئيسي . وأما للهجوم فكان الجندي يحمل سيفاً قصيراً من الحديد يستعمل عند الالتحام مع العدو . وأهم من ذلك حرية من الحديد طولها حوالي تسع أقدام تسمى ساريسا (sarissa) للطحن (لا للقذف أو الرمي) .

لكن فيليب جهز مشاة الفيلق المقدوني المعروفين أيضاً باسم أسلحة أثينية حديثة . غير أنه جعل سلاحهم أخف نوعاً من المعتاد . وزودهم أيضاً بالساريسا (sarissa) التي جعلها أطول فأصبح طولها يتراوح بين ١٣ و ١٨ قدماً (وذلك حسب الصف الذي يقف فيه الجندي ، فمن يقف في الخلف تكون حرته أطول) . كان هذا الطراز من السلاح يتيح للجندي حرية تحريك يديه لاستعمال الحرية الطويلة (الساريسا) ، لأن يده اليسرى لم تعد مقيدة بالدرع البيضاوي الشكل الثقيل التقليدي الذي استبدل به ترس صغير خفيف يتدلى من عروة فوق الذراع اليسرى للجندي . كما نظم فيليب الفيلق المقدوني على نسق الفيلق الطيبى بحيث أصبح تشكيله العسكري أكثر عمقا (ما بين ٨ ، ١٦ صففا) على امتداد خط القتال . وجدد في التكتيك وأساليب القتال ، فوسع المسافة بين الجندي وزميله ، مع تدريب الجنود على سد الشغرات عند الضرورة . وبذلك يكون فيليب قد جمع في جيشه بطريقة ماهرة بين ميزتين هما مرونة الحركة وقوة الحشد والتركيز .

وكان هذا الفيلق المقدوني أو الفلانكس المؤلف من المشاة ثقيلتي

الحدة ، حاملى الجراب الطويلة ينقسم الى ست (أو سبع) كتائب (ألوية) تسمى كل منها تاكسيس ، وكانت كل كتيبة (أو لواء) تنقسم بدورها الى وحدات أصغر فأصغر ،

كان الفيلق المقدونى هو الذى بدأ فى العادة بالهجوم حيث أنه كان مسلحا بحراب طويلة ثقيلة . وكان جنود الصفوف الخلفية يحملون حراهم مائلة (فوق رؤوس جنود الصفوف الأمامية) ، وبعدئذ مسطحة لتسديدها والظعن بها عندما يخطون الى الأمام أخذين مواقع زملائهم القتلى فى المقدمة . لقد استخدم الفيلق أذن للأشتباك الزولى مع العدو وفتح ثغرا بين صفوفه ثم تشتيته . وعندما تأتى للحظة النفسية المناسبة يندفع الفرسان (أقران الملك) الى الأمام لتطويق جناح العدو والانقضاض عليه وتدميره .

وبفضل ماتوافر لدى فيليب من ثروة مناجم الذهب فى بنجابوس وأنشأ وحدة من المشاة خفيفى العدة يعرفون منتكسو الدروع صدورهم وهو سلاح هللينى تقليدى . وكانوا مسلحين بتروس صغيرة خفيفة وحرية قصيرة ، ويرتدون جلبابا سميكا قصيرا من الكتان (بدلا من ~~الصديرية أو الزرد~~) ، وقبعة عريضة من اللباد بدلا من الخوذة البرونزية أو الجلدية . وكان عدد المشاة خفيفى العدة يبلغ حوالى ضعف عدد مشاة الفيلق تقريبا . وكانوا ينقسمون (فى ايام الاسكندر) الى أربع وحدات تسجى كل منها (أى تضم ١٠٠٠ رجل) . وكان عملهم الرئيسى هو تغطية جناحى فيلق المشاة .

وأما عن سلاح الفرسان فى الجيش المقدونى فكان يتألف من قسمين أو فرقتين احدهما فرقة الفرسان أقران الملك ثقيلى العدة . وأما

القسم أو الفرقة الأخرى فهي الفرسان خفيفو العتاد الذين كان أغلبهم من الحلفاء اللاتين والبطركيين والبايونيين وعلى الأخص الشيساليين وهم أكثرهم عدداً وأشدهم بطشاً ، وكذلك من المرتزقة غير المقدونيين ممن يتقنون الرماية والسهم والمقلاع . كانت مهمة الفرسان خفيفي العتاد الرئيسية هي القيام بالمناوشات الأولية وتغطية هجوم الفرسان النبلاء أقران الملك ثقيلى العدة ، وذلك بمهاجمة جناحى العدو ، ويقومون أيضاً بمهمة الاستكشاف والاستطلاع أو التجسس قبيل تقدم الجيش أو أثناء مسيرته .

ومن طيبة اقتبس فيليب فكرة تنسيق الحركة بين المشاة والفرسان والفصل الحركى بين جناحى الجيش بحيث أن أحدهما كان للهجوم والآخر للدفاع . ولم يقتصر فيليب على تدريب هذه القوات عسكرياً ، بل درب رجالها على المشى بخطوات سريعة لمسافات طويلة ، وهم حاملون عتادهم ومؤونتهم . وأخضعهم لنظام من الضبط والربط الصارم ، وشجعهم على الاشتراك فى المباريات الرياضية . وكان فى وسع فيليب ، إذا اقتضت الظروف ، ان يلحق الات حصار فعالة بهذه القوة المقاتلة . هكذا ابتدع الملك الكقدونى نظاماً عسكرياً أكثر تعقيداً وجيشاً قومياً أكثر كفاية من نظام وجيش ديونيسيوس الأهل طاغية سراقوسة الذى كان قد جعل من مدينته أغنى دولة فى أوروبا وأقواها عسكرياً (٤٠٥ - ٣٦٧) . كان تفوق جيش فيليب يرجع فى المقام الأول الى صفات جنوده العسكرية ، والكفاية القتالية التى اكتسبوها من طول الخدمة ، ومقدرة القائد وضباطه .

غير أن السلاح الذى أحرز به فيليب ومن بعده الاسكندر

انتصاراته لم يكن فيلق المشاة المتراص ثقيلى العدة المزودين بالحرب الطويلة ، أو المشاة المختارين خفيفى الحدة ، وإنما كان سلاح الفرسان ، أقران الملك ، ثقيلى العدة المؤلف من النبلاء والذى يمثل الصفوة العسكرية ، والذى كان يعهد اليه بالقيام بالمهجمة الاخيرة الحاسمة فى المعركة .

كان ذهب مناجم بنجايوس يمثل عنصرا جوهريا فى دبلوماسية فيليب التى كشف فيها عن براعة فائقة . فعن طريق شراء الأصدقاء ، ومكافأة العملاء ، والتودد الى السفراء ، والكياسة والدمائة استطاع فيليب أن ينشئ فى كل دولة اغريقية حزبا مواليا له . كانت هناك دوليات تخشى على مصالحهما من تهديده بالعدوان عليها . لكنه كان فى العادة قادرا على تخديرها فتهدا وتشعر بالاطمئنان الى أن تخين الفرصة المواتية فيكيل لها الضربة القاصمة . ولم يكن لديه وازع من ضمير ، اذ لم يتورع عن الكذب والخداع ، ولم يكن ليحجم عن خرق هدنة أو تقض عهد لتحقيق هدفه وبلوغ غايته . كانت أطماع فيليب شخصية وأسرية الى جانب أنها كانت قومية . كان أكثرها من ملك وطنى لمقدونيا . لقد كان ينظر الى الاغريق - على ما يرجح - نظرتة الى المقدونيين . ذلك بأن الاغريق كان من الممكن أن يفيدوه كجنود ورجال ادارة ، وكقوم مثقفين يمكن اقتباس ثقافتهم لتمدين المقدونيين . كان هدف فيليب زيادة سطوته الشخصية ودعم نفوذ مقدونيا وانتهج فى ذلك سياسة ثابتة . فكلما غزا منطقة جديدة أدمجها فى جسم دولته النامية .

واصطدم صميم فيليب على غزو المنطقة الساحلية المتاخمة لدولته

بمصالح عصبة خالكيدىكى وأثينا . واستطاع بدبلوماسيته المعهودة تخدير خالكيدىكى فلم تحرك ساكنا بينما مضى ليضم أمفيبوليس وممتلكات أثينا الاخرى بالمنطقة (٣٥٧) . واصلت أثينا الحرب عليه لصد عدوانه (عام ٣٥٧) . لكنها كانت حربا اسمية أكثر منها فعلية ، اذا اقتصرت فى البداية على اشتباكات متباعدة بين الحين والحين . واستمرت احدى عشرة سنة انتهت بالصلح المسمى صلح فيلوكراتيس عام ٣٤٦ . كانت أثينا مكتوفة اليدين وقتئذ بحرب أخرى مع أعضاء الحلف الاثينى الثانى الذين تمردوا عليها (٣٥٧ - ٣٥٥) . اذ انشقت عليها خيوس ورودى وبيزنطة وقوس ودويلات اخرى . ولم يتبق فى يد أثينا بعد نهاية هذه الحرب (حرب الحلفاء) سوى جزيرة يوبويا ، وبعض جزر الكيكلاديس وجزر شمال البحر الايجى ، وسوى جزء من طراقيا . وثمة عامل آخر كان له تأثيره فى ضعف أثينا وهو ما كانت تنفقه من رصيدها الاحتياطى لمعاونة فقراء المدينة واعانتهم لمشاهدة المسرحيات بالجمان . وكان ذلك يشكل عبئا ثقيلا على خزانة المدينة وان كان من حسن حظها أن تولى أمرها بعد حرب الحلفاء يوبولوس الذى أدار شئونها المالية ادارة رشيدة جنبتها متاعب جملة وبدهى أن انشغال أثينا « بحرب الحلفاء » قد استغرق كل وقتها فلم تشارك مشاركة جدية فيما كان يجرى من أحداث داخل بلاد الاغريق . لقد منعها هذا الانشغال من القيام بدور فعال فى الحرب المسماة « بالحرب المقدسة الثالثة » التى نشبت حينئذ (٣٥٦) ، وهى حرب ترتبت عليها آثار خطيرة . لكن ينبغى قبل أن نستعرض هذه الحرب أن نشير الى أن فيليب قد اتبع انتصاره بآخر اذ زحف جنوبا واستولى على بيدنا وسيطر على شمال ثيساليا (شتاء عام ٣٥٧ - ٣٥٦) ثم دمر بوتيدايا احدى مدن

خالكيدىكى - فى العالم التالى (٣٥٦) ، وهو العام الذى ولد فيه ابنه الاسكندر . واتجه شرقا حيث ستولى على الجزء الأكبر من طراقيا . وحقق بذلك حلم مقدونيا القديم بمد حدودها الطبيعية الى البحر . كما ترتب على احتلاله لخط ساحلى طويل أن زاد دخله من المكوس الجمركية العالية ، مما أتاح له أن يبنى سفنا لمهاجمة سفن أثينا فى شمال البحر الايجى وضرب تجارتها .

مقدونيا وبلاد الاغريق فى زمن الحرب المقدسة الثالثة :

كانت طيبة التى تحدثنا عن زعامتها لبلاد اليونان فى الفترة ما بين معركة ليوكترا (عام ٣٧١) ومعركة مانتينا (عام ٣٦٢) ، لانزال تطمع بعد المعركة الاخيرة فى دمج مدن بويوتيا تحت زعامتها . وقد لقيت فى ذلك مقاومة شديدة وعلى الاخص من أوروحمينوس . عدوتها التقليدية فى نفس الاقليم . كذلك أخفقت محاولاتها لفرض ارادتها على جارتها المتخلفة فوكيس . غير أن طيبة كانت قد أحرزت أثناء فترة زعامتها على بلاد الاغريق (٣٧١ - ٣٦١) السيطرة على « حلف دلفى الأمفكتيونى » ، وهو حلف كان فى الأصل ذا طابع دينى يتألف من بعض دويلات بأقاليم وسط بلاد الاغريق وشمالها الشرقى ولا تبعد عن معبد أبوللون فى دلفى الذى كانت حمايته هى الهدف الأصلى من تكوين هذا الحلف . وقد اكتسب الحلف الأمفكتيونى على مر الزمن أهمية ولم تعد أهداف مقصورة على الشؤون الدينية . وكان يضم ١٢ دويلة لكل منها صوتان فى مجلس الحلف . وقد استغلت طيبة سيطرتها على الحلف واستخدمته كأداة لتحقيق أعرافها وضرب خصومها والتكامل بهم . وحدث فى عام ٣٥٦ أن وضع أهل فوكيس أيديهم على سهل

كريسا (الذى يقع بين دلفى وكيرا) وبدأوا يزرعونه لأنفسهم . فعلموا ذلك لأنهم لم ينسوا أنهم كانوا قديما يزرعون على شئون معبد دلفى على الأقل حتى « الحرب المقدسة الآرية » (٥٤٤٨ م) . وكان سهل كريسا ملحقا بدلفى ومقدسا للاله أبو للون وموقوفا على عبادته . واغتنمت طيبة الفرصة للانتقام من غريماتها فوكيس فدعت مجلس الحلف الأمفكتيونى للانعقاد وطالبت بمعاقة أهل فوكيس المعتدين الذين انتهكوا حرمة السهل المقدس . ونجحت فى استصدار قرار من الحلف بادانة فوكيس بتدنيس المكان والزامها بدفع تعويضات عما ارتكبته ، مع توجيه انذار باشهار الحرب عليها . فرارا باعلان الحرب رسميا على فوكيس فى خريف عام ٣٥٥ .

ونكل فيليب بالأسرى الفوكيين الذين وقعوا فى يديه ، ذألقى بحوالى ٣٠٠٠ منهم فى البحر عقابا لهم على نهب دلفى ومعبدها . وكان العقاب رهيبا أحدث رد فعل بين الرأى العام الهللىنى . وبقي فيليب بعد انتصاره قائدا أعلى للجيش الثيسالى ، ورابطت بعض السفن المقدونية فى خليج بجساي ، ووضعت حاميات مقدونية فى بعض مواقع من ثيساليا وازداد دخل الملك المقدونى من حصيلة المكوس المحبابة من السفن المارة بموانى ثيساليا . هكذا توطدت سيطرة مقدونيا التامة على اقليم يونانى هام كثيساليا . وقد حاول فيليب أن يشق طريقه نحو بلاد الاغريق الوسطى . لكن فوكيسبزعزم هزيمتها استطاعت بقيادة خليفة أونومارخوس ومعاونة حلفاء كاسبرطة وأخيا وعلى الأخص أثينا التى أمدتها بقوة لا يقل عددها عن ٥٠٠٠ جندى من المشاة ثقيلى العدة ، تمكنت من حماية ممر ترمويلاى واعاقة الملك المقدونى . من اجتيازه .

ولعل فيليب نفسه لم يصر على اقتحامه حتى لا يظهر في بلاد الاغريق وهو شاهر سيفه . ورأى أن من الحكمة التريث ورفع يديه مؤقتا وقفل راجعا الى مقدونيا فى صيف عام ٣٥٢ .

فيليب والحدود الطراقية :

وبرغم ما أحرزه فيليب من نجاح كبير فى بلاد الاغريق ذاتها الا انه كانت لاتزال أمامه مشكلتان عويصتان تتطلبان حلا عاجلا . كانت احدهما هى مشكلة علاقته بحلف أو عصبة خالكيدىكى ش التى تتأخم مقدونيا وكانت أشبه بالعضو الغريب فى جسم مملكته . كانت هذه المشكلة ملحة تتطلب حلا جذريا . وكانت العصبة الخالكيدىكية تتألف من مدن يونانية مستقلة . فكيف يمكن اخضاعها لارادة لفيليب وادماجها فى جسم مملكته وهل يمكن تحقيق ذلك مع احتفاظ هذه المدن بخصائصها الجهورية واستقلالها الذاتى على الأقل ؟ وأما المشكلة الثانية فكانت تتمثل فى ضرورة توسع مقدونيا فى اتجاه الشرق ووسائل تحقيقه . ذلك بأن نهر نيستوس الصغير (فى شرق مقدونيا) لم يكن بشكل حدودا طبيعية بالنسبة لدولة متزايدة فى القوة كمقدونيا . وكان لابد من مد الحدود الشرقية الى ذلك المضيق الذى يفصل بين أوروبا وآسيا وهو مضيق الدردنيل . لكن ذلك كان يتطلب وسائل لم تكن ميسورة لفيليب . كان يتطلب أسطولا بحريا أو بالاحرى مساعدة دويلات المدن الاغريقية ولاسيما أثينا أقوى هذه الدويلات بحريا . وكان التوسع نحو الشرق يترتب عليه شىء اخر هو حتمية الاصطدام بالفرس . لقد أدرك فيليب أنه لا يستطيع الاستغناء عن الاسطول الاينى . وليس من المحتمل أنه كان يستهدف وقتئذ بناء امبراطورية تشمل كل شبه جزيرة

البلقان . وأيا كان الأمر فمن المؤكد أنه كان يميل فى ذلك الوقت الى أرجاء تصفية حسابه مع الغريق ، ومع أثينا بوجه خاص الى أطول مدة ممكنة . ولقد تسلل فيليب فى أول الامر الى بلاد الاغريق تسلا سلميا أى لم يدخلها الا مدعوا . ولم يكن له فى ذلك كل الاختيار . وعندما أرغم فى آخر الأمر على أن يخوض مع بلاد الاغريق صراعا سافرا فان ذلك يعزى بالدرجة الأولى الى مناورة ديموستينيس الخطيب والسياسى الاثينى ، وعداوته المريرة له . لقد عبأ الخطيب الاثينى قوى الهلينيين ضد الملك المقدونى « المتبربر » . ومن ثم فقد استحال التوصل الى تسوية . كان الخلاف عقائديا أو ايديولوجيا . وكان يزداد مع الأيام عمقا واتساعا الى أن أصبح من المستحيل تسويته .

وقد أشرت من قبل الى الوضع الذى آلت اليه اثينا بعد الحرب المسماة بحرب الحدفاء (٣٥٧ - ٣٥٥) . كانت أحوالها الاقتصادية وقتئذ سيئة . وقد اسند الاشراف على الخزانة المسماة بحزارة الترويح أو الترفيه التى يتألف رصيدها المال الاحتياطى ، اسند الى يوبولوس . وكان ينفق منه على الترويح عن المواطنين الاثينيين بمعنى منح المحتاجين منهم اعانة لتمكينهم من حضور الحفلات المسرحية وعلى الاخص حفلات ديونيسوس الكبرى . كانت حكومة اثينا ترى أن من واجب الدولة كفالة العيش للمواطنين ، والأمن ، والترفيه عنهم أيضا . وقد يبدو ذلك لنا غريبا نحن المحدثين . لكن الحفلات المسرحية كانت تشكل جانبا من العقائد الدينية أو بالاحرى كانت جزءا من الطقوس الدينية . وبحرور الزمن أصبح هذا حقا مكتسبا للمواطنين المحتاجين ولايجوز الانتقاص منه بل كان من يجترى على المساس « برصيد الترفيه » أو تحويله الى

غرض آخر يتعرض للمتاعب ويمكن أن تقام عليه دعوى انتهاك القوانين . ومن حسن حظ أثينا أن يوبولوس وزير هذه الخزانة - ان جاز التعبير - كان رجلا نزيها قديرا أحسن ادارة الشؤون المالية وأقال أثينا من عثرتها ، فزاد من رصيد الاحتياطي الخاص بالترفيه ، وضاعف الدخل العام ، وتوسع فى المباني والمنشآت العامة دون أن يفرض ضرائب جديدة . بل أنه اعاد أيضا تنظيم سلاح فرسان أثينا ودعم قوتها البحرية . وكان فى سياسته معتدلا فكان من أول دعاة الصلح من الحلفاء وكان ينصح بانتهاج سياسة أقرب الى المهادنة أو التهدئة منها الى المخاطرة ، وتجنب أى تدخل أو مغامرات عسكرية توسعية . وكان يعاونه سياسى أمين آخر هو فوكيون الذى ظل ينتخب قائدا سنوات طويلة . واشتهر بالتحفظ بل بالترفع عن الدهماء . وكان يعارض سياسة التهور والحرب ، ويؤمن بعدم جدوى مقاومة قوة عسكرية ضخمة مثل مقدونيا .

وأما ديموستينيس (٣٨٤ - ٣٢٢) فقد بدأ حياته معلما للبلاغة وكاتب خطب وقضائيا ثم اشتغل مساعدا للمدعين العموميين فى المحاكمات الرسمية العامة . وقد شق طريقة بفضله بمقدرته الخطابية الفائقة الى مسرح السياسة . وقد أبدى تأييده للإجراءات المالية التى اتخذها يوبولوس والقى فى عام ٣٠٤ خطابا دعا فيه الى ضرورة دعم الاسطول الاثينى وكان هذا الخطاب المسمى « سيموريا » أول خاب سياسى له فى الاكليسيا (الجمعية الشعبية) . وكان يتضمن تأييدا لسياسة يوبولوس . ولم يكن هناك فى ذلك الوقت سبب يدعو ديموستينيس الى معاداة فيليب . لم تكن نظرتة قد اتسمت بعد ذلك الشمول الذى اتسمت به فخره بعد . كانت لاتزال محدودة كنظرة معظم

بنى وطنه من الأثينيين . ولم تخطر بعد على باله فكرة تجميع صفوف الاغريق أو حث دويلات المدن اليونانية على الوقوف جبهة واحدة . ويتبين ذلك من خطبته التى ألقاها بالجمعية الشعبية فى العام التالى (٣٥٣) مناشدا الأثينيين التدخل لحماية أهل « ميجالوبوليس » من عدوان اسبرطه . فهى خطبة لانزال متمسمة بضيق الأفق المحدود بعالم دويلة المدينة . وكان يهدف من وراء هذه الخطبة المسماة باسم « أهل ميجالوبوليس » الى حث بعض مدن البلوبونيز كارجوس وسيكيون على نبد تحالفها مع طيبة والانحياز الى جانب أثينا . وسنلاحظ ما يطرأ على فكر ديموستينيس من تطور وعلن نظرتة السياسية من تغيير اذ تكتسب بالتدرج لحة مثالية وتزداد عقيدته السياسية صلابة . وكان ذلك من شأنه أن يباعد بينه وبين رجل مثل يوبولوس ، بل أدى فى آخر الأمر الى وقوع خلاف بين الرجلين . وقد ذكرت أن لم يكن هناك فى ذلك الوقت سبب يدعو الى معاداة ملك مقدونيا لأن نقطة التحول لم تبدأ الا بعد بضع سنوات عندما هاجم ديموستينيس فيليب عام ٣٥٠ - ٣٤٩ فى الخطبة المسماة « بالفيلية الأولى » .

لم تكن مصالح أثينا فى الواقع ترتبط بالجنوب بل بالشمال أى بمنطقة طراقيا (شبه جزيرة طراقيا) ومضيق الدردنيل والبسفور . ومع أنها عقدت محالفة مع الأمير الطراقى كرسبلتيس (٣٥٧ - ٣٥٢) الا أنها كانت تميل الى الارتباط بالأمير الآخر أمادوكوس وبالمدينتين اليونانيتين الأخريين برينثوس وبيزنطة . على أن التنافس بين هذه القوى كان يشكل نوعا من توازن القوى الذى يحفظ لأثينا مصالحها فى تلك المنطقة الحيوية . وقد أعاد القائد الأثينى خاريس السيطرة الأثينية على

خرسونيسوس (شبه الجزيرة) الطراقية وفي عام ٣٥٢ واستولى على مدينة سيحتوس على الدردنيل ، وأسكن مستعمرين أثينيين فى شبه الجزيرة . لكن فيليب المقدونى قام فى آخر اعوام ٣٥٢ أو أوائل ٣٥١ بحملة خاطفة غزا فيها طراقى حتى الموقع المسمى سور هيرا . وخلق بذلك وضعا جديدا بل تغيير الموقف هناك تغييرا تاما . وقد بادر الأميران الطراقيان الى عقد محالفة مع الملك المقدونى . ومع أن المرض أفضده عن استغلال انتصاره استغلالا تاما الا أن المنطقة التى تقع بين نهر نيسستوس وبين البحر الاسود (باستثناء شبه الجزيرة الطراقية) صارت تعتبر منطقة نفوذ مقدونية .

وتلقت أثينا صدمة من جهة أخرى فى الشمال . ذلك بأن فيليب بدأ يشدد ضغطه على « عصابة خالكيديكى » فغزا مدينة ستاجيرا - Sta-geira (مستقط رأس الفيلسوف أرسطو) ودموها فى عام ٣٥٠ . وأخذت سفن القرصنة المقدونية تجوس خلال شمال البحر الايجى وتتعرض لسفن أثينا ملحقة بالتجارة الأثينية أضرارا بليغة . ولم يعد من الممكن السكوت على أعمال الملك المقدونى فألقى ديموستينيس فى عام ٣٥٠ (أو ربيع ٣٤٩) خطبته ضد « باب المسماة بالفيليبية الاولى (philippica) فى الجمعية الشعبية الأثينية (الاكليسيا) . ولأول مرة يقف منه موقف المناوئة السافرة . كان هذه الخطبة - على نحو ما ذكرنا - نقطة التحول الحاسمة فى موقفه من الملك المقدونى (١) . ومع هذ فان مبادئ ديموستينيس السياسية لم تتبلور تماما ولم يتحول هو الى عدو لدود لفيليب المقدونى الا بعد « صلح فيلوكراتيس » (عام ٣٤٦) الذى

(١) تنتمى خطب ديموستينيس السياسية الكبرى الى الفترة ما بين ٣٥٠ ، ٣٤٠ ق . م .

سنتعرض له بعد حدث أن فر من مقدونيا بعض خصوم للملك ولجأوا الى أولينثوس (Olynthus) وغيرها من مدن خالكيدىكى . وطالب فيليب بتسليم الهاربين . ورفضت أولينثوس . وبذلك تهيأت له الفرصة التى كان يترقبها .

واخيرا صحت أثينا من غفوتها الطويلة وبادرت بعقد مخالفة مع عصبة خالكيدىكى وأرسلت اليها مجندات تحت قيادة خايس وخاريديموس . وهكذا نشبت « الحرب الاولينثية الاولى » بين فيليب من ناحية والعصبة الخالكيدىكية وأثينا من ناحية أخرى (٣٤٩ - ٣٤٨) . وقد ألقى ديموستينيس خطبة السياسية الثلاث المسماة بالأولينثيات (Olynthiaca) فى تلك الفترة (بين خريف ٣٤٩ و ربيع ٣٤٨) . حيث نبه الى تزايد قوة مقدونيا واستفحال خطرها وضرورة الاستعداد لمواجهة هذا الخطر فى الشمال بعزيمة أقوى وجهد عسكري أكبر من ناحية أثينا . وقد لمح فى « الأولينية الاولى » الى ضرورة استخدام الرصيد الاحتياطى بخزانة الترفيه (Theorikon) فى المجهود الحربى (stratitika) . ثم دعا الى ذلك صراحة فى الخطبة الثالثة لمساعدة أولينثوس عسكريا . لكن الحملة الاثينية التى ارسلتها اثينا لنجدة أولينثوس لم تسفر عن شىء ولم تحدث أى تأثير فعال . وكان انتصار فيليب ساحقا وتاما . بل لقد نجح فى حمل يوبويا (ماعدا مدينة كاريستوس Carystos) على التخلي عن أثينا والتمرد عليها ونبد التحالف معها مهددا بذلك طريق السفن الأثينية الى شمال البحر الايجى والدرديلى الذى كان بمثابة شريان حيوى لحياة اثينا الاقتصادية . وسقطت أولينثوس فى يد العاهل المقدونى فى عام ٣٤٨ ودمرها تدميرا وباع أهلها كعبيد فى أسواق مقدونيا . وأسكن فى

موقعها مستعمرين مقدونيين . وفقدت مدن خالكيدىكى الأخرى استقلالها وأدمجت فى جسم الدولة المقدونية . ولسنا فى حاجة الى تأكيد أهمية سقوط خالكيدىكى وزعيمتها أولينثوس فى يد مقدونيا . فالى جانب الكسب المادى المترتب على غزوها ، فان ادماجها كمركز قديم من مراكز الثقافة اليونانية فى مقدونيا كان من شأنه أن يبدل الصورة فى الشمال تبديلا ويخلق وتصورا جديدا بالنسبة للعلاقة بين الوجود الاغريقى والوجود المقدونى هناك ، وأن يرجح بالضرورة الكفة المقدونية .

ولم يكن ديموستينيس مستولا عما أحرزه الملك المقدونى من انتصارات ضخمة ، فكثيرا ما نبه بنى قومه من خطر فيليب وحذرهم من مغبة التراخى والتقاعس ، وحشهم على بذل مزيد من الجهد العسكرى لدعم الجبهة الشمالية . لكن انتصارات فيليب كانت متلاحقة . وقد وجد ديموستينيس أن أثينا ربما تكون فى حاجة الى فترة من الراحة تلتقط فيها أنفاسها وتستجمع قواها وتعد نفسها للحظة الصراع الحاسمة مع الملك المقدونى . ولذلك لم يمانع الخطيب الكبير فى الاشتراك فى السفارة أو الوفد الذى أرسلته أثينا الى مقدونيا للتفاوض مع فيليب فى عاصمته بللا فى مستهل عام ٣٤٦ . كان الوفد المؤلف من عشرة يضم أيضا ايسخينيس -حوالى ٣٩٠- بعد ٣٣٠ ، وهو خطيب مفوه ، وفيلوكراتيس أحد الساسة المعتدلين . وقد أحسن الملك المقدونى استقبال السفارة أو الوفد الاثينى واحتمفى بهم . وقد لوحظ أن ايسخينيس قد أصبح بعد عودته من أقوى دعاة التفاهم مع فيليب وبالتالي اصبح عدوا لدودا لديمو سثينيس الذى هاجم زملاءه فى الوفد بعد عودته موعزا

بإيثارهم مصلحة فيليب على مصلحة وطنهم . والقى ديموستينيس خطبة سياسية فى المحكمة بمناسبة الدعوى التى أقامها على آيسخينس واتهمه فيها بفساد الذمة (حتى قبل ذهابه الى بللا) والارتشاء لحمل الشعب الأثينى على عقد معاهدة غير مشرفة مع فيليب . وتحمل هذه الخطبة التى ألقىت عام ٣٤٤ عنوان « السفارة » (المخادعة) وعلى الرغم من قوة الادعاء الا أن الادلة غير مقنعة تماما . لذلك برئت ساحة آيسخينس الذى رد عليه بخطبة تحمل نفس العنوان أو بالأحرى عنوان « السفارة » (المنخدعة) بغلبة ضئيلة . وقد وسع هذا الاتهام بالخيانة تقريبا شقة الخلاف بين الرجلين وأدى الى خصومة استمرت سنوات طويلة تبادل فيها الخطيبان الكبيران السباب الذى انحدر أحيانا الى حد الخوض فى الشئون الخاصة . وبذلك ضاعت الحقيقة وسط أوار المعركة الكلامية ولم يعد من اليسير استجلاء الحقيقة من ثنايا التهم المتبادلة . ويتجه الرأي الآن الى عدم تبرئة أى من الطرفين تبرئة تامة . هناك غبار على مسلك الرجلين وان تفاوتت كشافته . لكن بينما كان ديموستينيس صاحب عقيدة سياسية واضحة ، لم يكن لخصمه آيسخينس مثل هذه العقيدة أو المبدأ .

وكان من أشد أنصار فيليب الكاتب السياسى الأثينى إيسوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨) الذى كتب عدة رسائل سياسية . وقد وجه احداها « الى فيليب » عام ٣٤٦ ودعاه الى تزعم بلاد الاغريق فى حملة انتقامية كبرى ضد الفرس الذين يجهضون على صدر الاغريق فى ساحل آسيا الصغرى . كانت سياسته مناقضة تماما لسياسة ديموستينيس . وكان من الطبيعى ان يكيل له من ~~ال~~الوطنى ش المتطرف تهمة المهادنة بل

التواطؤ مع فيليب . لكن ايسوقراط لم يكن - على وجه اليقين -
مخدوعا أو خائنا بل كان مؤمنا بضرورة توحيد دويلات المدن اليونانية
الممزقة . ولم ير بأسا في انضوائها تحت زعامة رجل قوى واحد مثل
فيليب . كان يرى في ذلك فرصة لقيام كل الاغريق بهجوم - على
الفرس ، والانتقام منهم (لما ارتكبوه من تخريب للمعابد وغيرها في
الحروب الفارسية القرن الخامس ق . م) وتنفيذ الهدف الذي لم يتمكن
الزعيم الاثيني كيمون Cimon (٥١٢ - ٤٤٩ ق . م) من تحقيقه ،
وعلى الاخص تحرير المدن اليونانية على الساحل الايوني من يرثان
السيطرة الفارسية . ويتبين من منشوراته أو رسائله السياسية (وهي ذات
صبغة أدبية ايضا) انه كان من دعاة الترحيب بالاجانب المثقفين
بالثقافة اليونانية في المجتمع الهليني لأن المعيار - في رأيه - ليس هو
العنصر أو المولد وانما هو الثقافة . ذلك هو معيار الهلينية . ولما كان
فيليب - وهذا صحيح - مثقفا بالثقافة اليونانية فليس ما يمنع من
انضواء الاغريق جميعا تحت لواء مقدونيا ، واتحادها بدلا من الفرقة
والتمزق ، للقيام بحملة ضد الفرس تحقق اغراض الاغريق .

لقد فشلت الحملة التي كانت أثينا جردتها لمساعدة ثوار مصر ضد
الحكم الفارسي عند منتصف القرن الخامس (٤٥٩ - ٤٥٤) . واستفاد
الفرس من الخلاف الذي كان قائما بين أثينا واسبرطة ، اذ طعن
الاسبرطيون أثينا في ظهرها وهي تحاول استنقاذ مصر من قبضة الفرس
(عام ٤٥٧ ق . م) في تلك الحملة . ثم طعن الاثينيون اسبرطة في
ظهرها عندما كانت الأخيرة تحاول طرد الفرس من الساحل الأيوني اثناء
فترة زعامتها (عام ٣٩٣) . فاذا اتحد العالم الهليني بدلا من هذا

الانقسام الضار ، فلن يتعذر عليه غزو بلاد الفرس . ولن تعترضه عقبات عسكرية جسيمة . وقد أثبتت ذلك تجربة س العشرة آلاف « جندي من المرتزقة الاغريق الذين استأجرهم قورش الفارسي لمساعدته فى اغتصاب العرش من أخيه الأكبر فى عام ٤٠١ ، فقد زحفت هذه القوة المتواضعة دون اعتراض من الساحل الغربى لآسيا الصغرى (من سرديس) عبر الاناضول حتى أرض بابل وواجهت كل القوات التى حشدتها حكومة الامبراطورية الفارسية . ولولا مقتل قورش نفسه فى معركة كيناكسا لاستطاعت هذه القوة من المرتزقة الاغريق أن تحقق الانتصار . لكن هذه القوة لم تجدد مبرر لبقائها بعد موت من استأجرها مغادت أدراجها من أرض بابل وسارت عبر جبال أرمينيا وعبر أراضى جبلية موحشة الى ساحل البحر الأسود فى شرق الاناضول (طرابيزون) وتمكنت من الانسحاب برغم محاولات الجيش الفارسي والقبائل المحلية لقطع طريق العودة عليها . فلو ضوعفت مثل هذه القوة العسكرية الهلينية ثلاث أو أربع مرات ، ومساندتها كل بلاد الغريق المتحدة فان مشروع غزو الامبراطورية الفارسية قد يحالفه النجاح .

كان مشروع الغزو الكبير من وجهة النظر الهلينية مشروعاً معقولا . فلماذا يستمر الاغريق فى مقاتلة بعضهم بعضاً فى حروب مدمرة بينما هم فى استطاعتهم توحيد الصفوف والقيام بحملة لفتح « مجال حيوى » فسيح فى الشرق واستغلال امكاناته . ان بلاد الاغريق كانت فى القرن الرابع ق . م . مثلما كانت فى القرن الثامن ق . م - تعاني من تضخم عدد السكان . ونشطت حركة الاستعمار (٧٥٠ - ٥٥٠) ولم يستطع استعمار شواطئ غرب البحر المتوسط . والبحر الأسود ولا الثورة الاقتصادية

التي تربت عليه أن تمدّها بما تحتاجه من مئونة مستديمة كافية لإطعام أفواه الاغريق المتزايدة . لكن غزو بلاد الفرس قد يتيح للمستعمرين الغريق المجال الحيوى الواسع على أساس احتفاظهم بالاراضى أو استيطانهم فيها . لقد كان المشروع عمليا ويمكن تنفيذه . لكن أكان هناك ما يرر القيام به سوى حق الاغريق فى الانتقام ، وهو حق مشكوك فيه ؟

لقد كان يوجد على أيام ارسططاليس الشهير بأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) بعض مفكرين هللينيين ينادون بأن الأغريق كان لديهم حق طبيعى فى الغزو لأن الاغريق ولدوا أحرارا بينما ولد غير الاغريق عبيدا . وبعبارة أخرى كان هؤلاء المفكرون ، ومن بينهم أرسطو نفسه ومن قبله أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧) يستحلون فتح بلاد الفرس أو بالأحرى بلاد البرابرة ، واسترقاق أهلها بل كانوا يستحلون ابادتهم . لكن النظرية باطلّة وتتم عن ضيق الافق والتعصب الجنسى والتمييز أو التفرقة العنصرية . وليس أدل على ذلك من ان كاتباً من مدرسة الطب الهبوقراطية (وهو أبقرط من جزيرة قوس قرب ساحل آسيا الصغرى) قد لاحظ فى بحث له عن تأثير البيئة على الطباع ، لاحظ قبل ذلك بحوالى مائة عام ، أن غير الهلليين أو البرابرة الذين يعيشون فى الاقطار الوعرة التضاريس ، كانوا كالأغريق تماما فى قسوة العزيمة وحب الحرية . وقد أبدت الاحداث التالية لغزو بلاد الفرس على يد الاسكندر والاغريق ، صحة هذه النظرية ودقتها . ان النظرية القائلة بحق الاغريق الطبيعى فى فرض السيطرة أو السيادة على الاجناس « الدنيا » لم يكن فى حقيقة الأمر سوى تلمس العذر أو البحث عن ذريعة لمعاودة ما فعلته اسبرطة باضطهاد

رعاياها من أشباه العبيد وما فعلته أثينا باضطهاد المدن اليونانية التي اخضعتها للجزية فى حلف ديلوس وان كان القياس مع الفارق .

هذه الانتصارات التى أحرزها فيليب أزعجت خصومه فى أثينا وأرقت بالهم وكان فى مقدمتهم ديموستينيس الذى لم تذق عيناه النوم منذ تلك اللحظة . ولم تسعفه وقتئذ ال فصاحته وذلاقة لسانه فألقى فى الجمعية بالخطبة الفيلىبية الثانية (عام ٣٤٤) كاشفا فيها النقاب عن خداع فيليب ومخالفته ولؤمه ومراوغته ، ومقارنا فيها بين وحدة هدف الملك المقدونى وتصميمه ، وانقسام رأى الاثينيين وترددهم . لكن فاته أن يقول ان سياسته الخرقاء أو الحمقاء هى المسئول عما حدث الى حد كبير . وأرسل فيليب الى اثينا وقد يدعوها لايفاد بعثة الى دلفى لتمثيلها فى المهرجانات البيثية الدورية ويخطر بها بانتخابه عضوا فى الحلف الامفكتيونى ولكن أثينا رفضت بايعاز من ديموستينيس - تلبية مثل هذه الدعوة التى تنم عن الصلف والصفافة . وكان هذا الرفض بمثابة احتجاج أمام الاغريق جميعا على دخول فيليب حلف دلفى الامفكتيونى . وقد بدا لبعض خطباء لحزب الوطنى المنادى لفيليب أن يتحدثوا فيليب تحديا مافرا . لكن ديموستينيس نفسه أدرك عدم جدوى ذلك واضطر الى تهدئه الخواطر التى اثارها هو نفسه بخطبة الحماسية وسياسته الحمقاء . فدعا الاثينيين الى قبول نتائج هذه السياسة العقيمة التى حملهم هو على سلوكها . لقد ضحى بأوروبوس (بين اتيكا وبويوتيا) وأمفيبوليس (فى الشمال) ، وانشقت الجزر على اثينا . كان من الحماسة - على حد قوله - أن تخوض أثينا حربا ضد كل البلاد الاغريق من أجل « شبح دلفى » . وهذا التهكم المرير الذى ختم به

ديموسثينيس خطبته يكتنف عن الغيظ المكبوت فى صدره والمرارة التى امتلاء بها قلبه بل المهانة التى اضطر الى ابتلاعها . لكن من الغريب ان ديموسثينيس سيمسبح منذ ذلك الحين الموجهة للرأى العام الأثينى والمتحكم فى سياسته .

بلاد الأغريرق ومقدونيا من صلح فيلوكراتيس حتى مصرع فيليب :

بالزعيم القبلى بليوراتوس (Pleuratos) . وقد هيا له انتصاره ، هذا الفرصة لاعادة النظر فى تنظيم ئيساليا المتاخمة لمقدونيا ولا ليريا وقد بدأ فى عام ٣٤٤ بأن أدمج جماعاتها القبلية العشر فيما يشبه الحلف الفيدرالى (Koinon) . لكن ثبت عدم جدوى هذا التنظيم فعاد فى عام ٣٤٢ وقسم الاقليم كله اداريا الى اربع وحدات ادارية (tetrachia) لكل منها مركز مدنى أو عاصمة ، ولكل منها حاكم يعين بموافقة فيليب . ثم انتخب فيليب أرخونا (archon) أى حاكما على كل ئيساليا عام ٣٤٢ ان لم يكن قبل ذلك (عام ٣٤٤ ؟) . وقد تجنب لقب تاجوس (tagos) الذى كان مألوفة فى ئيساليا ولكنه يدل على معنى الاستبداد بل أن كل كلمة « طاغية » فى العربية منقولة عن هذا اللقب اليونانى . وقد ظلت ئيساليا منذ هذا التاريخ (٣٤٢) مشدودة الى عجلة مقدونيا حتى معركة كينوس كفلاى عام ١٩٧ (ق.م) عندما الحقت روما الهزيمة بفيليب الخامس سليل فيليب الثانى .

الصراع بين فيليب وديموسثينيس :

وقد زاد هذا الاجراء من قلق الأثينيين ، وتراءى لديموسثينيس أن يفعل شيئا مضادا . فقام بجولة فى عام ٣٤٣ فى البلوبونيز لاثارة الخواطر ضد العاهل المقدونى وحث المدن التى استكانت أو انحازت الى مقدونيا

على الانفضاض من حول فيليب . وقد رافقه في جولته هذه صديقه هيجسيبوس الذى اشتهر بكرهيته لفيليب حتى لقب بلقب يحمل هذا المعنى . وقد احتج الملك المقدونى على نشاط ديموستينيس المعادى السافر فى البلوبونيز وتخريضه مدنها على التمرد عليه . لكن ديموستينيس لم يكثر باحتجائه . وقد تراءى لديموستينيس وقتئذ (٣٤٣) أن يلجأ الى خطة جديدة وهى التعاون مع الفرس لضرب فيليب . ولم يكن هناك سياسى اثنى يستطيع ان يجاهر بعقد محالفة رسمية مع ملك الفرس فى ذلك الوقت . ومع هذا فقد اقترح ارسال وفد الى بلاط الملك أردشير الثالث . لكن هذه الخطوة التى تكشف عن اليأس والحيرة ، لم تسفر عن شىء . وحضر فى الوقت نفسه الى اثينا وفد مقدونى برئاسة بيثون البيزنطى لكى يعرب عن رغبة فيليب فى تعديل بعض نصوص صلح فيلوكراتيس وازالة بعض « الشوائب التى تشوه جماله » - وعلى الأخص لطلب الملك المقدونى لكانت تنازلت بذلك تنازلا رسميا تاما عن حقها فى أمفيبوليس وبيدنا وبوتيدايا . لاعجب اذن أن اثينا لم تحرك ساكنا . وجدير بالذكر أنه تخلل ذلك النزاع بين فيليب واثينا ظهور منشور أو رسالة سياسية بقلم سيبوسيسوس رئيس المدرسة الفلسفية الافلاطونية (المسماة بالأكاديمية) وفيها يؤيد دعوى فيليب بحقه فى أمفيبوليس . ويعزز الكاتب رسالته بحجج مستمدة من الأساطير . واستمر حبل المفاوضات المتعثرة متصلا دون الوصول الى اتفاق نهائى (حتى صيف عام ٣٤٢) .

وفى صيف عام ٣٤٣ عقد فيليب مع الفرس معاهدة صداقة وعدم اعتداء بمعنى ان يترك له الفرس حرية التصرف فى أوروبا وعلى الأخص

فى كل طراقيا على أن يترك هو للفرس حرية التصرف فى اسيا (الصغرى) . وتدل المعاهدة على بعد نظر المعاهل المقدونى ودهاته لأن المعاهدة كانت الى جانب انها أطلقت يده فى طراقيا جعلت ظهره محميا فى حالة نشوب الصراع المتوقع مع بلاد الاغريق والقيام بحملة ضدها لفرض سيطرته التامة عليها . وفى شتاء عام ٣٤٣ - ٣٤٢ اتجه فيليب الى ايروس (فى جنوب غرب مملكته) اذ انتهز فرصة قيام بعض الاضطرابات ونصب الاسكندر المولوسى ، شقيق زوجته ، ملكا على ايروس . وضم ايروس الى منطقة كاسويا ، واصبح قاب قوسين أو أدنى من اقليم غرب بلاد اليونان كأمبراكيا وأكارنانيا وأيتوليا . وبذلك أمن جنبه الغربى . وكان هذا امرا حيويا بالنسبة لامتلاك ثيساليا نفسها .

ووقع فى شتاء عام ٣٤٣ - ٣٤٢ حدث بالغ الأهمية سيمتد تأثيره الى بلاد الاغريق ومقدونيا اذ غزا ملك الفرس ، أردشير الثالث الملقب أوخوس ، مصر وبلغ عاصمتها ممفيس ، وقمع ثورة المصريين التى استمرت قرابة ستين عاما . وأعاد مصر للمرة الثالثة الى حظيرة الامبراطورية الفارسية . وقد أثار توسع الفرس وازدياد نفوذهم قلق فيليب . ولعل ذلك قد دفعه الى مراجعة نفسه فى موقفه من بلاد الاغريق اى جعله اكثر استعدادا للتفاهم مع أثينا وانتهاج سياسة اللين معها . كان على نحو ما ذكرنا فى حاجة الى الاسطول الاثينى وتأمين ظهره اذا خرج فى حملة ضد الفرس فى المستقبل . لذلك اقترح فيليب فى ربيع عام ٣٤٢ أن يتحول صلح فيلوكراتيس الى صلح أو سلام عام ينسحب على كل بلاد الاغريق . لكن الجو فى اثينا لم يكن مهيئا لقبول عرضه . كان الجو قد أصبح مشحونا بالهواجس ، متوترا ، وتسوده هستيريا الحرب

بتأثير ديموسثينيس وانصاره من المتطرفين فى الحزب الوطنى كالخطباء هيبيريديس وهيجسبوس وليكورجوس . ويتضح ذلك من « الفيليبية الثالثة » التى ألقاها ديموسثينيس عام ٣٤١ ، وهى أروع خطبه السياسية . وتمنيز هذه الخطبة بسعة الافق والنظرة السياسية الشاملة . فهى ليست مجرد دفاع عن مصالح اثينا وحدها بل هى دفاع عن حرية بلاد الاغريق بأسرها ، تلك الحرية التى أصبحت فى كفة القدر ويتهددها الخطر . كانت الاعصاب فى اثينا مشدودة وينعكس ذلك على خطبة اخرى تحمل اسم « هالونيسوس » وهى جزيرة صغيرة عرضها فيليب انثذ على اثينا . ورفض الحزب الوطنى المناوىء لمقدونيا قبولها واصفا الجزيرة بأنها هدية تافهة عديمة القيمة ، وقائلا فى سخرية بأن فيليب انما يرد لاثينا ما كانت تملكه بالأمس .

تحرك فيليب نحو الدردنيل :

وتحول فيليب مرة أخرى شرقا الى طراقيا (يونيو عام ٣٤٢) . ولم يكن هذا التحول يعنى انصرافه عن الصراع الوشيك على زعامة بلاد الاغريق نفسها . وقد أنجز فيليب فى طراقيا هذه المرة عدة أعمال هامة اذ أخضع امراءها المحليين ، ونظم كل المنطقة الواقعة بين نهر نيستوس وساحل البحر الأسود فى شكل ولاية مقدونية ونصب عليها أحد قواده واليا ، على غرار الولايات الفارسية ووطد غزوه لطراقيا بانشاء مستعمرات مقدونية . وقد أمدته طراقيا بموارد اقتصادية وبشرية كبيرة . وعقد محالفة مع هرمياس أمير اتارنيوس ، وهى مدينة باقليم ميسيا فى شمال غرب الأناضول (فى مواجهة جزيرة ليسبوس) . ويمكن الافتراض بأن فيليب قد جالت بخاطره فكرة عبور الدردنيل فى يوم من الايام واقتحام اسيا

الصغرى وان هرمياس كان مستعدا ليسهل له طريق الغزو بأن يجعل من امارته رأس حربية للملك المقدونى . لكن من العسير الآن التيقن من نوايا فيليب وقتل نحو الامبراطورية الفارسية وحقيقة أهدافه . لكن من المؤكد ان ضعف الامبراطورية الفارسية - برغم انتصارها القريب من مصر - لم يخف على رجل ثاقب النظر كفيليب . ومع هذا فقد كان من المستبعد ان يشرع فى الحملة ضد الفرس قبل ان يفرغ من تصفية حسابه مع الاغريق .

وقد أثار تحرك فيليب نحو مضيق الدردنيل موجة من القلق الشديد بين خصومه فى أثينا . وطالب ديموسثينيس فى خطبته « الفيليبية الثالثة » بدعم الجهاز العسكرى وشن الحرب برا وبحرا وبث الدعاية ضد فيليب بين المدن المحايدة . وذهب ديموسثينيس الى منطقة بحر مرمره حيث بدأ الخطر يطل برأسه . وبرغم أن بيزنطة لم تكن منذ عام ٣٦٤ صديقه لاثينا اذ تحالفت مع طيبة ثم تعاونت مع الدويلات المنشقة على أثينا الا أنها وجدت أن هطر فيليب عليها أكبر ، ولذلك وافقت على عقد معاهدة دفاعة مع اثينا (٣٤١) . وكان هذا عملا عدوانيا ضد فيليب لأن بيزنطة كانت متحالفة معه منذ عام ٣٥٢ . كذلك عقدت اثينا معاهدة دفاعية مع أبيدوس (على الدردنيل) ثم تحالفة مع « عصابة يوبويا » وزعيمتها خالكيس (٣٤١) . لكن خيوس وورودس رفضت الانضواء فى حلف مع اثينا مما أصاب ديموسثينيس بخيبة أمل . وكان من المتوقع أن تتحرك بلاد الفرس وتمتد يد المساعدة لاثينا لكنها لم تتحرك لأن هرمياس ، أمير اثارنبوس ، كان قد غدر به وأصبح فى قبضة الفرس ، ومن ثم فقد استبعد الفرس قيام مقدونيا بغزو اسيا الصغرى .

ولم يقف فيليب المقدونى مكتوف اليدين بل رد على التحرك الاثينى بأن حاصر مدينة بيرينثوس الواقعة على ساحل بحر مرمرة أى داخل منطقة النفوذ المقدونى (ربيع عام ٣٤٠) . ورغم ان فيليب استخدم فى حصاره لتلك المدينة أحدث اجهزة الحصار الا أنها استعصت عليه واتاح اعتداؤه الصارخ على بيرينثوس للخطيب الاثينى فرصة احراز نجاح باهر فى ميدان السياسة الخارجية . فقد دعا ديموشينيس الى عقد حلف اغريقى تحت زعامة اثينا لمناهضة عدوان فيليب (٣٤٠) ، وكان الحلف دفاعيا والقصد منه توحيد بلاد الاغريق لمواجهة تهديدات فيليب ودرء خطر الغزو المقدونى . ولم تشترك فى الحلف بويوتيا التى تشغل موضعا حساسا فى قلب بلاد الاغريق . وشدد فيليب حصاره على بيرنثوس لكن المدينة ظلت صامدة . وتلقت نجدات من بيزنطة ومن حاكم ولاية فريجيا الفارسية عبر الدردنيل . لقد أساء فيليب الى اثينا بانتباكه خرسونيسوس (شبه الجزيرة) الطراقية لأنها كانت منطقة تخضع لسيادتها بمقتضى معاهدة صلح فيلوكراتيس . وأرسلت اليه اثينا محتجة . ورد فيليب بأنها ارتكبت ضده اعمالا عدوانية كثيرة تستوجب العقاب . كان ذلك بمثابة الانذار . لكن القطيعة بين الملك واثينا لم تحدث الا عندما تصاعد بالصراع لقد عجز عن الاستيلاء على بيرنثوس فاشتد حنقة ثم تحول فجأة الى البسفور وهاجمت سفنه . قافلة اثينية محملة بالقمح أثناء عبورها المضيق وسطت عليها كما سطو القراصنة . ثم ضرب الحصار على بيزنطة التى أتها النجدات من رودس وخبوس ، وارسلت اثينا على الفور قطعا بحرية تحت قيادة خاريس ثم فوكيون . كانت بيزنطة هى مفتاح تجارة اثينا فى البحر الأسود وذلك يفسر سبب تصرف اثينا فى هذه المرة بسرعة وهمة . وقد بلغ الغضب فى اثينا ذروته

وحمل الرأي العام على الملك المقدوني حملة شعواء .

كان فيليب يدرك ما للاغريق من تفوق كبير عليه في البحر . ومع هذا فلم يتوقف عن القيام بعمليات بحرية جريئة . واقتحمت سفنه البحر الاسود واهبطت للعدو بعض مناوراته . لكن السفن الاثينية بقيادة خاريس قامت بسد المدخل الجنوبي لهذا البحر عند البسفور . ولم يسفر حصار فيليب لبيزنطة عن نتيجة فقد استعصت عليه مثلما استعصت عليه بيرينثوس من قبل . وكاد الملك لأول مرة بفقد صوابه لقد تحول فجأة عن هذا الميدان الى آخر فقام بحملة ضد الاسكيثيين (Scythi) عند مصب الدانوب لكي يؤدب زعماءهم العصاة ويسترد الجيش المقدوني ثقته بنفسه (٣٣٩) . وعاد فيليب من حملته الخاطفة منتصرا وان كان قد فقد كل اسلابه وغنائمه . لكنه اشتبك أثناء عودته مع قبائل التريباليين Triballi وكاد ينهزم بل أصيب هو نفسه بجرح بليغ كان ذلك العام (٣٣٩) عاما سيئا بالنسبة للعاهل المقدوني ، اذ هبطت مساعيه على شواطئ مرمرة ، وكان الفضل في ذلك يرجع الى ما بذله خصمه ديموستينيس من جهود فائقة استحق عليها الشناء من الدولة والشكر من الدويلات التي انقلبت من برائن المقدوني . لقد اتضح لفيليب ان لامناص من أن يخوض حربا جادة ضد اثينا نفسها .

الحرب المقدسة الأخيرة ودخول فيليب بلاد الاغريق :

ولكى يحول فيليب دون حدوث تقارب بين اثينا وطيبة فقد رأى أن يستخدم أو بالأحرى يستغل حلف دلفي الامفكتيونى لتحقيق غرضه ووجد في أهل أمفيسا Amphussa ، وهى مدينة فى اقليم لوكريس الاوزولية (العزبية) وتسيطر على الطريق المؤدى من دوريس الى خليج

كريسا . واستخدمت لمدينة كمطية ذ تقدمت في خريف عام ٣٤٠
بشكوى الى مجلس الحلف الأمفكتيونى ضد اثينا . وفيها تتهمها أمفيسا
بأنها كانت أثناء الحرب المقدسة الثالثة قد علقت درعين من الذهب ()
عليهما نقش يخلد ذكرى انتصار اثينا على الفرس وطيبة فى معركة
بلاشيا عام ٤٨٠ ق . م) علقتهما اثينا فى معبد ابوللون قبل ان يتم
تكريسه رسميا اى بدون اجراء المراسم الدينية اللازمة . لكن ديموسثينيس
استطاع بمهارته الدبلوماسية ان يحبط المناورة المكشوفة ويفسد على
فيليب خطته . بل ردت اثينا كيده الى نحره فتقدمت الى مجلس الحلف
بشكوى مضادة اتهمت فيها أمفيسا بأنها هى التى انتهكت قدسية دلفى
لأنها قامت بزراعة جانب من سهل كيرا وهو سهل كان قد تقرر
منذ الحرب المقدسة الأولى فى القرن السادس (حوالى ٥٩٠ زمن
سولون) تقرر ألا يجرى فيه محراث وأن يبقى دائما غير مزروع والقى
ايسخينيس . دائما غير مزروع . والقى ايسخينيس - الذى وكلت اليه
هذه المهمة - القى فى اوائل عام ٣٣٩ خطابا امام مجلس الخلف
الامفكتيونى هاجم فيه أمفيسا وألهب المشاعر ضد اهلها اللوكريين
وطالب بطردهم فورا من السهل المقدس . وفى اليوم التالى زحف اهالى
بعض مدن الحلف ودلفى . لمساعدة الاله (ابوللون) واستخلاص أرضه
المقدسة . وحرقوا بلدة كيرا المتاخمة للبحر واثناء عودتهم هاجمهم اهل
مدينة أمفيسا . وعندئذ دعى مجلس الحلف الامفكتيونى الى اجتماع
خاص فى ثرموبيلاي للنظر فى معاقبة اهل أمفيسا اللوكريين .

وكان المرء يتوقع ان تقف اثينا الى جانب الحلف الامفكتيونى
وتقوم الحرب ضد امفيسا واللوكريين . لكن ديموسثينيس استطاع بما له

ولائهما للمحالفة مع مقدونيا أم تمتنضم الى اثينا وترغم الملك المقدوني على أن يقاتل قوات طيبة واثينا المؤتلفة ، وهو الاتحاد القوي الوحيد الذى كان من الممكن قيامه حينئذ فى بلاد الاغريق ؟

وعملا بنصيحة ديموستينيس خرج من أثينا وفد كان الخطيب الكبير أحد اعضاءه . واتجه الوفد الى طيبة . وقد خرج معهم ديموستينيس لأن اللحظة كانت خطيرة وتشكل بالنسبة لحياته أزمة لأنه اما ان يتحقق آنذ الهدف الذى جاهد طوال السنوات الاخيرة من أجله أو لايتحقق ابدا .

كان الهدف الاول لفيليب انجاز المهمة التى أتى من أجلها بوصفه زعيما للحلف الامفكتيونى . وقد ارتكبت الاثينيون وحلفاؤهم منذ البداية خطأ استراتيجيا جسيما بتوزيع قواتهم . صحيح أنهم أحرزوا انتصارين غير كبيرين فى البداية . لكن فى النهاية تمزق شمل العشرة آلف جندى من المرتزقة الذين أنفذتهم اثينا للدفاع عن امفيسا . وسقطت امفيسا نفسها فى يد الملك المقدونى وكذلك ناوباكتوس Naupactus الميناء الهام على الخليج الكورنس فى لوكريس الغربية .

• معركة خيرونيا (٢ أغسطس ٣٣٨) :

وبعدئذ تقدم فيليب نحو حدود بويوتيا عبر الطريق التاريخى الذى شهد من قبل عدة جيوش وهى تجتازه . وكانت جيوش الحلفاء (اثينا وطيبة وغيرهما) ترابط فى انتظار المعركة الفاصلة عبر هذا الطريق عند

بلدة خيرونيا التي تشغل مساحة أربعة أميال بين التلال ونهر كيفيسوس ،
وتقع فى أقصى جنوب بويتيا وترجع شهرتها الى وقوعها على هذا
الطريق الموصل من الشمال الى الجنوب . وليس لدينا آلاف وصف
شامل موثوق به لمعركة خيرونيا التي حدثت فى يوم ٢ أغسطس (آب)
عام ٣٣٨ ق . م . وكان فيليب يقود جيشا يتألف من ٣٠,٠٠٠ مشاة
، و٢٠٠٠ فرسان . وكان جيش الحلفاء (اثينا وطيبة وغيرها) يتألف
من حوالى نفس العدد . وفى الجبهة المقدونية كان الفرسان الثيساليون
وغيرهم من حلفاء مقدونيا يقفون فى الجناح الايمن ، وأما فيلق المشاة
المقدونى (الفلانكس) فكان يحتل القلب بينما كان الفرسان النبلاء
كاملوا العدة يحمون جناحه الأيسر . وفى الجبهة الاغريقية كان جيش
طيبة يقف فى الميمنة بينما اتخذت قوات فوكيس والايخيين والكورنثيين
وغيرهم مراكزها فى الوسط . واصطف الجيش الاثينى فى الميسرة .
وكان يتولى قيادة الجيش المقدونى رجل واحد خبير بفن الحرب هو
فيليب نفسه . وكان ابنه الاسكندر البالغ من العمر ١٨ سنة يقود
الفرسان ثقيلى العدة فى الجناح الأيسر . ولم يكن يقل عن أبيه خبرة ،
فضلا عن ذكائه المفرط ، وأما الاغريق فلم تكن لديهم خطة أو بينهم
وحدة . كان لواء الجيش الطيبى منعقدا على ثياجنيس بينما كان يتولى
قيادة الجيش الاثينى ثلاثة قواد من بينهم خاريس .

وعندما نشبت المعركة استطاع الجيش الاثينى أن يقهر المرتزقة
وقوات الحلفاء فى ميمنة الجيش المقدونى ويرغمهم على الارتداد عن

من تأثير قوى ان يقنع الاثينيين بعدم الاشتراك فى الحرب ضد اللوكريين ، بل انه ندّد بأيسخينيس امام الجمعية وانتقد مسلكه الذى يؤدى الى اقحام اثينا فى حرب امفكتيونية (مقدسة) ، ودعا الى ضرورة بذل الجهد لوقف مثل هذه الحرب . كان هدف ديموستينيس ينصب وقتئذ على تجنب أى خلاف مع طيبة صديقة اللوكريين . وعلى ذلك فقد استجاب الاثينيون لمشورة ديموستينيس ولم يشتركوا فى اجتماع المجلس الامفكتيونى الذى قرر فرض عقوبات على أهل أمفيس اللوكريين وسعى الى تنفيذ هذه العقوبات كذلك امتنع أهل طيبة عن المشاركة فى أى عمل عدوانى ضد اللوكريين الذين كانت تربطهم بهم دائما صداقة وتحالف . وبذلك آلت القيادة فى آخر « حرب مقدسة ش الى اليساليين . وانقضى عام فى غارات متفرقة غير مجدية . واخيرا دعا الحلف الامفكتيونى فيليب الى التدخل مرة أخرى بوصفه قائدا اعلى للحلف ونصيرا للاله أبوللون (خريف عام ٣٣٩) . ومثلما كانت الدعوة فى الوقت المناسب جدا كذلك كانت نتيجتها خطيرة جدا الى درجة ان البعض يرتاب فى أن يكون الملك نفسه هو الذى دبر الحادثة كلها ، وان عملاءه تولوا تنفيذها لكن ليس لدينا اى دليل على ذلك . واذا كان لا بد من القاء تبعه ما حدث على فرد ، فان هذا الفرد لم يكن ايسخينيس بل ديموستينيس نفسه الذى ادت سياسته الى دخول فيليب بلاد الاغريق فى هذه المرة .

ولم يضع فيليب الوقت بل زحف دون تباطؤ الى الجنوب وعبر على وجه السرعة ممر ثرموبيلاي . وتقدم بعد تأمين ظهره نحو فوكيس ثم انحرف شرقا عبر وادى كيفيسوس ، وبلغ ايلاتيا وهى مركز استراتيجى

عام فى اواخر عام ٢٢٩ . كانت ايلاتيا تسجل على أسهل طريق بين وادى سبرختيوس وثرموبلاى وبين وادى كليفيسوس الذى يردى بدوره الى بويوتيا نفسها . وتوقف فيليب عند ايلاتيا واعاد تحصينها لأنها كانت قد تهدمت فى نهاية الحرب الفوكية . ومن هناك أنفذ قوة لاحتلال موقع على الطرف الجنوبى للدمر المؤدى الى امفيسا (الواقعة الى الجنوب الغربى من ايلاتيا) .

وقد اثار نبأ احتلال فيليب لمدينة ايلاتيا موجة من الدهشة والذعر فى اثينا ، وقد وصف ديموستينيس كيف تلقت أثينا النبأ فى المساء ، وما ان طع الفجر حتى كان المواطنون قد تدفقوا على النيكس ، وهو مكان انعقاد الجمعية الشعبية (الاكليسيا) . تجتمعوا هناك حتى قيل ان يعقد مجلس الخمسمائة (البولى وهو مجلس الشورى) اجتماعه التحصيرى . ونادى المنادى طالبا الكلام ممن يريد الكلام ويدلى برأيه فى الموقف المتأزم . ولم يتقدم أحد الى منبر الخطابة . وخيم على الشحد بأنه رهيب . واخيرا وقف ديموستينيس وتكلم . فوصف وجود فيليب المقدونى فى ايلاتيا بأنه تهديد مباشر لاثينا . وكانت طيبة التى لاتبعد عن ايلاتيا بأكثر من ٤٠ ميلا فى الجنوب الشرقى مهددة هى الاخرى قبل اثينا . لكن ديموستينيس لم يكن على يقين من موقف طيبة . وقد أكد الشعب بأن رسل فيليب قد أبلغوا أهل طيبة بأن اثينا هى هدف الملك المقدونى وقد طالبوا منهم التعاون معه أو على الأقل يسهلوا له طريق المرور عبر بويوتيا . واضاف ديموستينيس بأنه اذا صح ذلك فان فيليب انما يستهدف منه أن يفصح أهل طيبة عن حقيقة موقفهم نحوه . كان مصير كل من فيليب واثينا يرتهن بموقف طيبة ، فهل ستبقى طيبة على

مواقعهم . لكن ذلك أدى الى تداخل الخط الاغريقي . لقد انحصر الصراع الحقيقي بين فيلق المشاة المقدوني والفيلق الطيبي . وكان فرسان الاسكندر هم الذين حسموا المعركة اذ قاموا بهجمة أخيرة حاسمة طوقوا فيها جنب الفيلق الطيبي . وسقط قائد الفيلق الطيبي قتيلا في المعركة ، وأيدت « الكتيبة المقدسة » الشهيرة وهي في مواقعها عن بكرة أبيها . وطوق الجيش الاثيني وبقية الحلفاء الاغريق وشنت شملهم فارتدوا على أعقابهم لاجئين الى ليبيا . وانتصر فيليب انتصارا ساحقا وغمره فرح شديد أخرجه عن اتزانه اذ أطلق لمشاعره العنان فراح يغني وهو يتفقد الساحة المخضبة بالدماء أناشيد النصر والسخرية من العدو . لقد كشف اثناء انغماسه في الصخب والعريضة عن أعماق نفسه ، وازاح النقاب . في تلك اللحظة عن طبيعته الاصلية المتبريرة التي طفت على السطح وطفعت على المسحة الرقيقة من الثقافة الهلينية .

وقد سقط في معركة خيرونيا قتيلا ١٠٠٠ أثيني ، وسقط ٢٠٠٠ أثيني أسرى في يد فيليب . وكانت خسارة طيبة أفدح في القتلى على ما يرجح . وكان انتقام فيليب منها أروع فبينما سمح بنقل رفات القتلى من الاثينيين الى مدينتهم واطلق سراح الاسرى الاثينيين بدون شرط ، أرغمت طيبة على افتداء قتلاها وأسراها على لسواء .

الاتحاد الهليني :

وفي ديسمبر من عام ٣٣٨ دعا فيليب كل دويلات المدن الاغريقية الى مؤتمر عام انعقد في كورنثة . واستجابت كل الدويلات

للدعوة ما عدا اسبرطة . ورأس فيليب أول مؤتمر لبلاد الاغريق المتحدة .
واعلن قيام الاتحاد المسمى « بالاتحاد الهليني ، الذي ارتبط مع فيليب
بمخالفة أو حلف دفاعي هجومي . واعلن الصلح أو السلام العام (koine
eirene) كان ذلك تحقيقا لحلم ايسوقراط . اكثر كتاب اثينا دراسة بعلم
السياسة ، الذي امتد به العمر ليسمع عن خيرونيا وبهنيء فيليب بانتصاره
ومات بعد أيام من تلك المعركة قرير العين بأن وحدة بلاد الاغريق قد
أصبحت مؤكدة . لكن ايسوقراط كان مخطئا في اعتقاده بأن النزعة
الانفصالية التي كانت على الدوام وبال على الاغريق سيقضى عليها
انتصار مقدوني واحد . بل ان الدويلات الاغريقية نفسها لم تكن
مستعدة للاعتراف بمقدونيا كزعيمة للهلينية ، لأن مقدونيا كانت
لانزال - في نظر الاغريق - خارج نطاق الدول الهلينية الحقة ، وان
كانوا ق اذعنوا لجبروت قوتها العسكرية رغم أنهم ورضخوا لسيادتها
مكرهين .

كان مؤتمر كورنثة (شتاء عام ٣٣٨) الذي دعا اليه فيليب
بمثابة جمعية تأسيسية لانشاء اتحاد هليني جامع على نحو لم يسبق له
مثيل من قبل في بلاد الاغريق . وقد توج باعلان سلام عام (koine
ecrene) وهو اتجاه يرتبط ويتمشى مع الأفكار التي كانت سائدة في
القرن الرابع . وكان هذا السلام العام أهم من الاتحاد الجامع بالنسبة
لحياة الاغريق السياسية .

وانشئ للاتحاد الهليني الجامع أو « اتحاد جامعة الدول

الهليلينية « مجلس تمثل فيه كل دولة تمثيلا يتناسب مع أهميتها . وكانت الدويلات الصغرى يدمج بعضها في البعض الآخر في مجموعات لكل منها صوت واحد . ولم يكن لفيليب صوت في مجلس الاتحاد الهليني الجامع أى أنه لم يكن عضوا فيه . كان هذا الاتحاد اذن من الناحية القانونية فى شكل اتحاد غيرالى مرتبط برياط التبعية لزعامة قوية (ملك مقدونيا) .

قرار اعلان الحرب على الفرس ومصرع فيليب :

وقد ارتبط باقرار « السلام العام » اجراء آخر وهو قيام مخالفة دفاعية هجومية بين فيليب من ناحية والاتحاد الهليني الجامع من ناحية أخرى ، وبهذه المخالفة أو الحلف الدفاعى الهجومى كانت ترتبط زعامة فيليب على بلاد الاغريق لمدى الحياة .

ولم يتخذ قرار اعلان الحرب على بلاد الفرس الا فى مؤتمر كورنثة التالى فى ربيع عام ٣٣٧ عندما تقدم فيليب باقتراح أو مشروع القيام بحملة ضد الفرس انتقاما منهم لما احدثوه من تخريب فى معابد الآلهة اليونانية فى الحروب الفارسية فى القرن الخامس ق . م . ولايجاز مشروع ضخم كتلك الحرب فوضى مجلس الاتحاد الهليني الجامع لفيليب سلطات كاملة خاصة ، ومنحه لقب قائد (بلاد الاغريق) مفوض بكامل السلطة . وفى ربيع العام الثانى (٣٣٦) أرسلت قوة تحت قيادة بارمنيون وأتالوس لتعبر الدردنيل تمهيدا للقوج الرئيسية التى كان فيليب يعترزم تبادتها الى اسيا . وقد حدث ذلك فى وقت حرج بالنسبة

للامبراطورية الفارسية اذ كان ملكها أردشير الثالث (أو خوس) قد مات
فى عام ٣٣٨ . وخلفه على العرش اصغر ابنائه الذى كان العوبة فى يد
رجال البلاد . واخيرا انتزعه دارا الثالث (كودومانوس) الذى يمت
بصلة قوابة لأسرة الاخيمينيين المالكة .

لكن فيليب لم يقدر له أن ينزل فى اسيا ابدا اذ اغتيل فى صيف
عام ٣٣٦ أثناء الاحتفال فى العاصمة القديمة ايجاي بزواج ابنته من
الاسكندر ملك ابيروس . ولايزال اغتياله أمرا مبهما . لكن فى أكبر الظن
انه اغتيل لأسباب شخصية . وكان فيليب قبل موته قد غضب من زوجته
أوليمبياس أم الاسكندر ورحلت مع ابنها الى ابيروس . وتزوج فيليب من
كليوباترة بنت اخت اتالوس وانجب منها ولدا . وقيل أن علاقة
الاسكندر بأبيه قد ساءت وقتئذ . وقد نارت الشبهات حول اوليمبياس
فى مصرع زوجها . لكن لا يوجد دليل يؤيد ذلك كما لا يوجد دليل
على علم الاسكندر بالمؤامرة التى أودت بحياة أبيه . وقيل ايضا انه الفرس
كان لهم ضلع فى المؤامرة .

هكذا لقى فيليب مصرعه فى سن السادسة والاربعين . وقد
حجبت شهرة ابنه شهرته . ومعلوماتنا عن أعماله وأخلاقه مستمدة من
فم ديموستينيس الاثينى الذى اعدته لأن تاريخ فيليب الذى كتبه المؤرخ
ثيوبومبوس قد ضاع ولم يصلنا منه سوى شذرات . لكن ما لدينا من
معلومات يكفى للحكم بانه كان واحدا من اعظم الحكام فى العالم
القيم ويسرر وحكم ثيوبومبوس بأنه أوروبا (يقصد البلقان) لم تنجب

رجلا أعظم منه . لقد أوردى به سلوكه الشنصن وربما علاقاته النسائية
واندفاعه . لكن عمله حقيقة واقعة . فقد وحد البلقان وربطها ببلاد
الاغريق تحت قيادة واحدة ، وهو عمل لم يستطع احد من بعده القيام
به . كذلك وضع أسس البناء الذي شاده الاسكندر من بعده ومهد
لحقبة جديدة في تاريخ الانسانية .

ج - الاسكندر الأكبر

(٣٣٦ - ٣٢٣)

الحملة على الشرق (٣٣٤ - ٣٢٣) :

ولد الاسكندر عام ٣٥٦ (ق . م) وتلمذ على أناكسيمنيس معلم البلاغة (من الامبساكوس) وأرسطو الفيلسوف (من ستاجيرا) من ٣٤٢ حتى ٣٣٦ . واشترك مع أبيه وهو فى سن الـ ١٨ فى معركة خيرونيا عام ٣٣٨ . وأعتلى عرش مقدونيا فى سن الـ ٢٠ بعد اغتيال أبيه فى عام ٣٣٦ . وهو ثالث من حمل اسم الاسكندر فى أسرة ايجيوس . فهو الاسكندر الثالث . ويلقب عادة بالاسكندر الأكبر أو س الاسكندر ذى القرنين « . وكان شديد التعلق بأمه أوليمبياس وكان لها تأثير روحى كبير فى حياته . وورث عنها صفات كما ورث عن أبيه صفات مناقضة . وفى أكبر الظن انه لم يكن له يد على مصرع فيليب ولم يعرف على وجه اليقين من الذى قتله . ويعتبر عهده فاتحة عصر جديد فى التاريخ . وقد غيرت فتوحاته مجرى التاريخ .

زحف الاسكندر الى بلاد الاغريق التى ابتهجت لمصرع ابيه اذ تصورت طيبة وأثينا وأيتوليا والبلوبونيز أن الساعة قد حانت للخلاص من سيطرة مقدونيا . ويبدو ان الرشوة الفارسية كانت لها دور فى اثارة الاغريق ، زحف اليها الاسكندر بسرعة فعادت الى صوابها . وفى كورنثه (خريف ٣٣٦) أختير الاسكندر قائدا عاما للحملة المشتركة (بين مقدونيا وبلاد الاغريق) ضد الفرس . وعاد الاسكندر الى مقدونيا . وقد رأى أن يؤمن أولا حدود

مقدونيا الشمالية حيث تمردت بعض القبائل المتبريرة (الطراقليون
والتريلليون والجبتيون . فسار اليها في حملة تأديبية وقمع تمردها وأخضعها
(٣٣٥) . وفي تلك الاثناء بلغت بلاد الاغريق شائعة عن مقتل الاسكندر
في حملته الشمالية . وصدقت بعض المدن الشائعة وبدأت تتحرد ونشق عصا
الطاعة . وكان وقتئذ في اليريا فرحف ثانية الى الجنوب بسرعة خاطفة الى
طيبة التي تخالفت مع أثينا مثلما فعلت من قبل في معركة خيرونيا .
واستصدر من مجلس الاتحاد الهليني قرارا بتدمير طيبة لم يدمر منزل الشاعر
الغنائي بنداروس Pindaros اجلالا لذاكره . وقتل ٦٠٠٠ من مواطني
طيبة وبيع منهم ٣٠,٠٠٠ كعبيد . كان تدمير طيبة في عام ٣٣٥ على يد
الاسكندر بمثابة انذار رهيب لغيرها من دول المدن اليونانية . لكن معظم
الاغريق ظلوا على عنادهم ولم يتصوروا ملكا مقدونيا تؤول اليه السيادة على
مدن عظيمة الشأن ذات ماضى مجيد كأثينا . واستمر ديومستيس (برغم
صفح الاسكندر عن أثينا تقديرا لمركزها الثقافي) يحمل لواء المعارضة
وينادى بمقاومة الاسكندر ويندد بأنصار مقدونيا وعملائها . لكن دون
جدوى . لقد أصبح الكابوس حقيقة وجمت مقدونيا على صدر بلاد
الاغريق . وانتهى العصر الكلاسيكى (الأهمى) ، عصر دولة المدينة اليونانية
المستقلة كل الاستقلال . انتهى الى غير عودة . وبدأت فترة جديدة .
ولم تشهد فترة من فترات التاريخ الغربى تغييرات سياسية أضخم مما شهدته
فترة المائة والخمسين سنة التي أعقبت جلوس الاسكندر على عرش
مقدونيا .

من الدردنيل حتى برسيبوليس (٣٣٤ - ٣٣١) :

في مستهل ربيع عام ٣٣٤ خرج الاسكندر بوصفه ملكا لمقدونيا ، وزعيما للاتحاد الهليني (المسمى أحيانا حلف كورنثة) ، وقائدا عاما للحملة الانتقامية المشتركة ضد الفرس على رأى جيش مقدوني اغريقي يبلغ عدده حوالى ٣٠,٠٠٠ مشاة ، ٥٠٠٠ فرسان فضلا عن ٧٠٠٠ مشاة و ٦٠٠ فرسان و ١٦٠ سفينة أسهم بها الاتحاد الهليني (حلف كورنثة ”) . وخرج معه عدد من العلماء والأدباء مثلما حدث في حملة نابليون على مصر فيما بعد . وعمر الدردنيل . وكان الاسكندر معجبا بمصر البطولة ، عصر الحرب الطروادية ، وبالأبطال الاغريق الاسطوريين من أمثال أخيا (Achilleus) بطل الياذة ، ملحمة هوميروس ، كان في الواقع يتشبه بأخيل ويتصور حملته على الشرق كحملة الاغريق من قبل على ذروادة (فى الشرق) . كان الاسكندر كأمه ذا نزعة خيالية . وكان يحمل معه نسخة من الياذة بل اتخذ لنفسه صديقا حميما وهو هيفايستيون (Hephaestion) مقتديا فى ذلك بأخيل وصديقه الحميم باتروكلوس (Patroclus) لذلك اتجه بعد عبوره الدردنيل ونزوله بأسيا الصغرى ، اتجه الى موقع طروادة ، وزار المكان تحية لذكرى أخيل الذى قتل ودفن هناك كما ورد فى الاساطير .

(١) وترك انتباتروس كحاكم على مقدونيا وكنائب له بلقب « قائد أوروبا » أثناء غيابه ونحى امره

قوات يبلغ عددها حوالى ١٢,٠٠٠ حدى مشاة و ١٥٠٠ فرسان

جوانيكوس واسوس (٣٣٤ - ٣٣٣) :

التحم الاسكندر مع الجيش الفارسي وانتصر عليه في معركة نهر جوانيكوس Granicus (باقليم ميسيا) بأسيا الطغرى عام ٣٣٤ واستولى على معظم مدن ساحل ايونيا ثم حشد قواته في جورديوم Gordium (باقليم فرجيا) في العالم التالى (٣٣٣) وفي هذه المعركة كاد الاسكندر يلاقى مصرعه لولا مبادرة صديقه كليتوس (Cletitus) الى تلقى الضربة عنه . ومنها سار جنوبا الى قيليقية (Cilicia) وبعثذ عبر مصر جبال حمان فى شمال سوريا حيث احرز فى معركة اسوس (Issus) انتصاره الثانى على داراد الثالث (كودومانوس) ملك الفرس فى نوفمبر عام ٣٣٣ . وفر دارا بعد الهزيمة تاركا أسرته التى وقعت فى يد الاسكندر . وقد عامل الاسكندر زوجة وبنات الملك الفارسى معاملة كريمة ورددن اليه .

وأصبح أمام الاسكندر طريقان فاما أن يتجه شرقا متعقبا جيش الفرس وأما أن يزحف جنوبا للاستيلاء الساحل الفينيقى . واحتار الاسكندر الطريق الثانى . ذلك لأن الأسطول الفارسى (وقوامه سفن فينيقية) كان يربض وراء ظهره . ولم يكن فى استطاعته الوقوف فى وجه هذا الاسطول الذى كان من الجاذب أن يقطع عمله تماما طريق الاتصال بمقدونيا لو توغل بجيشه فى قلب آسيا . لذلك آثر الاستيلاء على شواطئ شرقى البحر المتوسط حيث توجد قواعد الاسطول الفارسى . فاذا امتولى على قواعده فأن هذا الاسطول يصبح عاجزا عن متابعة عملياته العسكرية . لهذا اتجه الاسكندر جنوبا واستولى دون حياء مدن الساحل الفينيقى ، لكن صور استعصت عليه واستمر حصاره لها لثمانية أشهر وأخيرا سقطت بعد أن كبده

خسائر مادية وبشرية كبيرة . ثم مضى فى طريقه واستولى على غزة بعد مقاومة عنيفة ورفح وبلغ حدود مصر الشرقية .

وكان الاسكندر قبل أن تسقط صور قد واجه مشكلة تتطلب قرارا حاسما . ذلك بأن دارا ملك الفرس كتب اليه عارضا عليه يد ابنته (ستاجيرا) وعقد محالفة بينهما . متازلا له عن الممتلكات الفارسية غربى الفرات . وكان العرض مغريا . ولو كان الاسكندر قبل العرض أو كان قد قتل عند نهر جرانيكوس حيث لم ينقذه سوى كليتوس من طعنة صوبها اليه الوالى الفارسى ، اذن لتغير وجه التاريخ . لكن أطماع الاسكندر زادت من بعد اسوس . وعندما صارحه بارمانيون ، أحد قواده المخلصين ، بأنه لو كان فى مكانه لقبول عرض دارا ، أجاب الاسكندر وكذلك كنت أفعل لو أتى كنت بارمانيون .

الاسكندر فى مصر (٣٣٢ - ٣٣١) :

وكانت مصر ولاية فارسية لكنها كثيرا ما سببت للامبراطورية الفارسية متاعب جمّة باضطراباتها وثوراتها . وقد احتلها الفرس ثلاث مرات قبل الفتح المقدونى : المرة الأولى عام ٥٢٢ حتى ٤٩٠ . وكان التنافر شديدا بين الفرس والمصريين لاختلاف العقائد الدينية . وقد استغل الاغريق ذلك فكانوا يؤيدون ثورات المصريين ضد الفرس على نحو ما فعلوا عندما ثاروا على الحكم الفارسى بقيادة زعيم من أصل لىبى يدعى اناروس (Inaros) فى عام ٤٦٠ اذ أرسل الأثينيون حملة بحرية الى مصر لمساعدة الثوار (٤٥٩ - ٤٥٤) . لكن هذه اللحظة باءت بالفشل . وأما الاحتلال الفارسى الثانى فقد استمر اربعين عاما (٤٤٨ - ٤٠٨) وظلت مصر بعد ذلك مستقلة فى

الواقع حتى غزاها الفرس للمرة الثالثة وخلصوا آخر فرعون وطنى قبل الفتح المقدونى بحوالى عشر سنوات (٣٤٢) ثم طردهم منها الاسكندر (٣٣٢) .

دخل الاسكندر مصر فى خريف عام ٣٣٢ . وسقطت بيلوزيوم Pe-lusium (الفرما) . وأدرك الوالى الفارسى مازاكيس (Mazakes) عبث المقاومة فاستسلم دون قتال فى نفس العام . ودخل الاسكندر ممفيس Memphis (ميت رهينة قرب البدرشين قرب التقاء فرعى الدلتا) ، عاصمة مصر الفرعونية ، حيث نهج نهجا يختلف تماما عن نهج الفرس ، فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، واعتبره المصريون وريثا للفراعنة ، وقبلوه ملكا على الفور . واحتفل الاسكندر كهليلينى أصيل بانتصاره فأقام مهرجانا رياضيا وموسيقيا اشترك فيها عدد من الفنانين الاغريق . ومن ممفيس زحف الاسكندر شمالا بمحاذاة الفرع الكانوبى (فرع رشيد الآن) . ولعله مر فى طريق بنوكراتيس (Naucratis) أقدم مدينة يونانية فى مصر (أوائل القرن السادس ق . م)^(١) عند كوم جعيف الحالية (قرب كفر الزيات) . وتابع سيره الى بلدة كانوبوس (Canopus) (أبو قير الحالية) . وعندما بلغ الشريط الساحلى الرملى الواقع بين البحر وبحيرة مريوط (فى الطرف الشمالى الغربى من الدلتا) ، وعند قرية مصرية قديمة تسمى راقودة (Rhakoti) أسس الاسكندر مدينة اغريقية (Polis) تحمل اسمه ولا تزال ، وهى مدينة الاسكندرية (Alexandria) فى يناير ٣٣١ ق . م . وخطط المدينة المهندس دينوقراطيس Dinocrates (من مدينة ميليتوس على ساحل آسيا الصغرى الغربى) .

(١) عصر أماسيس من ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥) .

وكان التخطيط على غرار التخطيط الشائع فى تأسيس المدن فى ذلك الوقت أى الشوارع المتقاطعة طولاً وعرضاً على نحو يشبه رقعة الشطرنج . ولاندرى ما اذا كانت راقودة تضم بين سكانها وقتئذ جالية يونانية صغيرة . وليس هذا بالأمر المستبعد . كما لاندرى ماهى المنشآت التى بناها الاسكندر فى المدينة . لكن لا بد من أنه زودها بالمؤسسات الضرورية لمدينة يونانية . ولعله شيد معبدا للربة ايزيس . وهل أمدها الاسكندر بأجهزة الحكم المألوفة فى دول المدن اليونانية ، وهل كان يتوى بعد عودته أن يتخذ منها عاصمة للملكة " . وماهو هدفه من تأسيس الاسكندرية أصلاً . هذه اسئلة يختلف الباحثون فى الاجابة عنها . بل أن قلة من المؤرخين ينكرون أن الاسكندرية أسست على غرار دول المدن اليونانية الحقبة (Polis) .

وتابع الاسكندر سيره متجها نحو الغرب بمحاذاة الساحل الشمالى حيث بلغ موقع مرسى مطروح الحالية حيث يقال أنه أسس مدينة باسم برايتونيوم Paratonium ، وان كانت معلوماتنا عنها لاتزال طفيفة . ومنها انحرف جنوباً ضارباً فى قلب الصحراء قاصداً واحة الاله آمون (المعروفة الآن باسم واحة سيوه) حيث كان لهذا الاله معبد . مضى الاسكندر الى هذا المعبد ليستلهم وحى الاله المصرى آمون الذى كان معبده هناك معروفاً للاغريق بل مشهوراً بأنه مركز للنبوءة (منذ القرن الخامس ق . م) كمعبد الاله أبوللون فى دلفى . وأما لماذا فعل الاسكندر ذلك معرضاً جيشه للهلاك فى قلب الصحراء ، وماهى الاسئلة التى وجهها للاله آمون (أى لكهنوته) فى قدس أقداس معبده (الذى دخله وحده) ، وماهى الاجابات التى تلقاها ، فهذه كلها مشاكل يختلف فى تفسيرها المؤرخون . ولعلها تظل

(١) ثم عدل عن ذلك وقرر أن يتخذ من بابل عاصمة للإمبراطورية ؟ .

بدون حلول أو تفسيرات مفضلة لأن الاسكندر - على نحو ما ذكرنا - دخل وحده قدس أقداس معبد آمون ، وتلقى وحده اجابة كاهنة ، واحتفظ بسرهما لنفسه . وكتب الى أمه أوليمبياس فى مقدونيا يقول انه لن ييوح بما سمعه فى المعبد الا لها بعد عودته من الحملة . لكنه مات فى بابل ولم يعد أبدا الى مقدونيا فدفن سره معه . لكن لعل الاسكندر كان يستهدف من الزيارة استشارة الآلهة آمون فى بعض الأمور كالأستفسار عن مصير الحملة ضد الفرس وكاغتيال أبيه ، أو الحصول من الآلهة على شىء يرضى به نزعته الرومانتيكية (الخيالية) كتصريح بأنه ابنه مثلا مما يدعم به سلطانه فى مصر ويستغله للدعاية على الصعيد الهلنيسى الدولى .

ومع هذا فنحن على يقين من أمور واحد وهو أن كاهن آمون حيا الاسكندر كأبن للاله (آمون) . وتلك كانت عند المصريين تحية تقليدية تؤدى لكل ملك على مصر . وقد غدا الاسكندر ملكا على مصر . فهو خليف بهذه التحية ، وخليف بالتالى بلقب فرعون . لكن الاسكندر لم يكن على بينة من ذلك . ومن ثم فقد ترك هذا الحادث فى نفسه أثرا قويا عميقا . وكرجل شديد الاحترام للآلهة (مثل هيراكليس) واسع الخيال ، مرهف العاطفة ، فقد تملكه شعور بأنه يحظى برعاية سماوية خاصة . وتصور منذ ذلك الحين بأنه مرتبط بآمون برابطة خاصة ، وأن هذا الاله قد اصطفاه بب يؤثره لصفاته على سواه من البشر . كما تصور أن حملته على الشرق ماهى الا رسالة الهية . وأخذ التصور أو هذه الفكرة تزداد نضوجا ونضجا خلال السنوات التالية .

- مصر فى عصر الاسكندر الأكبر :

منذ منتصف القرن السادس ق . م . ظهرت دولة فارسية جديدة على مسرح السياسة فى الشرق الأوسط بسطت نفوذها فشملت امبراطوريتها معظم اجزاء الشرق الأوسط بما فى ذلك آسيا الصغرى وسواحل سوريا وفينيقييا وفلسطين ومصر التى فتحها تميز سنة ٥٢٥ ق . م . ومن ذلك الوقت ومصر تارة تخضع لحكم الدولة الفارسية وتارة أخرى ثور عليها .

وكان المصريون يتحينون الفرص المناسبة للقيام بحركاتهم الاستقلالية ، ولهذا كانت أول ثورة قومية ضد الحكم الفارسى عام ٤٨٦ ق . م . وقد نكل الملك الفارسى بالمصريين ابشع تنكيل بعد أن احتل اراضيهم وكانت الاساليب الاستعمارية حافزا للمصريين على بذل كل ما فى وسعهم للتخلص من قبضة الفرس واسترداد استقلالهم . ومنذ ذلك الوقت ومصر تارة تخضع لحكم الدولة الفارسية وتارة أخرى ثور عليها ، وفى ثوراتهم ضد الحكم الفارسى وجدوا العون كسل العون من الاغريق ، فقد أمدهم الاثينيون بقوة بحرية كبيرة ، ولم يتوان الجند الاغريق عن الانتظام فى صفوف الثوار المصريين كلما طلب اليهم ذلك ، على حين كانوا يرفضون الاشتراك فى صفوف القوات الفارسية التى تحشد لاجماد الثورات المصرية .

وظلت علاقة المصريين بالاغريق قوية وطيدة طوال اعوام الاستعمار الفارسى لوادى النيل . برغم كل التفكك والانحلال الذى كانت بلاد الاغريق تعانيه آنذاك لما استطاعت مقدونيا ان توحد الاغريق وان تخلق

منهم قوة متماسكة ، عزم ملكها فيليب المقدوني على القيام بغزوة كبرى يحطم بها الامبراطورية الفارسية ، ولكن الاقدار لم تمهله ، فقضى نحبه قبل ان ينفذ مشروعه العظيم تاركاً المهمة لابنه وخليفته الاسكندر الأكبر .

فى هذا الوقت كانت الامبراطورية الفارسية تعاني من دائتين خطيرين .

الاول : سوء الادارة فى الولايات التابعة لها .

الثانى : تربع على عرشها ملك ضعيف هو دارا الثالث ، ولهذا سرعان ما انهارت الامبراطورية الفارسية امام عبقرية الاسكندر الفذة .

استطاع الاسكندر الاكبر - وقد ورث عن ابيه جيشاً ضخماً - قيادة الاغريق فى حرب شاملة ضد الفرس انتقاماً لما ارتكبهوا فى بلاد الاغريق لمدة قرن ونصف تقريباً ، رغم ما كان يكتنف ذلك من صعاب ، وقد كان الفرس يعتمدون على موارد امبراطورية لاتنضب وسيادة البحار ، على حين كانت موارد الاسكندر الاكبر ضئيلة نسبياً ، لكن سرعان ما انهارت الامبراطورية الفارسية امام عبقرية الاسكندر الذى رأى أن خير وسيلة للقضاء على سيادة الفرس البحرية هى الاستيلاء برا على قواعد الاسطول الفارسى الواحدة بعد الاخرى ، ولعل ذلك يفسر عدم تنبئه للملك الفارسى شرقاً نحو عاصمته صوصه بعد ان انتصر فى معركة ابسوس سنة ٣٣٣ ق . م . وانما انحدر جنوباً فاستولى على سوريا وفينيقيا وفلسطين ثم اتجه الى مصر استكمالاً لمحاصرة الاسطول الفارسى بالاستيلاء على جميع السواحل فى شرق البحر المتوسط التى يمكنه ان يلجأ اليها ، وحتى يضع يده على موارد مصر الفنية كمصدر هام للغلال يمكن معه استخدامها لتأمين المدن

اليونانية وجيوشه الغازية^(١) .

على أى حال حينما احتل الاسكندر المقدونى مصر فى عام ٣٣٢ ق . م
وضع بذلك نهاية للحكم الفارسى فيها ، السذى ظلت تترزح تحت نيراته نحو
من قرنين تقريبا ، ووضع مصر بذلك على ابواب مرحلة حضارية جديدة .

ولعل اتجاه خطة الاسكندر جنوبا وعدم تتبعه للملك الفارسى والقضاء
عليه هو انه اراد محاصرة الاسطول الفارسى عن طريق الاستيلاء على
سواحل شرق البحر الابيض المتوسط - كما سبق القول - وقد وردت هذه
الخطة فى خطبه التى القاها الاسكندر بنفسه^(٢) .

وصل الاسكندر الى بلوزيوم على رأس جيشه ووضع بها حامية عسكرية
ثم سار عن طريق النيل الشرقى الى هليوبوليس ومنها الى منف . لم يجد
مزاكس^(٣) الوالى الفارسى على مصر اذ ذاك بدلا من التسليم ، لأنه ادرك
عدم وجود قوات تحت لواءه وان فينيقيا وسوريا قد استسلمت واصبحت فى
ايدى المقدونيين . وفى منف سلمه الوالى الفارسى خزينة الدولة وبها ٨٠٠
تالنتا^(٤) وكل الاثاث الملكى . وتسلم الاسكندر ايضا قلعة الملك ومعسكر
الحراسة بها .

وجدير بالملاحظة ان المصريين لم يخفوا عواطفهم نحو الاسكندر بسبب
المصائب التى جلبها عليهم الفرس ، بل وجدوا فيه المحرر والمنقذ من هذه
الدولة . وكان اول ما فكر فيه الاسكندر عندما استقر فى منف هو اظهار

(١) د / ابراهيم نصحي : تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج١ ص ١٦ ، ١٧ .

(2) Arrian II. 17 . 4 .

(3) Arrian III. 1 . 2 .

(4) Quintus Curtius, IV. VII .

احترامه للديانة المصرية ، ولذلك نراه وقد قدم القرابين في معبد الاله بتاح
والعجل المقدس آيس . بل ويقال انه توج فرعوناً في معبد الاله بتاح طبقاً
للطقوس الدينية المصرية .

ولعل الاسكندر اراد بتشبهه بالتقاليد المصرية وتقديم القوابين الى بتاح
وايس ضمان ولاء المصريين له ، خاصة وانه من بين الاسباب التي اثارت
حفيظة المصريين على الفرس انتهاكهم حرية الديانة المصرية ، كذلك لم
ينسى الاسكندر حضارته الهلينية فاقام في منف حفلاً اغريقيا رياضياً
وموسيقياً اشترم فيه بعض من اشهر الموسيقيين والممثلين في العالمك
الاغريقي⁽¹⁾ .

ولم تكن منف التي اتى اليها الاسكندر بلدة جديدة بالنسبة لليونانيين ،
فمنذ القرن السابع كانت هناك اعداد ضخمة من الجنود المرتزقة اليونانية في
خدمة الجيش المصرى ، وكان لهم مكان خاص بهم على فرع النيل
البلوزى ثم نقلهم امازيس الى منف . وهكذا عند قدوم الاسكندر اليها وجد
بها عناصر اجنبية ، ولكن كيف كان حالهم بعد مجيء الاسكندر ؟ لعلمهم
كانوا يأملون في بداية عصر جديد بالنسبة للكيانة الهلينية في مصر مثلما
آمل المصريون بحضور الاسكندر كمحرر لهم من العبودية الفارسية ومحافظة
لهم على حقوقهم الدينية .

ادرك الاسكندر ذلك جيداً فحاول التوفيق بين الهدفين ولعل ذلك كان
دافعاً له لاقامة برنامج مزدوج ، فقدم القرابين للعجل آيس المصرى والاله

(1) Arrian, III. 1. 4 .

بتاح واقام احتفالا رياضيا وموسيقيا على الطريقة اليونانية^(١) .

ترك الاسكندر منف فجرة من الوقت ليقوم برحلته فى الشمال الغربى الى معبد الاله آمون فى سيوه . فالتخذ الفرع الكانوى من النيل حتى الساحل ، ثم تتبع الساحل غربا حتى وصل الى قرية تعرف باسم راقودة - (راكوتيس)^(٢) ، تواجهها فى البحر جزيرة فاروس ، والى الجنوب منها تقع بحيرة ماريا (مريوط) . هناك قرر الاسكندر تأسيس مدينة الاسكندرية^(٣) وهى تعتبر اعظم واخلد اعمال الاسكندر فى مصر بل وأمر^(٤) ان تتخذ عاصمة لمصر بدلا من العاصمة القديمة منف . وقد أصبحت فيما بعد اعصم عواصم العالم الاغريقى فى ذلك العصر .

وتروى المصادر القديمة انه لم تتوافر كمية كافية من الجير لتحديد موقع اسوار المدينة الجديدة ، فاستعانوا بالدقيق الذى كان مخصصا لمؤنة الجنود لاتمام التخطيط مما اعتبر مالا سعيذا يبشر بما ستصيبه المدينة من الرخاء والرفاهية^(٥) . قام الاسكندر بتحديد النقاط الرئيسية للمدينة فبين مكان انشاء السوق ، وعدد المعابد لكل من الالهة اليونانية وكذلك لايزيس المصرية ، كما يؤكد اريان^(٦) . وهو بذلك يضمن رضاء كل من اليونانيين والمصريين ، كما انه قام بتحديد الحدود الدقيقة لخطوط الدفاع الخارجية للمدينة .

(1) U. Wilcken, Alexander der Grosse, P. 107 .

(2) Arrian, III. 1.5 .

(٣) د / مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٢٠ .

(4) Justinus x. II. 13 .

(5) Strabo, xvII, 6 .

(6) Arrian III, 1 5 .

لكن لنا أن نسأل الان ماذا فعل الاسكندر بهذا الموقع ، ولماذا اسس عنده اخلا اجماله ؟ ولماذا قرر نقل عاصمة البلاد من منف الى الاسكندرية ؟

لعل الاسكندر اراد باتخاذ الاسكندرية عاصمة للبلاد بدلا من منف رفع شأن الكيان الهيليني في مصر ، فان اختيار هذه العاصمة الجديدة يتناسب واهدافه العهد الجديد .

ولعله كان يهدف ايضا ان تكون الاسكندرية تغرا مقدونيا في البحر الابيض المتوسط ، لاسيما انه لم يكن لمصر على شواطئ هذا البحر ميناء ، جديرا باهميتها وغناها . ولعل هدفه لم يكن اقتصاديا فحساب بين كان ايضا حريا وحضاريا ، بان يجعل من الاسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجيه وشرق البحر الابيض المتوسط ، ومركزا لنشر الحضارة الاغريقية بين ربوع الشرق القديم . وجاء اختياره لموقعها مؤيدا لذلك ، وازاء هذه الاعتبارات قرر الاسكندر انشاء هذه المدينة التي اصبحت اعظم عواصم العالم الاغريقي .

بعد ذلك قام الاسكندر ومعه بعض اتباعه برحلته المشهورة الى وحي آمون في سيوة والذي كان يحتل لعدة قرون نفس مكانه وحي دلفى باليونان كواحد من المعابد التي اكتسبت شهرة كبرى في السرافة والوحي . لذلك فان هذه الرحلة كانت من الأهمية بمكان اولا بالنسبة لليونانيين باعتبار أن آمون سيوه هو احد أهم المعابد المشهورة بالعرفاة ، كما أنه بالنسبة للمصريين وهذا هو الاله ، كانت هذه الرحلة تبين الاهتمام الكبير من قبل

(1) P.M.Fraser,Ptol. Alex. P. 250 .

الاسكندر، بالالهه المصرية كما تؤكد انه بانتسابه لأمون اصبح له شرعية الحكم .

عاد الاسكندر الى منف بعد رحلته الى وحى أمون ، حيث تفرغ بعد ذلك لاعادة نظام الحكم والادارة على اسس جديدة . نراه يمنح مصر استقلالاً داخلياً^(١) وذلك بان قسم مصر الى قسمين تحت امرة حاكمين هما بتسيس ودولوبسيس وهما مصريان ، ووضعت الاقاليم المتأخمة للدلتا تحت اشراف اثنين من الاغريق الاول : ابولوينوس حاكماً على ليبيا والثانى : كليومينيس النقراطيسى حاكماً على المقاطعة العربية (شرق الدلتا) ، وكلف كليوميتيس بان يفرض على الحاكمين المصريين ان يرعبا فى حكمهما التقاليد المصرية القديمة وبأن يتحمل الضرائب منهما بعد جمعها ، كما عهد الاسكندر الى كليومينيس ايضا بالاشراف على انشاء مدينة الاسكندرية .

هذا هو ملخص النظام الذى وضعه الاسكندر لحكم مصر قبل ان يغادرها فى ربيع سنة ٣٣١ ق . م . ليواصل حربه ضد الملك الفارسى فى الشرق ونظرة سريعة الى هذا النظام تكشف لنا نقصاً ظاهراً ، وهو عدم وجود منصب حاكم عام للبلاد . وانما وزعت السلطة بعناية شديدة بين المشرفين على الادارة والشئون العسكرية والمالية وكان اريان^(٢) اول من لاحظ هذه الحقيقة وفسرها بأن الاسكندر فعل ذلك عامداً ليمنع أى حاكم بمفرده من أن يقوى سلطانه ويتمكن من الاستغلال بمصر . وما تجدر ملاحظته من هذه النظم التى وضعها الاسكندر انها تمتاز بثلاثة ظواهر اولها :

(١) د : ابراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ج١ ص ٢٢

(2) Arrian , III. 5 . 7 .

الحب والعطف للذين ابداهما الاسكندر نحو المصريين فاختر من بينهم حاكمى الوجهين البحرى والقبلى ، ولعله اراد بذلك ضمان ولاء المصريين له . والظاهرة الثانية انه لم يعين حاكما عاما للبلاد ، بل عمد الى تقيم السلطة بين عدد من الافراد لتفادى خطر استقلال واحد بالسلطة فى مصر مما يتعارض ومصصلحة امبراطوريته . أما الظاهرة الثالثة وهى تدلنا على مدى ما يتمتع به الاسكندر من ذكاء ، تخص الشؤون المالية ، فان الاسكندر لم يرغب ان يقوم بجمع الضرائب موظفين جدد ، فيشعر المصرى بأنهم اجانب أو دخلاء يقومون بجمع المال ، ولكن يدفع الشعب ضرائبه لأهل بلده وهم مشرفو الاقاليم وهؤلاء بدورهم الى كليومنيس .

هكذا كان الاسكندر فى مصر وحينما ذهب الى فينيقيا فى عام ٣٣١ ق . م . لم يعد مرة أخرى الى مصر ، لكن عاد جثمانه بعد وفاته حيث دفن فى منف ، وظل بها فترة لايعرف مداها ، ويقال ان بطلميوس الثانى نقله الى الاسكندرية .

من برسيبوليس حتى هندوكوش (٣٣١ - ٣٢٧) :

خرج الاسكندر من مصر فى ربيع عام ٣٣١ متعبا دارا الذى أتاح له الاسكندر بعروجه على مصر فرصة التقاط أنفاسه وتجميع قواته . وكان دارا قد حشد جيشا كبيرا فى جوجاميللا (Gangemela) التى تقع فى السهل المحصور بين الضفة الشرقية لأعلى نهر الدجلة ومدينة أرييلا Arbelia الأشورية^(١) . وفى معركة جوجاميللا (التى تسمى أحيانا معركة أرييلا) النجم الاسكندر بالجيش الفارسى ومزقه تمزيقا ، وفر دارا الثالث الى قلب آسيا (اكتوبر ٣٣١) . وبعدئذ انحدر الاسكندر مع الدجلة وتحول الى بابل (Babylon) على الفرات . ثم انحرف شرقا الى سوسا Susa (شوشن عاصمة الفرس القديمة)^(٢) ثم انحدر جنوبا الى برسيبوليس Persepolis (اصطخر) عاصمة فارس ، (٣٣٠) حيث كان يوجد القصر الضخم الفسيح وكنوز الفرس وتحفهم النادرة . وقد دمر الاسكندر - دون مبرر - جانبيا من برسيبوليس بعد استسلامها له . وفى اوائل ٣٣٠ غادر عاصمة الفرس واتجه شمالا الى اكباتانا Ecbatana (همدان)^(٣) وزحف شرقا لمطاردة فلول جيش دارا وبلغ هيركانيا Hyrcania عند الطرف الجنوبي الشرقى من بحر قزوين . وفى اقليم بارثيا Parthia (جنوب شرقى بحر قزوين) سمع أن دارا قد قتل بيد بيسوس (Bessus) والى باكتريا (حول بلخ) . وكان فى طريقه يؤسس مدنا تحمل اسمه . ثم تابع الاسكندر زحفه شرقا حتى ارتكابا (اقليم أريا Areia) وانحدر جنوبا مع النهر الى

(١) هى تل جويل وتقع على بعد ٣٥ كم شمال شرقى الموصل .

(٢) سوسا عاصمة « عيلام » .

(٣) اكباتانا عاصمة « ميديا » .

دراغجيانا (Drangiana) ثم انحرف شمالا الى جند هار باقليم أوخوسيا Arachosia = كندهار واتجه بعدئذ شمالا حتى بلغ موقع كابول (عاصمة أفغانستان الحالية وتابع سيره حتى باكترا Bactra) بخ (فى اقليم باكتريا بين نهر جيحون Oxus وجبال بارواميسوس Paropamisos) هندوكوش (شمال افغانستان وغرب تركستان الروسية) .^(١) وهناك قبض على ييسوس قاتل دارا وأعدمه ومنها سار شمالا الى مراكاندا Marakanda (سمرقند) (٣٢٩ - ٣٢٧) حيث قضى قرابة عامين فى فتح اقليم سوجد يانا Sogdiana (أوزبكستان الحالية) الواقع شرقى نهر سيحون (Jaxartes) واقليم باكتريا (حول بلخ) .

غزو حوض السند (٣٢٧ - ٣٢٦) :

العودة (٣٢٥) :

وبعدئذ انحدر الاسكندر جنوبا الى كابول واتجه شرقا الى حوض السند . وبلغ تاكسيلا Taxila (روال بندي) على نهر السند . ثم سار جنوبا . ومات حصانه الشهير بوكيفالوس فأسس مدينة باسمه تخليدا لذكوره وهى بوكيفالا (Bucephala) على ضفاف نهر هيداسبيس Hydaspes (جيلام) عام ٣٢٧ . ولم يلق مقاومة حتى بعد عبوره نهر السند (Indus) . لكنه لقى مقاومة عندما اقتحم مملكة الأمير الهندي باورافا (بوروس Poros فى اليونانية) الذى كان يسيطر على المنطقة الشرقية شرقى نهر هيداسبيس . وانزل به الاسكندر الهزيمة عام ٣٢٦ ولكنه سمح له

(١) يشمل اقليم باكتريا (مع شمال سوجديانا) مرو وجزء من خراسان وبلغ وبخارى وفرغانة .

بالاحتفاظ بمملكته . وكان آخر منطقة بلغها هي منطقة هيفاسيس -Hy phasis (سوتلج الحالية) . وهنا انتهت مسيرة حملته نحو الشرق . ان أصاب التعب والاجهاد جنوده وعلى الأخص المقدونيين بسبب طول الرحلة وعنائها . واضطر الاسكندر الى العودة (٣٢٦) وركب نهر هيداسبيس جنوبا حتى مصبه مع جزء من قواته بينما زحف الجزء الباقي بمحاذاة ضفتى النهر فى فصيلتين . وبلغوا جميعا شاطئء المحيط الهندى حوالى منتصف عام ٣٢٦ . ومن هناك أرسل الاسكندر القائد نيارخوس (Nearchus) على رأس اسطول ليبحر به بمحاذاة الساحل حتى الخليج العربى .

وأما الاسكندر نفسه فقد سار مع بقية قواته برا عن طريق الجنوبى عبد جيد روسيا (Gudius) ومر بمدينة برسيبوليس وبلغ سوسا فى أوائل عام ٣٢٥ . وبعد أن أعطى قواته قسطا من الراحة اتجه عند نهاية ذلك العام (٣٢٥) شرقا مرة اخرى الى اكباتانا (همدان) فى اقليم ميديا حيث مات صديقه الحميم هيفاستيون (٣٢٤) . ثم قفل الاسكندر راجعا الى بابل حيث مرض بالحمى ومات فى يوم ١١ يونيو عام ٣٢٣ .

تأليه الاسكندر :

ولنتوقف هنا لحظة نستعرض فيها بعض احداث فى الحملة كان لها دلالتها وفى مقدمتها ما يقال عن ذلك التغيير الذى طرأ على سلوك الاسكندر . فقد لوحظ انه بدأ يتشبه بالفرس ويرتدى زيهم بل ويقلد بعض عاداتهم . وقيل انه زين رأسه بما يشبه التاج الفارسى (tiara) . ولاشك فى أنه أعجب ببعض الشخصيات الايرانية وغيرها من التقى بهم . وأبلغ من ذلك دلالة هو أنه بدأ يطالب زملاءه المقدونيين بأن يؤدوا له التحية على

الطريقة الفارسية ، وأن يحنوا هاماتهم له عند الدخول عليه تبجيلا له أو ينبطحوا أرضا أمامه على نحو ما كان رعايا الفرس يفعلون عندما يدخلون على الملك الأكبر . وبعبارة أخرى طالبهم الاسكندر بالسجود له (Proskynesis) . وقد أثار ذلك دهشة اقرانه من القواد ورجال حاشيته . بل أثار سخريتهم واستنكارهم . وقد استجاب البعض وتردد البعض الآخر فى الاستجابة ورفضت قلة رفضا باتا منكرة عليه هذا التحول فى اخلاقه . ولم يكن السجود فى الواقع يعنى عند الفرس أى نوع من التأليه للملك لأن الفرس لم يؤلهوا ملوكهم . لم يكن يعنى عندهم سوى الاحترام البالغ أمام الملك الأكبر . لكنه كان يعنى غير ذلك عند المقدونيين والاغريق . كان السجود عند هؤلاء يوحي بمعنى العبادة ، وأنه من حق الآلهة وحدهم الذين لاينبغى أن يسجد الا لهم . وأما السجود أو حتى الانحناء أمام بشر فيتضمن معنى المهانة والذلة والعبودية . وعندما دعى كالليستينيس Callisthenes - وهو ابن شقيقة أرسطو والمرافق للحملة^(١) عندما دعى ليسجد أمام الاسكندر ، رفض قائلا ان العادات الآسيوية (الايرانية) ينبغى ان تظل مقصورة على الآسيويين . وقد كلفه هذا الرفض حياته .

ومع أن الاسكندر لم يكرر المحاولة ولم يصر على سجود زائريه بعد ذلك الا أننا نتساءل عن مغزى المحاولة ، ومدى جديتها . وبعبارة أخرى نتساءل عن هدفه من الاقدام على تلك الخطوة . وهل صحيح أنه كان يعتزم اقامة حكمه على أساس من الحق الالهى ؟ وهل صحيح أنه كان يهدف الى أن يكون الها للامبراطورية لأنه بذلك وحده يستطيع أن يحكمها بسهولة ويسر

(١) هو مؤرخ الحملة . وكان من مدينة أولينثوس .

وأن يؤلف بين عناصرها البشرية المتباينة غير المتجانسة ؟ ويرى بعض الباحثين أن ذلك كان هدفه . ويوظون بين طلب السجود له وبين زيارته آمون في معبده (بواحة سيوة) . ويقولون ان الاسكندر لم يهدف فقط من وراء زيارته لمعبد آمون استشارة الاله المصرى عن مصير الحملة أو الاستفسار من الاله عن مقتل ابيه فيليب أو الظفر منه بما يرضى نزعتة الخيالية ، وإنما أراد أن يظفر منه بما يمكن أن يدعم سلطانه يؤكد نسبه اليه فيستغل ذلك - كما ذكرنا - للدعاية على الصعيد الهليني الدولى . ولكن ألم يتوقع الاسكندر ما قد يثيره مسلكه من اعتراض بل امتعاض فى صفوف المقدونيين والاغريق ؟ لقد كان الأمر هينا فيما يتصل بمصر حيث نصب الاسكندر رسميا كفرعون . وكفرعون كان لابد من تحيته كابن لآمون شأنه فى ذلك شأن من سبقوه من الفراعنة . وقد ذكرنا من قبل أن الاسكندر لم يدرك - على ما يرجح - كنه هذه التحية ومغزاها ، وربما لم يكن قد أمن بعد بصلته أو نسبة لهذا الاله . لكن هذا الحادث - كما أسلفنا - ترك فى نفسه أثرا قويا عميقا . وكرجل شديد الخيال روماتيكي النزعة عميق الايمان من الناحية الدينية ، فقد تصور منذ زيارته للواحة المصرية (سيوه) أنه مرتبط بأمون برباط خاص . وقد نسب الى الاسكندر ما معناه « ان آمون هو أبو البشر جميعا . لكنه يصطفى أفضل البشر ويجعلهم ابناؤه المقربين . ولعل الاسكندر بدأ يعتقد أن ثمة صلة بينه وبين هذا الاله أقوى من تلك التى بين الاله وبين عامة البشر ، وأنه صار تحت رعاية آمون الذى ينصحه ويرشده . بل تصور أن الحملة رسالة الهية أو حتى بنوء روحية . ولقد سكنت عملة تحمل صورة الاسكندر وتبرز عن رأسه قرنانا يرمزان الى الكيش وكان الكيش هو العنبران المقدس الاله ، يرمز آمون . وعن هذا تلميذ يسميه « بالاسكندر

ذى القرنين ٥ . وقيل أيضا ان الاسكندر أوصى فيلبي وفاته بأن يدفن الى جانب أبيه آمونه فى واحته (سيوه) .

لهذا يرجح بعض المؤرخين أن فكرة اقامة الحكم على أساس من الحق الالهى اخترمت فعلا فى رأس الاسكندر بل ان فكرة الالهية نفسها قد رسخت فى ذهنه بحيث أنه لم يعد يابه بأى معارضة أو امتعاض من جانب المقدونيين والاغريق . ولم يعد يحفل بتقاليدهم أو نظرتهم الى الحاكم وطبيعة سلطته . وهى نظرة كانت تختلف عن نظرة كثير من الشرقيين ، اذ لم تتضمن فكرة حق الملوك الالهى ، كان الاغريق والمقدونيون قد فصلوا منذ زمن بعيد بين الدين والدولة . ويسوق هؤلاء المؤرخون أدلة أخرى تؤيد اعتناق الاسكندر لنظرية الحق الالهى كسند للحكم . يقولون أن الاسكندر قد تأثر بالفكار التى كانت شائعة فى عصره كأفكار الكاتب السياسى الأثينى ايسوقراط (Isocrates) الذى كان من أنصار توحيد دويلات المدن اليونانية تحت زعامة فيليب الثانى ، والقيام بحملة مشتركة ضد الفرس تحت قيادته . فقد كتب الى فيليب ، والد الاسكندر ، يقول له فى احدى رسالته : « انه اذا انتصر (فيليب) على الامبراطور الفارسى وغز املاكه فلن يتبقى أمامه الا أن يصبح الها » ، ومن المؤكد أن الاسكندر اطلع على هذه الرسالة التى نشرها ايسوقراط وعرفها كل الاغريق حينئذ . وكانت مؤلفات ايسوقراط رائجة وتقرأ فى كل مكان . وقد أخذ الاسكندر - على ما يرجح - بنصيحة أخرى لهذا الكاتب ، وهى نصيحة كانت موجهة الى أبيه : وهى ضرورة انشاء مدن على النمط اليونانى فى آسيا بعد فتحها .

فأسس الاسكندر عدة مدن يونانية الطراز فى ايران وكالاسكندرية فى مصر .
لعل الاسكندر قد تأثر فى هذا المجال بأفكار كتاب آخرين ممن تتناولوا
بالشرح نظرية الحكم الملكى . ومن بين هؤلاء الكتاب الفيلسوف أرسطو
الذى يصف فى كتاب السياسة (Politika) منزلة الملك بأنها كمنزلة الاله
بين البشر ، وأن مثل هذا الشخص (أى الملك) لا ينبغي أن يخضع لارادة
الآخرين بل ينبغي أن يعطيه الآخرون بمنحض ارادتهم وعن طيب خاطر .
ومن المعروف ان الاسكندر تتلمذ على أرسطو الذى لقنه بلاشك بعض
الأفكار السياسية وفى مقدمتها نظرية الحكم الملكى . صحيح أن الاسكندر
لم يظل على تمسكه بكل الافكار التى لقنها له أرسطو فقد نبذ بعضها فيما
بعد . فلم يأخذ مثلا بنظرية الاستملاء العنصرى أو أن الاغريق ولدوا أحرارا
بينما ولد البرابرة (الشرقيون) عبيدا ، وانه يجب استرقاق الاخيرين أو
ابادتهم . اذ سرعان ما تبين للاسكندر فساد هذه الفكرة وبطلانها فنبذها
اتناء حملته بعد توثيق معرفته بالفرس وغيرهم من الشعوب الشرقية . وبذلك
ارتفع الاسكندر فوق مستوى استاذه فى هذا الصدد على نحو ماسترى بعد
قليل . وفى الحق أن نظرية ايسوطراط وارسطو عن حق الملوك الالهى كانت
قد بدأت تروج فى ذلك الوقت وتجد لها انصارا . فنجد مفكرا آخر وهو
ديوتوجنيس (Diotogenes) ، وهو أحد اتباع مدرسة فيثاغورس الفلسفية
ينادى بنظرية مشابهة عن الحكم الملكى المستند الى الحق الالهى فيقول ما
معناه أن موقف الملك من الدولة كموقف الله من العالم ، ومن ثم فلا يجب
أن يقدم حسابا عن اعماله لأى شخص . ثم يضيف الى هذا قوله « وحيث
أن الملك هو تجسيد للقانون الذى يسود الدولة فمن الواجب أن ننظر اليه
كما ننظر للاله بين البشر » .

لايستبعد إذن أن يكون الاسكندر قد وقع تحت تأثير هذه الافكار السياسية عن طبيعة الحكم الالهى ، ثم شجعت زيارته لمعبد آمون وما تلقاه من اجابة ، شجعت على اخراجها الى حيز التنفيذ نبدأ بتطبيقها أثناء وجوده فى اقليم باكتريا (٣٢٩ - ٣٢٧ ق . م) عندها طلب من جميع رفاقه السجود له عند مقابلته . لقد طالبهم بالسجود (Proskynesis) ولم يطالبهم بتأليهه (apothesis) . ثم جاءت الخطوة الأخيرة فى ٣٢٤ أى قبل وفاته بعام واحد عندما أصدر كرسومين كلاهما موجه الى المدن اليونانية . وقد طلب فى أحدهما من هذه المدن اعادة بعض المنفيين السياسيين اليها ، وطلب فى الآخر من هذه المدن . صراحة الاعتراف به لها ، وقد أثار هذا الطلب ردود فعل مختلفة فى بلاد اليونان . ففى أثينا - مثلاً - نجد الخطيب ديموستينيس يدعو الاثينيين الى اجابة مطلب الاسكندر فيما يتصل بتأليهه كوسيلة لمساومته على عدم اجابة المطلب السياسى الآخر (الخاص بارجاع المنفيين) وأما فى اسبرطة فقد قال الاسبرطيون « فليصبح الاسكندر الها اذا شاء أن يكون الها » . وقد وافقت المدن اليونانية على تأليه الاسكندر بدافع من الخوف ، فضلاً عن كونه زعيم الاتحاد الجامع (حلف كورنثة) الذى يملك القوة لتنفيذ مطالبه . ومن ناحية أخرى : ماذا يضير لو أضيف اله جديد الى مجموعة الآلهة اليونانية ؟ أن هذا لم يكن بالأمر العسير على قوم لم يعرفوا عقيدة التوحيد (Monathcism) بل كانوا ينظرون الى تعدد الآلهة (Polytheism) على أنه أمر طبيعى . لكن من الواضح ان الاسكندر بدسلكه هذا قد بدأ يمزج الدين والسياسة على أساس ان الاول دعامة للثانية ، فهو من الناحية السياسية كان لا يستطيع ولا كان من حقه أن يطلب الى المدن اليونانية - كزعيم

للاتحاد الهليني - أن تسمح للمنفيين السياسيين بالعودة لأن هذا كان يعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية لهذه المدن وهو مالا يتفق مع مبادئ «السلام العام» التي أقرها مؤتمر كورنثة . لكن اذا كانت هذه المبادئ تلزمه كملك للمقدونيين بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للمدن اليونانية ، فانها لم تكن ملزمة له كاله للاغريق يملك الحق في التصرف كيفما يشاء . وأيا كانت الدافع الى موافقة هذه المدن على مطلب الاسكندر فانها (أى المدن اليونانية) كانت تدرك أن تأليه الاسكندر لايمكن أن يكون مجردا من المغزى السياسى ، وأن الاسكندر الاله لايمكن أن يكون شخصا منفصلا عن الاسكندر الزعيم السياسى .

لقد تأثر الاسكندر اذن بالمفهوم الشرقى للحكم القائم على أساس من الحق الالهى . ولعله كان يعتزم أن يقيم حكمه على أساس هذا المفهوم ، ولو أن خطواته لاجراء الفكرة الى حيز التنفيذ قد اتسمت بالتردد والحذر بسبب معارضة المقدونيين والاغريق وعدم هضمهم للفكرة . واذا كانت المدن اليونانية قد سلمت بالأمر الواقع واستجابت لرغبته في اعتباره الها ، فقد فعلت ذلك كرها لا طوعا وتحت وطأة سيطرته الشديدة ، وهى سيطرة لم تتمكن هذه المدن برغم مختلف المحاولات من التخلص منها.

لكن كيف كان ذلك النوع من الحكم القائم لى الحق الالهى يتفق مع مفهوم الحضارة الهلينية التى كانت دولة المدينة اليونانية الحرة تشكل

اطارها الرئيسى وتمثل وعاءها التى ازدهرت فيه ؟ كان الاسكندر معجبا
بالثقافة اليونانية وقد خرج فى حملته ضد الفرس كنصير لهذه الحضارة
وحامل لوائها بل حامى حماها . وأسس وهو فى طريقه عدة مدن على
النمط الاغريقى . وكان يرى فى أثينا خير ممثل لهذه الحضارة وكانت
المدينة تحتل فى نفسه منزلة رفيعة . غير أن هذا كله لم يؤثر - على ما يبدو
- فى نظرتة الى الحكم الديمقراطى ، ذلك الحكم الذى كانت أثينا من
ناحية أخرى تمثله خير تمثيل . كان الاسكندر يرى فى الحكم الديمقراطى
ما يتعارض وسلطنته كملك . ينزع بالضرورة الى الاوتوقراطية (الاستبداد)
لهذا لم يكن متحمسا للحكم الديمقراطى أو النظام الشعبى الذى كان
سائدا فى كثير من دويلات المدن اليونانية . ويبدو أن اعجاباه بالحضارة
الهيلينية كان اعجابا ثقافيا عاطفيا أكثر منه سياسيا واقعيا . كان يعيش
بخياله فى « عصر بطولة » بلاد الاغريق ، وعالم الحرب الطروادية . ولعله
لمس أوجه الشبه بين حملته ضد الفرس وحملة الاغريق القدامى ضد
طروادة . ولقد روى - كما ألمعنا من قبل - أنه كان يحمل فى أثناء
الحملة نسخة من الياذة . وعندما نزل بأسيا الصغرى زار موقع قبر أخيل ،
بطل الحرب الطروادية ، وصديقه باتروكلوس عند مكان طروادة ، وقدم
القرايين اجلالا لذكرى بروتيسيلوس ، أول بطل اغريقى سقط فى الحرب
الطروادية (حوالى ١٢٠٠ ق : م) . لقد كان اعجاب الاسكندر ببلاد
الاغريق الهومرية يفوق اعجاباه ببلاد الاغريق المعاصرة له . وكان يعيش -
كما ذكرنا - فى الجو الهومرى مع ابطال الياذة . وفى عصر الحرب

الطروادية كأن نظام الحكم ملكيا اذ كان أجاممون (قائد عام الحملة الطروادية) ملكا على ميكيناى ، وأخوه منيلاوس ملكا على أسبرطة ، ونستور ملكا على ييلوس (قرب نارينو) . هذا على سبيل المثال لا الحصر . وفى أيام هوميروس نفسه (القرن التاسع ق . م .)^(١) كان الحكم الملكى قد بدأ يتحول الى حكم ارسقراطى . وعلى أى حال فكلا النظامين كان أبعد ما يكون عن النظام الديمقراطى وأقرب ما يكون الى الحكم الفردى أو الاقلية . وليس من المستبعد أن يكون موقف الاسكندر من دويلات المدن اليونانية قد تأثر أيضا بانطباعاته عن الجو الهومرى القديم . لكن اذا كان الاسكندر لم يسلك طريقا واضحا وصريحا ازاء المدن اليونانية لاعتبارات كثيرة فان مسلكه كان واضحا ازاء الممتلكات الفارسية التى استولى عليها بحد السيف اذ أن حكمه فيها كان امتدادا للحكم الفردى المطلق الذى كان سائدا فيها من قبل .

الاسكندر والامبراطورية العالمية :

كان الاسكندر وان حمل لواء الحضارة الهلينية واعتبر وريشا لها ، هو أول من خرج بالتفكير اليونانى من حيز البحر المتوسط الى « حيز القارات » . وبعبارة أخرى كان أول من نبه أذهان الاغريق الى فكرة الامبراطورية وما يستتبعها من السيطرة على العالم المأهول وتثخذ أو المعمور (Oikoumene) وما فيها من شعوب وعناصر مختلفة . وفتوحاته الواسعة هى أوضح دليل على تبلور هذه الفكرة فى ذهنه . وقد أفصح عنها فى مناسبتين لا تدعا مجالا للشك هى رفضه اقتراح دارا الثالث بأن يتنازل له (دارا) عن ممتلكاته

(١) لم يشهد هوميروس الحرب الطروادية التى وقعت قبله بحوالي أربعة (فى آخر القرن الـ ١٢ أول

القرن الـ ١٢ ق . م) أى - الى ١١٠٠ ق . م .

الواقعة شرقى الفرات ، وأما المناسبة الثانية فكانت الرسالة التى بعث هو بها الى دارا الثالث عقب انتصاره عليه فى معركة اسوس عام ٣٣٣ . وفيها يصف نفسه « بسيد آسيا » ويمضى الاسكندر قائلاً له لقد انتصرت عليك واصبحت أمتك أراضيك بفضل الآلهة . وهكذا يجب أن ترأسنى الآن باعتبارى ملك آسيا العظيم . وحاذر من أن تكتب الى كما تكتب الى ند (نظير) لك . لكن اذكر دائماً ، عندما تلتمس منى مطلباً الى سيد كل ما تملكه . هكذا نرى ان الاسكندر لم يشأ أن يقف بفتوحاته عند حد الفرات . ونسمع منه بوضوح نبرة الامبراطورية ونغمة السيطرة على كل الشعوب التى تقطن الولايات الفارسية سواء فى افريقيا أم فى آسيا .

كان الاسكندر أول من صاغ فكرة الوحدة بين البشر فى قالب واضح . كان الناس جميعاً - فى نظره - أخوة لأنهم جميعاً أبناء الاله . وقد أشرنا الى إعجاباه بالفرس وغيرهم من الشعوب وتقديره لصفاتهم ومحاكاته لبعض عاداتهم . وقد اعتمد فى مصر على بعض المصريين وعينهم حكاماً قبيل رحيله عنها . واعتمد على الايرانيين بل هدده مرة عندما تمرد عليه جنوده المقدونيون بتأليف فرقة عسكرية منهم . وبل أن ثقته بالمقدونيين تزعزت وارتاب من بعض قواده المقدونيين ، وأمر يقتل عدد منهم ، قتل بارمنيون ، قائده الامين ، وابنه فيلوتاس فى عام ٣٣٠ . وقتل صديقه كليتوس (الذى انقذه فى جرانيكوس) اثر نزاع شخص وهو ثمل عام ٣٢٨ . وأمر باعدام كاليبستس (ابن أخت أرسطو) لارتياحه من أنه كان ضالماً فى مؤامرة هرمولوس عام ٣٢٧ . وقد كلف هذا الاسكندر عداوة مدرسة ارسطو الفلسفية (المشائين) بعد وفاته .

وليس أدل على نبذة فكرة التفرقة العنصرية واتجاهه الى توحيد شعوب الامبراطورية من سلوكه في حياته الخاصة . فقد تزوج من روكسانه (Roxana) احدى اميرات باكتريا (ابنة أوكسيارتيس Oxyartes الذى قاوم غزو الاسكندر لاقليمه مقاومة عنيفة) . تزوج روكسانه - التى وصفها البعض بأجمل نساء آسيا) من عام ٣٢٧ ، وهى التى انجب منها ابنه الوحيد الاسكندر (الرابع) الذى ولد بعد وفاة أبيه ببضعة أسابيع . وفى الحفل الكبير الذى اقامه الاسكندر فى سوسا عام ٣٢٤) قبل وفاته بسنة واحدة) دعا قواده وضباطه الى الزواج من ايرانيات . وتزوج هو نفسه - للمرة الثانية - لأغراض سياسية - من ستاجيرا (Sta cira) ابنه الملك دارا (لدوافع سياسية) نفس العام (٣٢٤) . ولم تنجب منه . ومع هذا فقد أثار هذا الزواج غير روكسانه . واقترن حوالى ثمانين من قواده وضباطه بزوجات آسيويات (ايرانيات أو فارسيات) . ولم يكن هذا كله مجرد مظاهرة سياسية وانما كان عملا رمزيا ، أى يرمز لفكرة الاسكندر بوجود « اقتتران آسيا وأوروبا » . وفى رأى مؤرخ حديث توفر معظم حياته على دراسة الاسكندر أن الاسكندر هو أول من نادى بفكرة أو مبدأ الاخاء الانسانى ، وانه كان يهدف الى بناء امبراطورية تجمع كل العناصر والأجناس على قدم المساواة تحت حكمه مع التسليم بتفوق الحضارة الهلينية .

لكن الاسكندر لم يجد - على ما يبدو - بين قاداته من يشاركه هذا التفكير أو يفهم أهدافه البعيدة . وقد بترت مشروعاته بطبيعة الحال بعد وفاته - قبل الأوان - فى بابل عام ٣٢٣ . لكنه كان مع هذا قد انجز منها ما يكفى لتغيير مجرى التاريخ ، وأصبحت قوة الظروف وحدها كفيلا باحداث الامتزاج بين أوروبا وآسيا .

لقد دار الزمان على أيرك القوس وأصبحنا إمبراطورينهم الشاهسة تخضع
من أقصاها إلى أقصاها^(١) لحكام مقدونيين يتمتعون جميعا بقسط من
الثقافة الهلينية ، ولا مناص لهم من الاعتماد فى بناء جيوشهم على
سواعد المرتزة الاغريق ، وفى بناء دولهم على رجال الاقتصاد والأدارة
الاغريق ، وعلى العلماء للدعاية لمالكهم ودعم مركزها الثقافى والأدبى
والحفاظ على مظهرها الهلنى . وقد تدفق المهاجرون الاغريق على الشرق
بحنا وراء الرزق . وحملوا معهم أساليب معيشتهم ونظمهم السياسية
وتقاليدهم الاجتماعية ، وفنونهم وآدابهم ، وأخيرا وليس آخرا لغتهم اليونانية

(١) ترك الاسكندر حاميات فى وادى السند . وبعدئذ استولى عليها الملك الهندى شاندرأ جوبتا
(Chandragupta) . من أسرة ماوريا (Maurya) (٣٢٢ - ٢٩٨ ق . م) الذى ضم
أيضا أراضى فى غرب وادى السند أخذها من سليوكوس الاول (نيكاتور) فى مقابل بعض
الفيلة ليستخدمها الأخير فى حربه ضد انتيجونوس « الاور » ثم أعقبه فى الحكم حفيده أسوكا
Asoka (٢٧٣ - ٢٣٢) الذى غزا كثيرا من الأراضى . لكنه استبشع القتل ومنظر الدماء
وتحول إلى راهب أو ناسك بوذى . واعتنق مذهب جواتاما Gautama البوذى . وكرس بقية
حياته لنشر هذا المذهب فى الهند وخارجها .

وقد سقطت أسرة « ماوريا » على يد المقتصب الاغريقى ديميتريوس (Demetrius) ملك
باكثريا (حول بلخ) فى حوض نهر اوكموس Oxus (جيحون) فى عام ١٨٣ ق . م . وقد
عبر جبال هندوكوش وغزا البنجاب . ولده ١٦ عاما (١٨٣ - ١٦٨ ق . م) ظلت المنطقة
الفسيجة الممتدة من وادى جيحون الأعلى (فى الشمال الغربى) حتى حوض السند الأعلى
موحدة تحت حكم هذا الملك الهلنى . لقد نجح فى إمبراطورية هلينية هندية فى هذا المكان
البهيد عن قبل العالم الهلنى . وكانت أطول عمرا من إمبراطورية الاسكندر التى تفتت من
بعده .

وفى عام ١٦٧ ق . م أرسل الملك السليوكى (أنطيوخوس الرابع) حملة تأديبية بقيادة ابن
عمه يوكراتيديس قضت على ديميتريوس وأهلأدت به . فأنقسم الشرق الأسمى الهلنى إلى
عدة دويلات أنفذت تتلاحقن حتى طفت عليها جهائنال الهندو الغزاة المعروفين باسم ساكاس
(Sakas) والطرشاريين (Tocharians) من آسيا الوسطى .

التي اكتسبت - بعد الاختلاط مع الشرقيين - طابعا جديدا وأصبحت لغة عامة أو مشتركة (Koine) ، بل أصبحت لغة دولية (Lingua franca) وعلى الأخص بين الطبقات المثقفة الاغريقية والمتأخرقة وفي المعاملات الرسمية والتجارية وحلت في الشرق الأدنى محل «الارامية» . وكما تأثر الشرق بالحضارة الهلينية تأثر الاغريق فيه بالحضارات الشرقية سواء في مصر أو سوريا أو العراق أو إيران أو حتى في حوض السند . ذلك أن هؤلاء المهاجرين الاغريق - وقد ابتعدوا عن موطنهم الأصلي ، واستقروا بين المصريين أو الآسيويين - لم يجدوا مفرا من أن يوائموا انفسهم مع البيئة الجديدة . ولم يجد الحكام المقدونيون أو الاغريق مناصا من اشراك رعاياهم الوطنيين في ميادين العمل الحكومي ، وأن يخضعوا هم أحيانا للمؤثرات الشرقية ، وذلك على الرغم من عدم رضاهم أو تبرمهم من سياسة الاسكندر التي كانت تقسم بعدم التعصب ، وتجبذ المساواة ، وتعامل الفرس كنظراء للاغريق .

وثار بعد موت الاسكندر سؤال : هل يحتفظ بوحدة امبراطوريته ؟ وكيف ؟ ومن يتولى السلطة العليا فيها (أن تقسم الى ولايات مستقلة ؟ وتغلبت فكرة التقسيم . لكن هذا بدوره أدى الى نشوب صراع طويل بين خلفائه وأبناء خلفائه .

الفصل الثانی العصر الهلینستی

الفصل الثاني العصر الهلينيستي

أولا - ملامح العصر الجديد :

اصطلح المؤرخون على تسمية العصر الباكر من الحضارة اليونانية أو الاغريقية بالعصر الهللادى (Helladic) ، وهو يقابل عصر الحضارة الميكنية ، على وجه التقريب ، وعلى تسمية العصر الذى أعقب العصر الاغريقى المظلم أو الوسيط (١١٠٠ - ٧٥٠ ق . م) وعلى الأخص العصر الكلاسيكى (٥٠٠ - ٣٥٠ ق . م) بالعصر الهليني (Hellenic) . ولفظ هللادى مشتق من هللاس (اسم بلاد الاغريق) ، ولفظ هلليني مشتق من هللين (أى اغريقى) . وأما هللينستي فهو لفظ مصطنع ولا يمكن تفسيره الا بأنه تحمیل للفظ هلليني فوق طاقته بل هو خروج على أصول الاشتقاق . لكن القصد من اللفظ اطلاقه على عصر يتميز عن العصور التى سبقته من وجوه كثيرة . وهذا مبرر معقول لهذا الاشتقاق اللغوى غير المعقول . فالقصد اذن هو ابتكار صفة تجنبا للبس والخلط . ان هللينستي صفة لا تختلف فى معناها اللغوى عن الصفتين الاخرين هللادى وهلليني . لكنها صيغت للدلالة على ذلك العصر الذى سادته نظم سياسية وأحوال اجتماعية وظروف اقتصادية ومظاهر حضارية جديدة نتيجة لفتوحات الاسكندر الاكبر (٣٣٤ - ٣٢٣ ق . م) . ذلك بأن هذه الفتوحات قلبت ميزان القوى قلبا ، وزحزحت مركز الثقل من مكانه ، وغيرت الأوضاع تغييرا جذريا ، وفتحت آفاقا جديدة . فى الحق ان تأثير هذه الفتوحات لم يكن عسكريا أو اقتصاديا نشدا ، ما كان حضاريا . لقد فتح الاسكندر باب الشرق على مصراعيه أمام الاغريق الذين تدفقوا عليه وأقاموا مسالك فيه ،

وهاجروا اليه زرافات ووحدا . وقد نقلوا معهم أساليب معيشتهم ، وأنظمتهم السياسية ، ولغتهم ، ومقومات ثقافتهم ، واختلط الاغريق في الشرق بسكانه الذين كانوا يختلفون عنهم اختلافا جوهريا ماديا وروحيا . ومن هذا الاختلاط الذي تفاوت في الدرجة من مكان الى مكان ، نشأ نوع أو لون جديد من الحضارة يسمى « بالحضارة الهلينيستية » . فكأن المقصود بلفظ هلينيستي هو شيء ليس هلينيا صميما أو ليس هلينيا « كلاسيكيا » بل هليني في بيئة جديدة متأثر أو مصطبغ بصبغة غير هلينية وفي الغالب صبغة شرقية : ايرانية أو سورية أو عبرية أو مصرية أو هندية .

وقد ذكرت أن هذا العصر المسمى بالهلينيستي بدأ بعد موت الاسكندر غير أنه ليس هناك في الحقيقة اتفاق تام بين المؤرخين على بدايته . فمثل هذا التحديد عسير لأن التغيير لم يحدث فجأة بل مضت فترة طويلة قبل أن يتحقق بصورة كاملة . وفي رأينا أن ارهاصات هذا العصر الهلينيستي قد لاحت في الافق حتى قبل الاسكندر وفتوحاته . ومن يستعرض تاريخ بلاد البلاد الاغريق منذ بداية القرن الرابع ق . م . يسترعى نظره ما طرأ على حياة الاغريق من تغيير عما كانت عليه في القرن الخامس ، العصر الكلاسيكي الصميم ، يسترعى نظرة تلك المظاهر التي أسلفت الاشارة اليها وكان أبرزها نمو روح الفردية وبداية تحرر المواطن الاغريقي من سيطرة دولة المدينة . نلمس ذلك في اتجاهه الفكرى ، وسلوكه ، وعقائده . ونلمسه في الفن الاغريقي . ونلمسه أيضا في سلوك دول المدن الاغريقية بعضها ازاء البعض الآخر . كانت الاحوال السياسية سيئة والعلاقات متدهورة ، وكذلك كانت الاحوال الاقتصادية . ولم تخف حدة الخصومات ، ولم تنقطع الحروب

الطاحنة بين دويلات المدن الاغريقية بل ازدادت ضراوة . لقد أتضح بالدليل القاطع فشل نظام دولة المدينة السياسى واتض عجزه عن مواجهة الظروف المتغيرة . لقد أجهض هذا النظام . وأخيرا أجهزت عليه مقدونيا فى معركة خيرونيا (Chaerones) عام ٣٣٨ ق . م .

لذلك يعتقد بعض المؤرخين أن هذه المعركة الحاسمة كانت ايدانا بانتهاء عصر « دولة المدينة » (Polis) الحرة المستقلة التى كانت أبرز ظاهرة فى العصر الهللىنى بل أنها كانت منه بمثابة الروح لقد أقل نجم دولة المدينة السياسى التى لم يعد نظامها بالملائم فى الظروف التى استجدت . وقام على انقاضه نظام الدول أم الممالك الكبيرة التى نسميها (بعد الاسكندر) بالممالك الهللىنستية . لعل معركة خيرونيا كانت بالفعل هى الحد الفاصل بين العصرين الهللىنى والهللىنستى من الناحية السياسية . لكن العصر الهللىنستى بكل ما يحمله من معنى حضارى لم يبدء بدهاة الا بعد الاسكندر بفترة يختلف مداها باختلاف المناطق ، ومدى استجابتها المؤثرات الهللىنية التى وفدت اليها .

وماذا عن نهاية هذا العصر ؟ ليس هناك اتفاق أيضا على هذه النهاية . ففى رأى بعض الباحثين أنه ينتهى بمعركة أكتيوم وسقوط مصر ، آخر الممالك الهللىنستية ، فى يد الرومان عام ٣٠ ق . م . فكأنه انتهى - وفقا لهذا الرأس - بسقوط مصر وسقوط الجمهورية الرومانية نفسها وقيام الامبراطورية الرومانية (٢٧ ق . م) . لكن هذا رأى - على وجهته - لا يحظى باتفاق جميع المؤرخين . ولاشك فى أن روما باخضاعها لكل الممالك والدرز الهللىنستية وتحويلها الى ولايات رومانية عند حوالى التاريخ

المذكور ، قد أحدثت تغييرا جوهريا فى نظم هذه الممالك من الناحية السياسية . لكن روما لم تأت هذه الممالك بحضارة رومانية متميزة ، أو بعبارة أخرى لم تفرض روما ذاتها كانت مصطبغة بالحضارة الهلينية . كانت الهلينية هى الأعرق والأرقى والأوسع انتشارا ولاسيما فى الشرق . وكانت أرسخ قداما فى مدن الشرق عندما جاءت روما . لذلك لم تحاول روما المساس بهذه الحضارة الهلينية . ولاينفى أن ننسى أن الحضارة الهلينية كانت أقرب الى الرومان من حضارات الشرق القديم . لذلك احتضنت روما هذه الحضارة ودعمتها لكي تكون لها سندا فى احكام قبضتها على الشرق ، ولاعجب أنها كانت تعامل الاغريق معاملة أفضل من معاملتها للشرقيين .

ولم يكن للحضارة الهلينية نفسها جذور عميقة فى ذلك الشرق لأنها وجدت هى الاخرى عندما وفدت اليه حضارات أعرق ، وهى الحضارات المحلية الموعلة فى القدم . لقد وجدت الحضارة الهلينية مقاومة فى مختلف اقطار الشرق سواء فى مصر أو سوريا أو ايران . ولم تشق الهلينية طريقها الا بصعوبة ، ولم تؤثر الا حيث نشأت مراكز هلينية أى فى المدن التى أسسها الإغريق هناك . وأما فى القرى أو فى الريف أو المناطق الجبلية النائية فان التأثير الهليني كان ضحلا ، وظل كالقشرة الرقيقة فوق السطح فلم تتعمق جذوره فى التربة ، أو كالزبد الطافى فوق سطح البحر . وكان هذا البحر (الشرقى) فسيحا بحيث لم تستطيع الجزر اليونانية الصغيرة المتناثرة بين ارجائه أن تؤثر فيه تأثيرا كبيرا . بل أن نقيض ذلك هو ما حدث فى بعض الاحيان ، اذ تأثر الاغريق الذين اختاروا السكنى بين الاهالى الوطنيين فى القوى والريف والجبال ، تأثروا هم بالحضارة الشرقية . لقد غلبهم تيارها .

وكان هذا التيار جارفاً في بعض النواحي ، وعلى الاخص في النواحي الروحية الدينية . لكن لاشك أيضاً في أن الاغريق تمكنوا من الأثير حتى في هؤلاء الاهالى على الاقل من ناحية المظاهر المادية . فتعلم بعض الوطنيين اللغة اليونانية التي تغير طابعها بعد انتشارها وتأثرها بمختلف اللهجات فصارت تعرف باللغة العامة أو المشتركة (Koine) بمعنى أنها أصبحت اللغة الرسمية ، ولغة التفاهم المستعملة في المعاملات أو اللغة الدولية (Lingua franca) . لكن ينبغي التنبيه الى أن هذه اللغة اليونانية في صورتها الجديدة لم تنتشر الا بين افراد الطبقات العليا الوطنية المثقفة في أقطار الشرق الذين كانوا أكثر من غيرهم استعداداً للتعاون مع الحكام الاغريق ، وحاولوا تقليدهم والتقرب منهم بوصفهم السادة الجدد ، أملاً في منصب أو طمعا في منفعة .

وفي رأينا أن دور الهلينية في الشرق لم ينته بسقوط مصر الهلينية وقيام الامبراطورية الرومانية . لقد ظلت حضارة مصر - على سبيل المثال - برغم وقوعها تحت الحكم الروماني حوالى سبعة قرون ، ظلت هلينية الطابع حتى الفتح العربى فى عام ٦٤١ م . وليس المقصود هنا كل مصر أو أهالى مصر الفلاحين ، وهم الاغلبية الساحقة من السكان ، انما المقصود مصر على المستوى الرسمى ، أى الطبقة الحاكمة ، ومعها الطبقة العليا من الاغريق والوطنيين المتأخرقين التي كانت تعيش لا فى الريف (poleis) أو فى حواضر الاقاليم (metropoleis) حيث تركز معظم الاغريق . وكان تأثيرهم هناك أقوى من تأثيرهم فى الاماكن الاخرى . وأما فى الريف فقد وقع الاغريق الذين استوطنوه تحت تأثير الحضارة المصرية ، بل انهم تزوجوا مع المصريين أحيانا فنشأ مجتمع يمكن أن نسميه بالمجتمع الاغريقى -

المصرى ، الذى كان يجمع فى أساليب معيشته بين مظاهر الحضارتين الهلينية والمصرية . وقد حدث نفس الشيء تقريبا فى الممالك الهلينية الأخرى .

توفى الاسكندر الاكبر فى بابل يوم ١١ يونيو عام ٣٢٣ ق م . وقد أذهل موته المفاجيء جميع قواده ، وأحدث فراغا هائلا . واجتمع هؤلاء القواد ليتدبروا الأمر فيما بينهم . ولم يخطر على بال أى منهم التخلّى عن أى جزء من فتوحات العاهل الراحل . كان السؤال الاول الذى تار فى الاذهان: لمن يعول عرش الامبراطورية ؟ وكان السؤال الثانى هو كيف يحتفظ بوحدة الامبراطورية ؟ ولعل البعض قد ساورته فكرة اخرى لكنه تخرج أنشد من البوح بها وهى هل من الضرورى الابقاء على وحدة الامبراطورية ؟ أو ليس من الافضل تقسيمها حتى يمكن ادارتها ويسهل حكمها ؟ .

وقبل أن نخوض فى مثل هذه الاسئلة والتساؤلات ، يجدر بنا أن نعود قليلا الى الوراء لكى نشير الى تلك الفكرة التى جالت بخاطر الاسكندر قبل وفاته . كان الاسكندر اثناء حملته فى الشرق قد اخترت فى ذهنه فكرة نبيلة مؤداها ان البشر جميعا اخوة ، وابناء اله ، ومن ثم ينبى حكم العالم على اساس المساواة بين شعوبه . وكان الاسكندر يعنى عالما هلينى الحضارة موحدًا تحت حكم رجل واحد ، هو آثرهم الى الاله . وكان يعنى نفسه بوصفه ابنا للاله الذى يرجح أنه آمون ، الاله المصرى الذى زاره الاسكندر فى واحته (سيوه الحالية) وارتبط به ارتباطا عاطفيا غريبا ، مما جعله يعتقد بأنه « ابنه » ، حتى لقد قيل انه كان يأمل - بل لعله أوصى - بأن يدفن بجواره فى معبده بواحة سيوه . كانت هذه الفكرة فكرة المساواة بين البشر

قد رسخت في ذهن الاسكندر . لقد التقى أثناء الحملة بشخصيات شرقية ،
ايرانية وغير ايرانية ، وابدى اعجابة بها . لقد عامل الايرانيين - على سبيل
المثال - كأنداد للمقدونيين والاغريق . ولم يجد أى غضاضة فى أن يتزوج
مرتين : مرة من روكسانه ، بنت أحد أمراء باكتريا (بين افغانستان
وتركستان الروسية) فى عام ٣٢٧ ، ومرة أخرى من ستاتيرا ، ابنة الملك
دارا الفارس قبيل وفاته عام ٣٢٤ . بل ذهب الى أبعد من ذلك ودعا
قواده وضباطه فى الحفل الكبير الذى أقيم بمدينة سوسه (شوسن)
عام ٣٢٤ الى الزواج من ايرانيات لكن الى أى مدى كان قواده
مقتنعين بهذه الفكرة ؟ لعل قلة منهم قد تأثروا بها . لكن أغلب
قواده لم يتأثروا بدليل أن كثيرين منهم طلقوا هؤلاء الزوجات بعد
وفاته .

لكن على الرغم من ذلك فان اقتراحات الاسكندر قد فرضت فكرة
أخرى ، وهى فكرة « العالمية » بمعنى أنه لم يعد فى الامكان أن تعود الأمور
الى سابق اوضاعها . كان تأثير الفتوحات هائلا الى درجة أنه لم يكن من
المستطاع أن تبقى الاوضاع على ماكانت عليه أو أن تعود عقارب الساعة
الى الوراء . لقد رحل النظام القديم الى غير رجعة ، ولم يكن من المستطاع
اعادته . لقد حلت فكرة « العالمية » محل « الاقليمية » . ولم يعد الوطن
بالضرورة هو « دولة - المدينة » بمفهومها القديم الضيق . أصبح الوطن هو
« العالم » بأسره الذى فتحه الاسكندر ، فاتحا معه آفاق واسعة أمام الاغريق .
لقد احدث تحولا حقيقيا بعيد الأثر ، لأنه غير به نظرة الاغريق الى العالم
وبالتالى الى الحياة نفسها . لم تعد نظرة ضيقة محدودة بحدود - دولة -
المدينة . لقد أصبحت نظرة واسعة شاملة كسعة « العالم » وشموله . وهكذا

بدأت فكرة « العالم المأهول » أو « المعمور » (oikoumene) تنتشر وتعود بدلا من فكرة « دولة - المدينة » . وظل الأمر كذلك حتى أحرزت روما السيادة العالمية وأصبحت « المعمورة » هي الامبراطورية الرومانية . لم يعد الفرد في العصر الهلينيستي بالضرورة مواطناً « دولة مدينة » بعينها بل مواطن العالم أو مواطناً عالمياً (Cosmopolitos) بمعنى أن أى مكان يعيش فيه كان بمثابة وطن له . لقد أصبح الفرد يعتبر نفسه عضواً فى مجتمع عالمى ، ومان هذا المجتمع العالمى - برغم احتوائه على تناقضات صارخة - يرتبط فيما بينه برباط من الثقافة المشتركة . وكانت هذه الثقافة المشتركة تختلّف عن ثقافة القرن الخامس ق . م . من عدة وجوه ، لأنها تأثرت بالتقدم السريع الذى أحرزه الفرد العادى وتأثرت بنزعه الاستقلالية الجديدة ، وبالالاتصال الوثيق بالحضارة الشرقية . وكانت هذه الثقافة الجديدة التى اكتسبت حيوية فى نواح ، وأصابها الوهن فى نواح أخرى ، هى التى صبغت روما بالهلينية ، وصارت فيما بعد إحدى وسائل نشر المسيحية . وقد تابع بعض خلفاء الاسكندر سياسته فى انشاء المدن . وكانت الهلينية اقوى ما تكون فى هذه المراكز المدنية . وأما فى القرى والريف فكانت الهلينية ضعيفة الأثر . كانت على نحو ما ذكرنا - مجرد قشرة رقيقة أو مسحة مظهرية . بل حدث بعد أن استنفذت الدفعة الهلينية الخلافة الاولى طاقتها ، وبعد أن وهنت حيوية روما التى ورثتها أن عاد التأثير الشرقى السابق قوته وعطفاً على السطح من جديد ، طاغياً على الهلينية والحضارة اليونانية . الرومانية . لكن مظاهر الحياة الخارجية كانت اغريقية . كان الرجل الشرقى يعتقد أنه من الضروري ان يتزود بقسط من الثقافة اليونانية وأن يستعمل - سهيلاً لمعاملاته التجارية - اللغة اليونانية .

كان أبرز اختلاف بين العصر الهلينيستي والعصر السابق هو ظهور الوحدات السياسية الكبيرة ، أي الممالك الكبيرة التي اقتسمت نظامها من نظام المملكة المقدونية . كانت هذه الممالك الكبيرة هي القاعدة العامة أو الظاهرة المنتشرة ، ولو ان المدن اليونانية داخل هذه الممالك كانت في الغالب تتمتع بقمط وافر من الحرية والاستقلال ، بل أن بعض هذه المدن كانت تعتبر نفسها « دول مدن » ذات سيادة ، ففي بلاد الاغريق الاصلية ، لم تندثر فكرة من الحرية ، وبالتالي لم تندثر فكرة «دولة - المدينة » . وحيثما لم يكن من المستطاع الحفاظ على استقلال المدن المختلفة كانت تقوم مقامها « الاتحادات » أو الاحلاف أو «العصب » .

كان الدور الحقيقي للاغريق في الشرق هو العمل على صبغة بالصبغة الهلينية تحت السيطرة المقدونية. وكان حكام الممالك الهلينيستية في العصر الجديد في حاجة الى بلاد الاغريق نفسها لاسباب كثيرة ، أولا لأن بلاد الاغريق برغم ضياع استقلالها كانت لاتزال بمثابة الام الروحية. ولم تكن أمجادها أو انجازاتها الرائعة السابقة قد طواها النسيان بعد ، بل كانت لاتزال ماثلة في الاذعان ، وملء السمع والبصر . لم تكن بلاد الاغريق قد استنفذت كل طاقتها أو فقدت كل حيويتها . كانت لاتزال قدرة على الخلق والابتكار . واذا كانت قد فقدت نفوذها السياسي فانها لم تفقد نفوذها الأدبي أو تأثيرها الروحي . لذلك اتجهت اليها أنظار ملوك الدول الهلينيستية الجديدة ، وكانوا كلهم تقريبا مقدونيين . وقد تصارعوا فيما بينهم من أجل السيطرة عليها أو دعم نفوذهم فيها وتنافسوا في كسب رضاها والتودد اليها . وقد لجأوا لتحقيق ذلك الى شتى وسائل الدعاية في بلاد الاغريق ،

كاصدار تصريحات « بتحرير الاغريق » والاعتراف باستقلالهم . وكانت هذه بمثابة مزايدات للاستهلاك المحلى ، القصد منها اظهار العطف على الاغريق واحراز شعبية بينهم . كان ملوك الدول الهلينيستية يدركون عناد الاغريق ، ويدركون انهم أكثر من سواهم مقاومة لهم . وكان لابد من كسر شوكتهم أو استمالتهم أما بوضع حاميات بين ظهرانيتهم لكبت حريتهم أو اغداق الهدايا على معايدهم الشهيرة . كانت دلفى ، مركز نبوءة الاله أبوللون ، لانزال تتمتع بمركز أدبى كبير ، كما كانت مركزا لتجمع المعلومات من شتى أنحاء العالم الهليني . وكانت المهرجانات الدورية (كالدورة الاوليمبية أو الدورة البيعية فى دلفى) لانزال قبله الأنظار ، ويطمع الجميع فى شرف الاشتراك فيها . وكانت أثينا مركزا لمدرسة فلسفية مزدهرة . وكانت اركاديا فى البلوبونيز مصدرا للجنود المرتزقة .

لكن ماهو السبب الحقيقى فى تكالب هؤلاء الملوك الهلينيستيون الاقوياء على بلاد الاغريق ؟ السبب الحقيقى هو احتياج هؤلاء الملوك فى ممالكهم الجديدة الى اعوان من الاغريق يساعدهم فى حكم هذه الممالك . كانوا يحتاجون أولا الى جنود مرتزقة من الاغريق لأنهم أدري من غيرهم بأساليب الحرب وفتون القتال الاغريقية . كانت جيوش معظم هؤلاء اللوك تتألف من المرتزقة الاغريق (misthophoroi) لأنه لم يكن فى وسعهم تجنيد الاهالى الوطنيين لعدم خبرة هؤلاء « البرابرة » بفنون القتال اليونانية . ولا كان فى وسعهم الاعتماد عليهم لعدم ثقتهم فى هؤلاء الاجانب . لذلك

كانوا مضطرين الى الاغريق سواء اغريق الوطن الأعلى حيث اشتهرت بعض المناطق كأركاديا بعثل هؤلاء الجنود المرتزقة أو اغريق جزر البحر الايجي حيث نشأت أسواق للجنود الذين كانوا يعرضون خدماتهم فى حرب معينة نظيرا أجل معلوم . واحتاج ملوك الدول الهلينيستية الى الاغريق فى أول الأمر لتعمير المدن التى اسسوها ، ثم احتاجوا اليهم فى مجالات الادارة والاقتصاد وغيرها من المجالات . وكانوا فى حاجة الى خبراء لتنظيم شئون دولتهم وتنمية مواردها الاقتصادية . كذلك كانوا فى أمس الحاجة الى تبرير سند حكمهم والدعاية لنظامهم ولأنفسهم . وكان ذلك يتطلب ايجاد مفكرين وكتاب وشعراء وفنانين . ومن ثم تنافس الملوك الجدد فى اجتذاب هؤلاء الصفوة من الاغريق الى قصورهم . وكان لذلك مدعاة لاعتزازهم بإزدهارهم .

كانت المدن والعواصم الجديدة فى الممالك الهلينيستية كالا سكندرية فى مصر ، وأنطاكية على نهر العاصى « أو سلوقية على الدجلة فى مملكة السلبيوكيين أو بروجامون عاصمة مملكة أتالوس أو جمهورية رودس الغنية فى جزيرة رودس كانت جميعا مراكز تجارية وصناعية نشطة . وقد تجمعت فيها عناصر خليطة من السكان الوافدين من شتى الأنحاء . وقد اكتسبت هذه العواصم طابعا عالميا . أصبحت ذات طابع دولى أشبه ما يكون بطابع العواصم الكبرى فى العصر الحديث . وقد تجتمعوا فيها وراء المال أو طلبا للهو والمتعة . ولم يكن هناك مناص من أن تؤثر أفكار وعادات البعض على أفكار وعادات البعض الآخر فى مثل هذه المجتمعات الخليطة المتباينة الأصل . وكان لابد من أن ينتهى الأمر بتمتزاج هذه الأفكار والعادات .

وكان الملك يتربع على قمة هذا المجتمع . وكلما ازدادت المملكة ثراء وقوة ، ازداد الملك بعدا عن هذا المجتمع ، وأصبح بمعزل عن رعاياه . لقد ازدادت الهوة التي تفصل بينها وأضحى في مكان ناء لا يراه فيه الا القلة . ولم يلبث أن اعتبر رسميا كاله . وكان تأليهه مجرد رمز لحقه في الحكم، وكان من شأنه أن يسهل له توحيد العناصر غير المتجانسة في سكان مملكته تحت سيطرته . وكانت تحيط بالملك حاشية كبيرة وعدد كبير من الموظفين . واتجه النظام نحو المركزية ، ولم يلبث أن اصبح بيروقراطيا نظرا لضخامة عبء الحكم وتعقد الادارة . وكان يحتاج كغيره من المجالات الى المتخصصين . وقد ذكرنا من قبل أنه كان من الطبيعي أن يسعى ملوك الدول الهلينيستية الى اجتذاب مفكرى العصر الى بلاطهم . غير أن رعاية الفكر والأدب والفن ، الى جانب الحروب المستمرة ، كانت تتطلب نفقات كثيرة وبالتالي فرض ضرائب باهظة على الأهالى .

كانت الحروب فى العصر الهلينيستى شبه مستمرة . وكان الجنود المرتزقة يشاهدون فى كل جيوش القرن الثالث ق . م . وقد قضت هذه الحروب على أرواح كثيرة . ومع هذا فان هذه الحروب اكتسبت بالتدريج طابعا أقل وحشية بل ربما اكتسبت طابعا انسانيا اذا استقر العرف الجديد على العفو عن سكان المدن المقهورة بدلا من قتلهم أو استرقاقهم ، بل صار من المألوف أن يلجأ أولا الى النحكم قبل اشهار الحرب . لكن ينبغى ألا ننظر الى هذا العصر من زاوية الحروب التى استمرت اثناءه . ينبغى أن نسرع النظر بعيدا عن ميادينها لكي ندرك معنى العصر الجديد على وجهه الصحيح . أن أهمية هذا العصر لا تنحصر فى نشأة الممالك الكبيرة أو انتشار

الثقافة المشتركة . ان ما شير . هئسنا بوجه خاص تعقيدات العصر الهلينيستي
وتناقضاته ، وبالأحرى تيرها « مصريته » الحقيقية . لقد ازدهرت فيه الحركة
العلمية ازدهارا عجيبا ، واشتد الشغف بالتعرف على الكون وأسراره ، وبذلت
جهود صادقة فى تحقيق النصوص الادبية القديمة وضبطها . لكن الجهل
والخزعبلات كانت لاتزال متفشية بينما غلبت على الادب نزعة الاعتناء
بالشكل دون المضمون بقصد التأثير البلاغى ، وغلبت على الفن نزعة
الاعتناء بالمظهر دون الجوهر لمجرد الاثارة . والى جانب البذخ والترف كان
يوجد الفقر والعبودية . وكان الانتاج على نطاق واسع ، والطرق التجارية
الرائعة المترامية الأطراف تحمل فى طياتها مزيدا من الثروة ، وسعة فى
الأفق ، واتساع الفجوة بين الطبقات ، ونذيرا بالثورة الاجتماعية . وقد
شجعت ظروف العصر القاهرة على اشتداد النزعة الفردية التى انطلقت من
عقالها لأن المواطن بعد أن اصبح بمعزل عن الحياة السياسية أى عن الحياة
التى كانت فى الماضى تستنفد كل طاقته عندما كان مشدودا الى عجلة
دولة المدينة ، اضطر الى الاعتماد على موارده الخاصة غير الكافية ، فشعر
بالضيق فى هذا العالم الفسيح المتغير ، وليس بغريب أذن أن يتحول أثناء
سعيه لكى يتأقلم مع هذا العالم ويستمتع بحياته فيه - أن يتحول ويلجأ الى
مذاهب فلسفية جديدة ، وعقائد وديانات دخيلة ، والى النوادى الاجتماعية ،
والجمعيات الدينية ، والنقابات المهنية ، ان العصر الهلينيستي اذا ما قورن
بالعصور السابقة كان أكثر رخاء بوجه عام وتحسنت فيه أحوال عامة الناس
على الاقل من الناحية المادية تحسنا كبيرا . لقد أصبح الرجل العادى مواطنا
لا فى مدينة محدودة بل فى عالم فسيح . وصار فى وسعه أن يتقل بين
أرجائه . وكانت منتجات هذا العالم ميسورة له وتأتيه حيث يقيم بسهولة غير

أن المستويات الرفيعة في الأدب والفن ، والحرية ، والشعور بالمسؤولية ،
والحماس والغيرة التي كان يتميز بها عصر بريكليس ، هذه الصفات كلها
أدبرت وقلما نلتقى بها في هذا العصر . وقد لاحظ أحد الباحثين بحق أن
أرشميد من النابعة الكبير الوحيد في العصر الهلينيستي لم يكن مواطن
أحدى الممالك الهلينيستية بل كان أحد مواطني دولة مدينة سراقوسة (في
صقلية) . وتساءل ما اذا كان لهذا دلالة ومغزاه .

ثانيا - الموقف عقب وفاة الاسكندر ومشاكل النزاع بين خلفائه :

استطاع الاسكندر الأكبر في فترة قصيرة لم تتجاوز الأحد عشر عاما أن
ينشئ امبراطورية مترامية الاطراف شملت شعوبا واقطارا . ختلفة اختلافا
كبيرا ، ولم تكن هذه الفترة القصيرة التي قضاهها في معارك مستمرة تسمح
له باقامة نظام سياسي واداري محكم للامبراطورية ، يكفل لها البقاء
والاستمرار ، وقد كان السبب الاول لوحدة الامبراطورية في حياة الاسكندر
هو بغير شك شخصيته وسيطرته وخضوع القواد له ، وفي نفس الوقت فان
الاسكندر لم يكن له عندئذ وريث شرعي يخلفه وان كان قد ترك
زوجته الفارسية روكسانا حاملا في شهرها السادس ، ولكنها كانت سيده
شرقية ، وكان الكثيرون ينكرون على جنينها الحق في التربع على عرش
الامبراطورية المقدونية ، أما بالنسبة لأخيه الموجود في بابل وهو ارهيد ايوس
فكان مصابا بالصرع كما انه لم يكن ابنا شرعا لفيليب ، ولكنه في نظر
الجيوش كان يمتاز على غيره بأن أمه كانت من تساليا ولم تكن شرقية ^(١) .

(١) د / ابراهيم نصفي ، المرجع السابق ج ١ ص ٤٣ .

لهذا فانه عند وفاة الاسكندر فجأة ، اصبح الامر بيد كبار قواده واعوانه في الحملة الذين كان لكل منهم اطماعه وأماله ، وقليل منهم من كان يؤمن بفكرة الاسكندر عن وحدة العالم ومبدأ العمل على مزج الحضارات بين الشرق والغرب ، وكان الاختلاف بينهم يتوقف على مدى اختلاف اطماعهم فمنهم من اراد الابقاء على وحدة الامبراطورية حتى يتمكن فيما بعد من أن يخلف الاسكندر وينفرد هو بهذه الامبراطورية ، مثل برديكاس أولا وانتيجونوس من بعده ، ومنهم من كان يسعى للحصول لنفسه على احدى الولايات ليستأثر بها ويؤسس فيها دولة مستقلة ، مثل بطليموس بن لاجوس الذي كان يسعى للحصول على مصر^(١) .

وقد كان بطليموس اكثر قواد الاسكندر واقعية وقدرة على تحديد اعدائه ، اذ أن مصر كانت تتمتع بحدود آمنة بصحرائها النادرة المياه وفي نفس الوقت غنية الى ابعد الحدود ، كما انها بلد مفتوحة على حوض البحر المتوسط ومناسبة لتكون إحدى الطرق التجارية العامة .

اجتمع قادة الاسكندر في بابل بعد وفاته ليحددوا مصير الامبراطورية على الطريقة المقدونية والتي كان الجيش يشكل فيها جمعية شعبية تعالج المشاكل المتعلقة بالعرش^(٢) وما من شك ان برديكاس كان اقوى شخصية في البلب في ذلك الوقت اذ أنه كان صاحب المركز الاسمى في الحملة بعد الاسكندر كما أنه كان بمثابة رئيس اركان حربه ، ويبدو ان بوزيكاس كان

(1) Beuon History of Egypt under ptolemaic Dynasty. p. 18 .

(٢) د / لطفى عبد الوهاب دراسات في تاريخ مصر ص ٨٦ .

موضع ثقة الاسكندر واقرب الناس اليه اذ يبدو انه قد سلمه خاتم الملك وهو على فراش الموت كما يؤكد ذلك ديودور الصقلي⁽¹⁾. لذلك لم يكن غريبا ان يشعر بوديكاس بانه صاحب الحق الأول فى تولي مقاليد الامور بنفسه واستطاع فعلا أن يصل الى اتفاق يرضى الجميع بتوزيع السلطة فى الامبراطورية فيما بينهم .

وقد اقترح برديكاس ارجاء البت فى ولاية العرش حتى تلد ركسانا زوجة الاسكندر ، فاذا جاء مولودها ذكرا ولى العرش⁽²⁾ لكن ملياجروس أحد القواد اقترح اختيار ارهيدايدس أخ الاسكندر غير الشرعى أما بطليموس فقد اقترح ان يبقى عرش الاسكندر شاغرا وأن يعهد ادارة الامبراطورية الى قواد الجيش رافضا فكرة أن يحكمه رجل معتوه من نسل غير شرعى ، أو سليل سيدة شرقية . لأنه كان يرى أن المقدونيين لم يقهروا الفرس لكى يخضعوا لسلالتهم . وبعد أن ناقش القواد هذه الاراء اتفقوا فى النهاية على أن تبقى الامبراطورية فى بيت فيليب وان ينتقل العرش الى فيلبى ارهيدايدوس مع الاعتراف بحق جنين روكسانا - حين يولد - اذا كان ذكرا فى مشاركة فيليب ارهيدايدوس ، بمثابة شريك تحت الوصاية .

بهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ولكنها لم تكن الا وحدة فى الشكل فقط اذ أنها انقسمت بالفعل بين قواد الاسكندر الذين قرر مؤتمر بابل تقسيم ولايات الامبراطورية بينهم ليحكموها بصفتهم ولاة من قبل الاسرة المالكة المقدونية ، وتقرر فى المؤتمر ان يعهد الى بطليموس بمصر .

(1) Diod. xviii, 2, 4 .

(2) Bouche Leclercq, Histoire de Lagides , 1. P. 9

وقد كان من الطبيعي بالنسبة لمصر أن يعهد بها في هذا المؤتمر بعد وفاة الفاتح المقدوني الى كليومنيس النقراطيسي الذي كان صاحب الكلمة الأولى في مصر منذ أواخر عهد الاسكندر ، هذا بالاضافة الى أنه كان صديقا لبرديكاس الذي كانت له اليد العليا في مؤتمر بابل ، ومع ذلك فقد اعطيت ولاية مصر لبطليموس واضطر كليومنيس ان يقنع بالمركز الثاني فيها، وهذا الامر لم يكن من الممكن أن يتم بغير تدبير من بطليموس ، فمن المحتمل انه كان هناك اتفاق بين برديكاس و بطليموس يقضى بان يستخدم برديكاس نفوذه لتوليه بطليموس على مصر لقاء اعتراف بطليموس بمركز برديكاس كقائد الجيش⁽¹⁾ والذي كان برديكاس يعتبره مركز قوة وقد حصل عليه فعلا في مؤتمر بابل⁽²⁾ .

كما تقرر في هذا المؤتمر ايضا أن يساعد ملياجروس برديكاس في منصبه كقائد عام للجيش وان يكون كراتيروس وصيا على الملك المعتوه ارهيداوس وكذلك على طفل روكسانا عندما يولد . ولكن سرعان ما تغيرت الأمور في مسألة الوصاية فاصبحت بين يدي برديكاس بعد أن ذهب كراتيروس لنجدة انتيباتروس في بلاد الاغريق وبعد ذلك وضعت روكسانا طفلا نادى به الجيش ملكا وهو الاسكندر الرابع ، ووضع برديكاس الملكية تحت سيطرته⁽³⁾ .

بعد ذلك اوضح برديكاس لجميع القواد انه ينتظر منهم اطاعة جميع الاوامر التي يصدرها باسم التاج ، لكن اكثر هؤلاء القواد قوة أخذوا

(1) Tarn, J.H.S. xLi, 1921; P. 5 .

(2) Diod; xviii, 3,4.

(3) Rostouzeff, Social and Economic History of Hellenistic world pp. 3 - 5 .

يستعدون لمقاومة هذه الاوامر وكان معه ايضا عقب موت الاسكندر ان طلب اولئك القواد الذين بذلوا جهدا كبيرا في الرسول، الى حل لمشكلة ولاية العرش وتنظيم حكم الامبراطورية لن يذهبوا لتولى مهام مناصبهم دون أن تراودهم اطماع شخصية وان اختلاف هذه الاطماع سيؤدي دون شك الى الصراع عنيف بينهم ، الا أن بطليموس بعد حصوله على ولاية مصر مضى اليها في الحال ، تاركاً سائر القادة في خلافاتهم ومنافساتهم حتى يضمن ان يتفرغ لولايته ، وكان هدفه الرئيسي تأمين سلطانه فيها ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأى أن يخضع لسلطانه بعض المناطق المجاورة على الحدود الشرقية والغربية ليمنع امكان غزو مصر فجأة عن طريق البر ، وكذلك ان تكون له مناطق نفوذ في بحر ايجيه . وخاصة الجزر التي تضمن له السيطرة على الطرق البحرية^(١) .

وعلى الرغم من محاولته الابتعاد عن باقى القواد الا أنه كثيرا ما اصطدام بهم وبالحكام الاخرين الذين ورثوا امبراطورية الاسكندر في سبيل تحقيق آماله ومأربه .

اول هذه الخلافات بدأت ضد السلطة المركزية وكان ذلك بخصوص دفن جثمان الاسكندر ، فقد اتفق برديكاس في مؤتمر بابل على دفن الاسكندر في موطنه الاصلى مقدونيا ، لكن بينما كان الجثمان في طريقه اليها قابله بطليموس واستولى على التابوت ، ثم نقله اولا الى منف ثم نقل بعد ذلك الى الاسكندرية^(٢) .

(1) Jouguet, L, Imerialisme Macedonian p. 281.,

(2) Paus. I. 6 , 3.

Diod. xviii, 1, 8, 3.

Strabo, xv II, 1, 8.

هذا التصرف من جانب بطليموس كان يعنى به امرين أولهما انه يستطيع أن يخالف اوامر برديكاس ، وثانيهما انه استطاع ان يعطى لولايته أهمية وشهرة بقيامه بدفن الاسكندر فيها .

بعد ذلك استطاع بطليموس ان يمد نفوذه الى برقة وما حولها من مدن يونانية (قورينة) حينما اشتعلت فيها الحرب الاهلية بعد موت الاسكندر .

شعر بطليموس نتيجة لذلك بانه يستطيع مستقل بسياسته تماما ويلغى تبعيته لبرديكاس ، فقرر التخلص من كليومنيس ، اذ شعر بأن وجوده فى مصر لم يكن الا ليرقبه ويبلغ برديكاس بتصرفاته ، فما كان منه الا ان - وجه اليه بعض التهم ، وحقق فى بعض شكاوى الشعب من تصرفاته ، وبناء على ذلك أمر بقتله .^(١) وامن بذلك مركزه مؤقتا من جانب اعوان برديكاس^(٢) ، وبدأ فى سائر انحاء الامبراطورية يشير القواد ضده . وكان من نتيجة ذلك ان قرر برديكاس محاربتهم . فى نفس الوقت نجد ان ضباط برديكاس قد تأمروا عليه برئاسة سليوقس وقتلوه عام ٣٢١ ق. م.^(٣)

بعد مقتل برديكاس اجتمع القواد فى تريبارد بسوس بسوريا ، لاعادة تقسيم ولايات الامبراطورية بعد اقصاء انصار برديكاس - الذين كانوا يهدفون الى استمرار وحدة الامبراطورية - وقد حرص بطليموس على

(١) د / لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق من ١١٧ .

(2) Beiron, i Bid. p. 22.

(3) Diod. xviii, 36, 5 .

الحصول على اعتراف بمركز في ولاية مصر ، وفعلا تم له ما اراد . كما
تقرر أيضا اختيار انتيباتروس وصيا على الامبراطورية ، وبذلك انتقل مركز
الامبراطورية من آسيا الى مقدونيا حيث ذهب انتيباتروس وبصحبته الملكان ،
وكذلك تعيين سليوقس واليا على بابل ، والاحتفاظ لانتيجونوس بولايته في
آسيا .

استقر الحال على هذا النحو منذ عام ٣٢١ ق . م الى أن توفي انتيباتروس
عام ٣١٩ والذي كان قد عين قبل وفاته بوليبرجون ، أحد قواد الاسكندر
القدامى ، خليفة له ، وكان بطليموس يسعى للاستيلاء على سوريا منذ
انتصاره على برديكاس ، فانتهاز فرصة موت انتيباتروس وما نشأ عن ذلك
من خلافات وزحف الى سوريا حيث استولى على جنوبها (جوف
سوريا) ^(١) وقد عرض بطليموس على كاسندروس عقب حلف معه حتى
يأمن جانبه - كما طلب كاسندروس من انتيجونوس عقد حلف معه أسوة
بما فعله بطليموس عام ٣١٩ ق . م .

وظل انتيجونوس يسعى للاستقلال بآسيا الصغرى بأسرها وكان لهذا
الانقسام بين القادة صدى في الاسرة المالكة ، فالملك المعتوه ارهيداوس
وزوجته انجازا الى جانب كاسندروس وذلك بسبب كراهيتهم للملكة
بوليبرخون فما كان من اولمبياس الا أن تأمرت على ارهيداوس وزوجته
وقتلتهما سنة ٣١٧ ق . م أما روكسانا والملك الطفل فقد كانا كرهائن في
يدي كاسندروس الذي سرعان ما نجح في الاستيلاء على مقدونيا ، وبعد
ذلك وقعت اولمبياس في قبضته وقتلها ^(٢) ، أما بوليبرخون فقد لجأ الى

(1) Diod. xv III, 43, 1.

(2) Bevan , jpid. p. 24 .

بعض المدن اليونانية التي اعلن مناصرتها لها^(١) .

بعد وفاة أرهيدايوس وأوليمبياس وسجن الاسكندر الرابع ، لم يعد لاسرة الاسكندر أى كيان فعلى ، وكان ذلك خير حافز لتحقيق اطماع خلفاء الاسكندر ، وقد شعر الجميع بأن انثيجونس كان يتطلع الى وضع الامبراطورية كلها فى قبضته والجلوس على عرشها ، ولقد سيطرت شخصيته على الفترة من سنة ٣١٦ الى سنة ٣٠١ ق . م . حتى توفى فى العام الاخير^(٢) .

واذ ضاق باقى القواد من الحروب المستمرة ، ثم التوصل فى عام ٣١١ ق . م . الى عقد صلح بين انتجونوس وكاسندروس وكذلك ليسيماخوس ثم انضم اليهم بطليموس بعد ذلك^(٣) .

يوضح لنا تحالف بطليموس الاول مع كل من كاسندروس وليسيماخوس وانتيجونس ان بطليموس كان يريد ان يعيد بلاده عن الحروب الطويلة التي تكلفه كثيرا من الاموال والارواح ، كما أنه بذلك ايضا يأمن جانب هؤلاء القواد الذين كان يعتبرهم من اخطر الاشخاص الذين يعترضون سبيله ويمكن ان يقفوا ضد اهدافه من اجل التفرد بحكم مصر .

فى هذا الصلح الذى تم سنة ٣١١ ق . م اضطر بطليموس الى التنازل عن سوريا ، كذلك تضمن هذا الصلح ان يحتفظ كاسندروس بسيطرته على مقدونيا حتى سنة ٣٠٥ ق . م حين يبلغ الاسكندر الرابع سن الرشد فيتولى

(1) Diod. xix, 52. 6 .

(٢) د / ابراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٧٢ .

(3) C.B. Welles, Royal Correspondance II pp. 26 - 31 .

الحكم بنفسه ، وان يحكم لينسيماخوس ترافيا ، وانتيجونوس آسيا ، وارخ
هذا الاتفاق باسم « الملك الطفل » ، لكن بعد مضي عام واحد ،
خشى كاسندورس ان يبطل حقه في السلطان بعد بلوغ الاسكندر الرابع
سن الرشد فقام بقتله هو ووروكسانا وقضى بذلك على اسرة الاسكندر
نهائيا .

وبمقتل الاسكندر الرابع فقد اتفق سنة ٣١١ ق . م قيمته
الفعلية واخذ كل من بطلميوس وانتيجونوس يعمل مستقلا على تحقيق
اطماعه .

وهكذا لم يعد هناك ملك فوق العرش ، ومع ذلك ظل الحكام
يسمون انفسهم ولاة حتى عام ٣٥٦ ق . م عندما أعلن انتيجونوس
نفسه ملكا ، وكان لا يزال يدعو للاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، فلم يكن
من منافسيه الا أن ردوا عليه باعلان انفسهم ملوكا في ولاياتهم ،
كاسندورس في مقدونيا ، وسليوكوس في سوريا . وبطلميوس في مصر
وهكذا ظهرت الممالك الثلاث الكبرى التي قدر لها ان تسيطر على العالم
الهليستى^(١) .

لكن لا بد لنا من الاشارة بأن بطلميوس الاول لم يكن يقصد مما خاضه

(١) يقصد بالعالم الهليستى تلك البقاع التي تألفت منها امبراطورية الاسكندر الاكبر وهي
مجرد تسميه اصطلاحية وقد ازدهرت في هذا العالم حلسارة جديدة اصطلح على
تسميتها بالحضارة الهليستية الحضارة الهلينية القديمة متمزجة بمناصر الحضارة
الشرقية .

W. Tarn and Griffith Hellenistic civilization pp 1 - 2 .

من حروب خارج مصر ومن تحالفه مع هساره ومع ذلك تاره أنشوى
سوى الوصول الى هذه وهو الانفراد بحكم مصر وتكوين اسرة
مالكة يسكون هو مؤسسها واول حكامها ، وتأمين مركزه فى مصر
وحمايتها ضد أى هجمات - خارجية ، كما أنه كان لا يابه اذا احس بأنه
سيفقد جزءا أو منطقة مما كان قد استولى عليه فى سبيل الاحتفاظ
بمصر .

الفصل الثالث

دولة البطالة وتاريخها السياسي

التاريخ السياسي لمصر في العصر البطلمي .

حين كان البطلمة بسبيل اقامة دولتهم في مصر ، كان عليهم ان يختاروا مكانا مناسبيا يصلح مقرا لعاصمتهم ، ذلك لأن منف العاصمة الفرعونية القديمة لاتصلح للقيام بتبعات وظروف العهد الجديد .

ولكن اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر بدلا من منف متى حدث ؟ وكيف تم ؟ وهل وجدت رابطة منطقية بين توقيت نقل جثمان الاسكندر من منف ودفنه في الاسكندرية وبين اتخاذها عاصمة لمصر ؟^(١) .

قبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنا ان نقول لعل الدافع وراء دفن جثمان الاسكندر في منف أولا ثم نقله الى الاسكندرية بعد ذلك هو ان منف كانت عنائد عاصمة لمصر ، وبالتالي فهي عاصمة بطليموس الاول ، لكنها كانت عاصمة مؤقتة لأن الاسكندرية رغم انها كانت في بداية عهدها الا انها كانت دون شك اوفق عاصمة لتبعات وظروف العهد الجديد^(٢) .

في الواقع لقد اختلفت مصادرنا القديمة : حول خط سير جثمان الاسكندر على مقره الاخير في الاسكندرية وميعاده . فمنهم من قال ان بطليموس الاول هو الذي قام بهذا العمل ومنهم من نسبه الى بطليموس الثاني^(٣) .

(١) د . مصطفى الوهاب ، مجمع الاسكندرية عبر العصور ، ص ٢٧ .

(2) W. Schubart, Agypten von Alexander dem Grossen... pp. 181 - 182 .

(3) Paus. 1. 6.3 .

من هنا نشأ الخلاف حول توقيت اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر ولعل هذا الخطأ نشأ من الربط بين حادثتين مختلفتين ومستقلتين منطقاً وتاريخياً. فليس هناك مصدر قديم واحد يربط بين نقل جثمان الاسكندر من منف ودفنه في الاسكندرية وبين اتخاذها عاصمة لمصر .

لكن لدينا نص صريح واضح يؤكد ان الاسكندر عند عودته من معبد الاله آمون امس الاسكندرية وامر بأن تكون عاصمة لمصر⁽¹⁾ . لقد اراد الاسكندر ان تكون الاسكندرية عاصمة عند تأسيسها ، ومما يرجح هذا الرأي أيضاً هو ان دار سك العملة انشئت في الاسكندرية عام ٣٢٦ ق . م⁽²⁾ وليس هناك دليل على ان عملة الاسكندر سكت في منف ، ولعل هذا الموقف لا يترك مجالاً للشك في ان الاتجاه الرسمي نحو اتخاذ الاسكندرية عاصمة جديدة ارتبط بفكرة تأسيسها وليس بفكرة نقل جثمان الاسكندر اليها ، وان بطليموس الاول هو الذي جعل الاسكندرية العاصمة الرسمية للملكه⁽³⁾ .

ولكن لنا اذ نتصور ان الانتقال الفعلي للإدارة من منف الى الاسكندرية استغرق بعض الوقت على الأقل حتى تتم الاستعدادات اللازمة في المدينة الجديدة ولكننا لانعرف على وجه التحديد متى تم الانتقال الفعلي .

اول وثيقة⁽⁴⁾ يمكن لنا الاعتماد عليها هي وثيقة مصريه مؤرخة بسنة

(1) Justinus. xI. II. 13 .

(2) Seltman, Greek Coins, p. 212 .

(3) P.M. Fraer, IBid p. 7 .

(4) هذه وثيقة مصرية كتبت بالهيريوغليفية اكتشفت عام ١٨٧١ بالقاهرة توجد ترجمة كاملة للنص

في . E. Bevan, Ibid pp. 28 - 32 .

٣١١ ق . م جاء بها الكهنة المدبرين يقولون ، بطلميوس اجد مقامه
فى قلعة الملك الإسكندر - المفضل من الشمس ، ابن الشمس ، التى تقع
على شاطئ البحر الايونى الكبير وكان اسمها من قبل راكوتى .

وبدراسة ما جاء بالوثيقة وتحليله ، يمكن ارجاع انتقال بطلميوس الاول
الى العاصمة الجديدة الى عام ٣٢٠ أو ٣١٩ ق . م ويكفى أن نعرف أن ،
بطلميوس لم يؤسس دار لسك العملة فى منف لندرك انه لم يفكر فى أن
تظل منف عاصمة للملكة . بل أن دار السكة اسست فى العاصمة الجديدة
بعد خمس سنوات تقريبا من تأسيسها . وقد اصدرت عملة الاسكندر الاكبر
فى اتقان فنى راق .

وسرعان ما تمت مدينة الاسكندرية وتطورت تحت رعاية البطالمة
واهتمامهم كما اصبحت مركزا للتبادل التجارى مع اليونان ومركزا ورمزا
لحضارة العصر الذى ابتداء الاسكندر . لكن ما من شك ان مدينة منف كان
فى العصر البطلمى اكثر العواصم الاقليمية تميزا فى مصر . لكن علينا الا
نغفل ان المصريين شعروا بالمرارة والحزن لانتقال العاصمة من مدينتهم
المصرية القديمة الى المدينة الجديدة التى اسسها الفاتح المقدونى . ولعل ذلك
مما ساعد على ازدياد تعصبهم ضد الحكم الاجنبى وقد ظل هذا شعورهم
طالما بقيت الاسكندرية عاصمة^(١) وقد بقيت منف رمزا للوطنية المصرية ،
واحسن تعبير عن الحالة النفسية للمصريين وعن مدى ما شعروا - من مرارة
وحزن لانتقال الناصحة والالهة من منف ، هذا الشعور الذى لازمهم طالما

بقيت الاسكندرية عاصمة ، ثم بوره لنا وثيقة بردية اشتهرت باسم « نبؤة

(1) The Cambridge Ancient History, vii. p. 115 .

صانع الفخار .

هذه وثيقة ديموطيقية تتضمن نبوءة اوحى بها الى فخرانى ونطق بها أمام أحد ملوك الاسرة ١٨ ، ولكن توجد لها تراجم يونانية متأخرة ترجع الى القرن الثانى والثالث الميلادى ^(١) . جاء بها اشارة طريفة توضح ان المصريين اصبحوا يتطلعون الى اليوم الذى تعود فيه الالهة الى منف جاء بها ^(٢) : سوف تصبح المدينة التى بجوار البحر مكانا يجفف فيه الصيادون شباكهم ، لأن الالهة سوف تغادرها الى منف .

هذه الفقرة تعبر أحسن تعبير عن مقدار ما شعر به المصريون من كراهية تجاه الاسرة البطلمية ، وعن الشعور القومى المصرى المضاد لليونانية ولعل هذا الشعور لازمهم طيلة العصر اليونانى والرومانى .

أولا - السياسة الداخلية للبطالمة :

بطليموس بن لاجوس حضر الى مصر فى صيف ٣٣٣ ق . م ليحكم بصفته واليا ، وفى عام ٣٠٥ ق . م اتخذ بطليموس لقب ملك ليصبح بذلك مؤسس دولة البطلمية فى مصر . واهم ظاهرة تتصف بها سياسته الداخلية والخارجية على حد سواء هى الحرص ، كما كان الغرور ابعد الاخلاق عن سلوكه وهاتان الصفتان من أهم ما يجب ان يتميز به رجل الدولة الذى يهدف الى انشاء دولة تبقى من بعده . وقد حرص كل الحرص على التمسك بولايته فى مصر وتجنب السعى وراء اطماع بعيدة مثل تولى السلطة العليا فى الامبراطور ولذلك عمل على تأمين حدود مصر سواء من

(1) Fraser, IBid p. 681 .

(2) U. p. z. 1. p. 363 .

الشرق أو الغرب أو الشمال وتتلخص سياسته الداخلية التي أتبعها في مصر
في أربعة نقاط رئيسية :

١- ان يحكم مصر حكما ملكيا مطلقا وهذا النظام الفه المقدونيون
والمصريون بل وادخل عليه عنصرا دينيا .

٢- اعتماد الدولة البطلمية الجديدة على العنصر الاغريقي والمقدوني في
الجوانب الحساسة للدولة كالجيش والاقتصاد والادارة .

٣- عدم التوسع في انشاء مدن يونانية جديدة لأن وجودها مع ماتمتع
يه من قد كبير من الحرية ممثلا في نظام دولة المدينة يتعارض ونظام الحكم
الملكي المطلق . مع الابقاء على المدن اليونانية الموجودة في مصر وهي
نقراطيس والاسكندرية وبرايتونيوم (مرسى مطروح) - باستثناء انشاء مدينة
يونانية جديدة تحمل اسم بطليموس وهي مدينة بطلمية (في سوهاج) .

٤- استحداث اله رسمي جديد للدولة البطلمية يجمع بين
الصفات الاغريقية والمصرية حتى يساعد على ربط وتوحيد
العنصرين ويقبل عليه كل من المصريين والاغريق معا . وكان هو اله
« سيرابيس » .

هذه كانت اسس السياسة الداخلية لبطليموس الاول وستبقى كما هي
حتى عصر خلفائه كما سيتضح فيما بعد .

مسلطة الملك :

أول مشكلة على الحاكم الجديد ان يحددها هي وضعه على رأس الدولة^(١) لقد كان بطليموس من اصل مقدوني وينتسب الى دولة عرفت الملك بل اتخذ لنفسه صفة الهية ايضا . والى جانب ذلك فان بطليموس قد اصبح على رأس دولة الفت حكم الملوك الالهية فى شخص فرعون منذ اقدم العصور فالملك المصرى القديم كان مصدر وحدة الدولة سياسيا ودينيا واجتماعيا واصبح بطليموس ملكا وفرعوناً لمصر منذ سنة ٣٠٥ ق . م واصبح يسمى بالملك الاله ابن الاله . ومارس السلطان الملكى المطلق ، فكان هو الرئيس الفعلى للدولة سياسيا ودينيا واجتماعيا .

اغرقه الحكم فى مصر :

قرر بطليموس الاعتماد على المقدونيين والاعريق فى جيشه وحكومته من اجل بناء مصر الجديدة . ولكن لايد لنا ان نقرر ان بطليموس الاول وسائر البطالمة من بعده لم يتبعوا سياسة تهدف الى اغرقه مصر أو نشر الحضارة الهلينية بين المصريين ، وانما كان هدفهم هو اثرة الجيش والادارة فقط .

لقد اجمع المؤرخون من أن البطالمة الاوائل - على الاقل - اعتمدوا فى بناء جيوشهم على المقدونيين والاعريق الذين تطوع بعضهم فى خدمة البطالمة ، املا فى الفوز بالمنح والامتيازات وكونت منهم الفرق النظامية وباع

(١) د / مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ وما بعدها .

د / ابراهيم نهشى ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها

البعض الآخر خدماتهم للملك مصر وكونت منهم الفرق المرتزقة ولاشك في أن البطالة الاوائل اعتمدوا الى اقصى حد على المقدونيين والاغريق ، لثقتهم في كفايتهم وبسالتهم في ميادين القتال. هذا الى جانب ان البطالة لا يستطيعون الاعتماد على المصريين ، أما لارتياهم في مقدرتهم الحربية أو لرغبتهم في الاينشلوا الامة المصرية من الاضمحلال الذى تردت فيه ، ذلك لأن الجيش فى كل دولة رمز حيويتها وعنوان مجدها . لكن لا بد من أن اولئك البطالة كانوا يخشون ايضا اغفال أمر الجنود المصريين كلبية وذلك لكى لا ينشر هؤلاء الجنود روح التذمر فى البلاد فيثور المصريون .

لكن للاسف من العسير علينا أن نعرف على وجه التحقيق الدور الذى قام به الجنود المصريون فى جيش البطالة قبل عصر بطليموس الرابع . لكن بين أحد المؤرخين⁽¹⁾ يحدثنا بأنه فى موقعة غزة ٣١٢ ق م كان جيوش بطليموس يضم عددا كبيرا من المصريين ، كان بعضهم يقوم باعمال النقل والبعض الآخر مسلحا ويمكن استخدامهم فى القتال ، وترينا وثائق الفرق الثالث محاربين مصريين فى حيازة كل منهم اقطاع مساحته خمس ارورات ويحدثنا بوليبيوس⁽²⁾ بأن تسليح المصريين فى عهد بطليموس الرابع كان عملا صائبا لكنه خطيرا يهدد المستقبل .

وإذا كان المصريون قد ادمجوا فى صلب الجيوش على عهد بطليموس الرابع ، فانهم كانوا يؤلفون فرقا مستقلة بهم ، واستمروا يكونون جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية القرن الثانى على الاقل ، بل حتى نهاية

(1) Diod. xlx. 80 . 4 .

(2) Polyb. v. 107, 1 - 3 .

القرن الثاني على الاقل ، بل حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو . فضلا عن ذلك فانه قد بقى للاجانب من رجال الجيش الغلبة فى العدد والمكانة والامتيازات (١) .

اذن يمكننا القول بان المقدونيين والاغريق كانوا خيرة جنود العصر وان منافس البطالمة كانوا يؤلفون جيوشهم من هؤلاء الجنود ، وان البطالمة بوجه عام والارائل منهم بوجه خاص كانوا يعتمدون فى تكوين جيوشهم على هذا الطراز من الجنود وانه اذا كان المصريون منذ عهد بطليموس الرابع قد ادمجوا فعلا فى الجيش وسلحوا بالاسلحة المقدونية فان الغلبة قد بقيت للاجانب .

فمن أجل هذا كان بطليموس فى حاجة الى اعداد كبيرة من المقدونيين والاغريق ولم تكن مصر - كما سبق القول - خالية منهم من قبل فان الحامية العسكرية التى تركها الاسكندر فى مصر كانت تتكون من هذه العناصر ، كما انه حين فتح بطليموس ولاية مصر ، لا بد انه احضر معه بعض فرق الجيش ، بالاضافة الى هذا كله فان مدينة نقراطيس كانت مركزا تجاريا يونانيا يقوم فى شمال غرب الدلتا منذ القرن السابع ق . م . ولكن الجيش البطلمى كان فى حاجة ماسة الى مزيد من الاف الجنود ، كما ان الاغريق المستقرين فى نقراطيس أو منف لا يمكنهم ان يمدوا بطليموس بحاجته الى الرجال لادارة جميع مرافق الدولة .

من اجل هذا كله اتخذ بطليموس سياسة ثابتة لتشجيع وتنظيم هجرة الاغريق الى مصر . فعنح الجنود فى جيشه قتلعا من الارض يمكنهم ان

(١) د . ابراهيم نصحي : تاريخ مصر عصر البطالمة ، ص ٧٥٧

يقيموا عليها ويستثمروها فى وقت السلم . وكذلك طبق مثل هذا النظام بالنسبة لموظفى الدولة ، خاصة وان نظام المرتبات النظامية لم يكن ممارسا فى ذلك الوقت .

فى عصر اشتد فيه الصراع والتناحر بين قواد الاممكندر غداة موته كل يحاول ان يقتطع لنفسه أكبر نصيب من الامبراطورية ويهدف الى تعميم مركزه فى المنطقة التى أصبح واليا عليها - ثم بعد ذلك ملكا عليها . فى ظل هذه الظروف كان طبيعيا ان يحمل كل من هؤلاء القادة على تكوين القوة العسكرية التى يستطيع ان يحقق بها اطماعه . ولذلك لم يكن غريبا ان يحاول بطليموس الاول ومن بعده خلفاؤه من البطالمة اقامة ملكهم على دعامة عسكرية قوية .

قوات البطالمة :

١- الجيش^(١) :

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التى اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الاخرى ليعتثوا تلك الامبراطورية من جديد، وان بطليموس الاول كان ينشد الاستقلال بمصر وبناء دولة قوية غنية فيها ، ولذلك رأى هذا العاهل ضرورة تكوين جيش واسطول قويين يمكنانه من الدفاع عن مملكته ومن تحقيق اهدافه الخارجية .

وقد اتخذ بطليموس من القوات التى كان الاسكندر قد تركها فى مصر

(١) د. ابراهيم نصحي، تاريخ الحضارة المصرية .

نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم . واذا كنا لانعرف كيفية تكوين الجيش البطلمي فاننا نعرف على الاقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتكون من ثلاث فئات رئيسية وهى : الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية . وتشير القرائن الى أن اكثر الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف انحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجه . ومع ذلك فان هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب أنها كانت فى الأصل كذلك ، وسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدونى ، ولاسيما أن الجيش كان يعتبر قبل كل شىء جيش الملك بطليموس . وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان وفرق المشاة ، وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين : أولاهما ارفع مكانة من الثانية . وقد كانت فرق المرتبة الاولى تميز بالارقام ، أما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تميز بحسب جنسية افرادها . وكانت فرق المشاة النظامية تميز بالارقام وتعتبر أقل مرتبة من فوق الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى ما قبل معركة رفح فى عام ٢١٧ ق . م .

وكانت فرق المرتزقة فى جيوش الاسكندر وخلفائه فئتين رئيسيتين : أما الفئة الاولى فتشمل تلك الفرق القومية التى كانت تحتفظ فى الجيش الذى تنضم اليه بملابسها وأسلحتها القومية وتمج فى ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذى اشتهرت به .

وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا باسم جنسيتها وأحيانا بالاسمين معا . أما الفئة الثانية فانها كانت تتكون من أولئك الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة أما من بين مواطنيهم وأما من اسواق الجنود المعروفة فى العالم الاغريق . وكان

يمكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة أو فرسانا ، وإذا كان الجنود المرتزقة لا يتعاقدون في الأصل الا على القيام بحملة واحدة ضد عدو معين فانه فيما يبدو أصبح بعض الجنود المرتزقة يكونون فرقا دائمة في خدمة البطالة .

وحين حضر بطليموس الى مصر وأخذ يشيد فيها صرح مملكته كانت لا تزال توجد تلك الطبقة الوريثية من المحاربين المصريين . ومن ناحية أخرى كانت تحت امره منافس البطالة جيوش وأساطيل مؤلفة من خيرة جنود العصر وهم المقدونيين والاغريق ، الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس .

ولاشك في أن البطالة الثلاثة الأوائل اعتمدوا الى اقصى حد في تكوين جيوشهم على المقدونيين والاغريق لشقتهم في كفايتهم ، ولخوفهم من الا يخلص المصريون الطاعة لهم ، ولرغبتهم في عدم استنهاض همة المصريين وانعاش روحهم القومية ، فالجيش في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة النابض ، ولكن لا بد أن أولئك البطالة كانوا يخشون أيضا اغفال أمر الجنود المصريين . وذلك لكيلا ينشر أولئك الجنود روح التذمر في البلاد .

ولكن البطالة الثلاثة الأوائل لم يسرحوا الفرق المصرية لكنهم كانوا لا يعتمدون عليها في القتال بل يعهدون الى بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الاعمال ، ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتها المصرية العتيقة استه نادا المطواريء . الى أن تهددت بطليموس الرابع أزمة خطيرة في وقت قتل فيه الرجال في بلاد الاغريق ، ونقص فيه عدد الجنود

الاجانب الذين كان البطالة قد أنزلوهم فى مصر ، فاضطر بطليموس الرابع لمواجهة هذه الأزمة ، الى تدريب المصريين وتسليحهم مثل الاغريق والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم . والخطر الكامن فى هذا الموقف هو ان انتصار المصريين فى معركة رفح على جيش انطيوخوس المؤلف من الاغريق والمقدونيين أشعل روح الوطنية فى صدور المصريين وأعاد اليهم الثقة بأنفسهم بافتتضوا ثائرين على البطالة .

واذا كان المصريون قد أدمجوا فى صلب الجيش على عهد بطليموس الرابع فانهم كانوا يؤلفون فرقا مستقلة بهم واستمروا يكونون جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة البطالة فيما يبدو . ولا بد من أن ثورات المصريين على البطالة الأواخر قد جعلت هؤلاء البطالة يأسفون على تدخل المصريين فى الجيش ، وذلك لأنهم لم يعتمدوا ثانية على المصريين فى تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجروا على اخراج المصريين من الجيش .

٢- الأسطول :

لما كان البطالة الاوائل قد بنوا امبراطورية بحرية واسعة واحرزوا انتصارات بحرية كبيرة ، فلا سبيل الى الشك فى انه كان لهم أسطول بحرى قوى ، لكن ليست لدينا معلومات عن كيفية تكوين هذا الاسطول ولا عن قوته فى العهود المختلفة .

وحيث ان البطالة الاوائل قد وصفوا كل اعتمادهم على المقدونيين والاغريق فى تكوين موانهم البرية فلا بد من انهم فعلوا الشيء نفسه فى تكوين قواتهم البحرية ، وعندما أدمج البطالة المصريين فى صلب الجيش منذ

عهد بطليموس الرابع . لا يوجد أنهم فعلوا ذلك إلا في الاسكندرية . وذلك فاننا نعتقد أنه كما كان الحال في الجيش ، كان كذلك جنود البطانة وأرفعهم مقاما حتى بعد عهد بطليموس الرابع . من الاغريق القدماء :
المسند اليونانية :

حيثما وجد الاغريق في اعداد وفيرة كونوا لانفسهم مدينة على نمط المدن اليونانية . وهكذا فعلوا في مستعمراتهم المختلفة في انحاء البحر الابيض المتوسط . وهكذا حاول الاسكندر ان يفعل حين خرج يبشر بالحضارة الهلينية في الشرق . وهكذا ايضا فعل خلفاؤه في سوريا واسيا الصغرى وذلك لأن الاغريق كانوا قد القوا هذا النوع من الحياة واعتبروا نظام المدينة اليونانية اسما صور المجتمع الانساني ولكن بطليموس الاول لم يؤسس المدن المختلفة في انحاء مصر ليقم فيها الاغريق وانما انتهج سياسة محافظة في هذا الاتجاه فابقي على المدن اليونانية التي كانت موجودة وهي نقرطيس - فالاسكندرية التي كان الاسكندر قد اسسها ولم ينشئ هو من المدن الجديدة سوى واحدة في اعلى الصعيد هي بطلية . ولعل الهدف - الاصلى في انشائها هو ان تكون مركزا لحاميته للدفاع عن الجنوب ، ووجدت مدينة رابعة هي برهوتيوم .

أما عن السبب وراء هذه السياسة فيرجع الى ان نظام المدينة اليونانية كما عرفه الاغريق يعنى ان يكون للمدينة كيان سياسى مستقل . وقد ألف الاغريق القدماء هذا النظام بحيث أنهم لم يتصوروا

(١) د . مصطفى الحياوي ، مصر من الاسكندر الاكبر ص ٤٨ وما بعدها .

د . ابراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالة ص ٢٦٧ وما بعدها .

Jones : Cities of the Eastern Roman Provinces, pp 302ff

وجودا للمجتمع الانسانى خيرا من نظام دولة المدينة ، ولهذا أوجدوا لانفسهم مدنا بهذا الشكل حينما تجمه منهم عدد يكفى لانشاء مدينة .

وهكذا فعلوا فى وطنهم الاصلى ، وهكذا فعلوا حين هاجروا للخارج واستقروا على سواحل البحرين الابيض والاسود بحثا عن الرزق فى القرنين الثامن والسابق ق م وكانت نقراطيس اول مدينة اسسها الاغريق فى مصر فى الجزء الاخير من القرن السابع ق م ولما حضر الاسكندر الى مصر اسس الاسكندرية فى عام ٣٣١ ق م بعد ذلك زاد بطليموس الاول عليها مدينة ثالثة هى بظلمية اعلى الصعيد المصرى .

ووجدت مدينة رابعة عرفت باسم بريتونيوم عند موقع مدينة مرسى مطروح الحالية . ولكننا لانكاد نعرف شيئا عن نشأتها أو تاريخها فى عصر البطالمة ونسمح عنها لأول مرة فى العصر الرومانى باعتبارها مدينة يونانية معترفا بها .

ولقد كان انشاء المدن الاغريقية فى مصر أمرا لامندوحة عنه ، لأن المدينة (Polis) كانت البيئة الاساسية لحياة الاغريق العامة ، اذ أن الاغريق تشبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هى النظام الطبيعى الوحيد الذى يستطيع أن يعيىش فى كنفه الرجال الاحرار . ذلك أن نظم المدينة الحرة كانت تكفل مواطنيها حرية القول والعمل ، وتتيح لهم المشاركة فى ادارة دفة شؤونها ، وتوفر لهم من أسباب الحياة ماهر خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . ومن ثم فان المدينة كانت فى نظر الاغريق تعبير عن كل ما تشمله حياة الانسان وواجبه نحو الجماعة ، أو بعبارة أخرى عن اتحاد النوع الانسانى لغاية مشتركة ، هى وحدها التى تستطيع ان تبرز وتستغل انبل الغرائز واقدس

الكفريات فى كل فرد حر . ولذلك فإن الاعريق كانوا ينشئون مدينة لأنفسهم ، حيثما نزلوا فى مكان واتخذوه مستقرا دائما لهم ، ومثل ذلك المستعمرات العديدة التى أنشأوها على شواطئ البحر المتوسط والبحر الاسود فى « عصر الاستعمار » (القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) . وقد كانت هذه المستعمرات مدنا تكون كل منها دويلة مستقلة ، حتى عن المدينة الاصلية التى نزع منها اولئك المستعمرون ، اذ أنه لم تكن تربطهم عادة بوطنهم الاصلى سوى روابط دينية وروحية .

وفى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما صمم الاسكندر الاكبر على فتح الشرق ، نادى بأنه يقوم بهذه الحملة بوصفه القائد الاعلى لعصبة المدن الاغريقية ، ومن أجل خدمة الحضارة الهلينية . ولذلك فانه عندما كون امبراطوريته الشرقى ووجد فى الاقليم التى اخضعها لسلطانه مدنا اغريقية ، سمح لهذه المدن بالبقاء ، اللهم الا اذا استثنينا بعضها التى دفعته اسباب خاصة الى القضاء عليها ، ولم يجد الاسكند وسيلة لنشر الحضارة الاغريقية بين ربوع امبراطوريته ، افضل من انشاء مدن اغريقية جديدة فى اماكن عنى باختيارها .

وعندما تداعت امبراطورية الاسكندر ، وقامت على انقاضها ممالك كانت تضم بين جوانبها مدنا اغريقية ، وجد مبدآن متعارضان وهما : مبدأ السلطة الملكية ومبدأ استقلال المدن . ولم يكن هناك مفر من أن تفقد هذه المدن جانباً من استقلالها ، وتصبح خاضعة لسلطة الملك ، فلم تعد دولا مستقلة بل أصبحت جزءاً من دولة أكبر منها ، لكن المدن لم تفقد حتى ادارة نفسها ، أو بمباراة أندريوس . ولم يسعها باستقلال ذاتى . وقد كان هذا

التي كانت تزايد السكان أدم فارق دور الاغريقيين من المصريين و على أساطير الله
الاغريقيين يعيش في المدن (Kata polis) ويشترك في حكم الجماعة التي
ينتمي اليها ، وأما القرى فانه يعيش في القرى (Kata Komai) ولا يتبع
بأى نوع من انواع الاستقلال ، بل يخضع لأوامر حاكم موفد من قبل
السلطة المركزية .

وتعل الاسكندر كان يدلل الأمل بأنه سيحيى يوم في المستقبل الجيد ،
يمتزج فيه الشرقيون والغربيون ويكونون شعبا واحدا ، يعيش في المدن على
النمط الاغريقي تحت سلطة خلفائه ، وذلك نتيجة لمجهودات الاغريق في
سبيل تقدم المبادئ التي قامت عليها حضارتهم ، واقبال الشرقيين رويدا
رويدا على المساعدة في الحياة السياسية ، بتأثير المدن الاغريقية المنتشرة بين
أرجاء الامبراطورية ، التي أن تندمجوا في هذه المدن تدريجيا . لكن هذا الأمل
لم يتحقق في أغلب اقاليم العالم ، الا في عهد الرومان ، الذين كانوا ورثة
الاغريق في الشرق ، ففي مصر مثلا لم تنبت بذور الاستقلال المحلي التي
غرسها هناك فتح الاسكندر ، الا في خلال القرن الثالث بعد الميلاد⁽¹⁾ .

وقد عرفنا أنه عندما قدم الاسكندر الى مصر وجد بين جبايتها مدينة
اغريقية قديمة ، هي مدينة نقراطيس التي تأسست في عهد الاسرة السادسة
والعشرين ، وكانت بمثابة دولة اغريقية داخل الدولة المصرية . ومعى عرفنا ما
كانت عليه هذه المدينة من التواء ، إذ أنه كانت في قبضتها تجارة مصر مع
دول البحر المتوسط ، فالتوا لا تدهش اذا كان الاسكندر قد فكر لحظة في أن

(1) Jonguet, La Vie Municipale en L'epoque Romaine, pp. L. II.

يجعلها العاصمة الجديدة⁽¹⁾. لكنه اذا كانت هذه الفكرة قد دارت بخلد الاسكندر، فلاشك في أنها كانت فكرة عابرة ، لأن نقراطيس كانت بعيدة عن البحر ولا تتصل به الا عن طريق أحد فروع النيل ، ولأن ثراءها يعمزى قبل كل شيء الى عدم وجود موانئ هامة على شاطئ البحر في هذه الناحية ، فلم يكن هناك مفر من أن نفقد نقراطيس اهميتها الاولى يوم تقوم مدينة كبيرة على شواطئ البحر المتوسط ، وهو الذي كانت تتجمع حول حوضه دول العالم المتمدنين . وقد اثبتت الايام صحة هذا الرأي ، لأن عصر نقراطيس الذهبي أخذ ينحسر تدريجيا منذ أن أنشأ الاسكندر مدينته التي خلدت اسمه على تعاقب الاجيال . واذا كان الاسكندر قد شيد الاسكندرية لتكون منبع الحضارة الاغريقية في مصر ، وتقضى على نفوذ العاصمة المصرية القديمة منف ، فان بطليموس الاول أنشأ بطليموس في أقاصى الصعيد لتواجه طيبة ، العاصمة المصرية الخالدة التي شهدت أزهى عصور الفراعنة .

ولقد ضمت امبراطورية البطالمة بين انحائها مدنا اغريقية كثيرة ، الا أنه لم يوجد في مصر نفسها في خلال القرون الثلاثة التي تربع فيها البطالمة على عرش مصر سوى هذه المدن الثلاث التي ذكرناها . لكن وثيقة من القرن الثاني للميلاد قد أرحت بالفرض القائل بأن بارايون نيون paraetion

(1) Mahaffy, Empire, pp. 10 - 11 .

= مرسى مطروح) كانت مدينة كذلك ^(١) ، قيل أن الاسكندر أسسها ^(٢) غير أننا فى الواقع لانكاد نعرف عنها شيئا ^(٣) . واذا كان بعض المؤرخين الحديثين يزعمون أن لوثوبوليس (أسيوط) وهرموبوليس ماجنا (الأشمونين) كانتا أيضا مدينتين أغريقيتين ، فلاشك فى أنهم قد أساءوا فهم الوثائق التى بنوا عليها زعمهم ^(٤) .

ومما يجدر بالملاحظة أن المستعمرات التى أنشئت لتعمير مديرية الفيوم واستقرار جنود البطالة فيها لم تكن مدنا اغريقية ، بل كانت قرى أسكن فيها الاغريق وغيرهم من الاجانب مع المصريين ، فكانت حالهم شبيهه بحال الاغريق الذين استوطنوا فى منف ^(٥) أو فى غيرها من المدن والقرى المصرية .

واذا كان السلوقيون قد أنشأوا فى امبراطوريتهم مدنا اغريقية أكثر عددا مما أنشأه البطالمة فى امبراطوريتهم ، فان اعظم المدن السلوقية شأنًا لم تضارع الاسكندرية من قرب أو بعد ، هذا الى أن القرائن توحى بأن حظ المدن السلوقية من الاستقلال الذاتى لم يكن أوفى من حظ الاسكندرية أو نقرطيس أو بطوليس . وازاء ذلك يبدو أن الباعث على قلة منشآت البطالمة وكثرة منشآت السلوقيين كان طبيعة ظروف امبراطورية كل من الفريقيين .

-
- (1) Reinach, T., Un Code fiscale de l' Egromaine, 1920 - 1, p. 88.
(2) Grenf. and Hunt, Oxyr. Pap., I, 12 (col. 5) ; Pseudo - Callisth., I, 31.
(3) Jouguet, Mac. Imp., p. 305; Jones, Cities of Eastern Roman Provinces, 1937, Oxford, p. 307.
(4) Jouguet, Vie Municip., 5 ; Bouche-Leclercq, III, p. 143.
(5) Bouche -Leclercq, III, p. 143.

ومعارفنا طسيفة عن المدن الاغريقية فى مصر . اذ أننا لانكاد نعرف شيئا عن نقراطس فى عصرى البصالة والرومان ، ولا نعرف الا النزر اليسير عن الاسكندرية وبطوليس ، وما نعرفه عن احدى هذه المدن يصيب تطبيقه عادة على غيرها لعدم توافر الادلة لدينا ، ولا سيما ان ما نعرفه عن موقع هذه المدن ومظهرها الخارجى يدفعنا الى الشك فى أن الحياة العامة فى هذه المدن كانت تخضع دائما للقوانين نفسها . ومع ذلك فانه يبدو أن المدن الاغريقية فى مصر كانت تتفق فى ظاهرتين على الاقل ، وهما وجود هيئة مواطنين فى كل منها ، وتمتع هؤلاء المواطنين بحق امتلاك الاراضى فى اقليمها امتلاكا حرا⁽¹⁾ ، وهو حق لم يتمتع به أحد فى مصر خارج هذه المدن فى خلال القرن الثالث على الأقل ، على نحو ما سنرى فيما بعد .

نقراطيس

مظهرها الخارجى وأقليمها :

ويرى « جوجيه »⁽²⁾ أن نقراطيس لم تختلف كثيرا فى مظهرها الخارجى عن أى بلد مصرى ، وأنها كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن ، على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة . وأما « لويس مفورد » فانه يرى أن تخطيط نقراطيس كان يتسم بسمات خاصة من النظام والتناسق . ويبدو من سياق حديثه أنه يرى أنها خططت وفقا للتخطيط الشبكى الذى نشأ فى « ميلتوس » التى وفد منها مؤسسو نقراطيس⁽³⁾ .

(1) Cf. Jouguet, Mac. Imp., pp. 303 .

(2) Jouguet, Vie Municip., p. 6.

(3) لويس مفورد ، المدنية على مر العصور ، ص ٣٤٣ وما بعدها القاهرة ، ١٩٦٤ .

ويبدو أن اتساعها لم يزد على ٨٠٠ متر في الطول و٤٠٠ متر في العرض ، وأنه لم تحط بها أسوار ، لأن الفراغنة كانوا لايسمحون للجانب بأن يستقروا في مكان منيع بل أنهم وضعوا في هذه المدينة حامية مصرية .

وكانت المدينة الأغرريقية عادة لاتشمل المدينة فحسب ، بل تشمل كذلك اقليما زراعيا خارج حدودها . ولايعد أن ذلك كان أيضا حال كل المدن الاغرريقية في مصر . ولعل اقليم نقراطيس كان ما يطلق عليه في قوائم اسنا اسم مديرية نقراطيس . وقد كانت نقراطيس تقع في مديرية سايس ، غير انه لاسبيل الى الشك في أن هذه المدينة الاغرريقية كانت مستقلة عن تلك المديرية ^(١) .

وقد مر بنا أن تجار ميلتوس أسسوا هذه المدينة ، حوالي مطلع القرن السابع قبل الميلاد ، على فرع النيل القانوني قرب قرية كوم جعيف الحديثة بمركز اتيامى البارود ، وأنها أصبحت في عهد أماسيس المقر الوحيد للتجار الاغريق . وقد أسهم في عمران هذه المدينة في عهد اماسيس اغريق من جزيرة ايجينة ومن المدن والجزر الأيولية والأيونية والدورية في شرق بحر أيجة وشاطئ الأناضول الغربى ^(٢) . ويلوح مما نعرفه عن أصل هذه المدينة أن أهلها كانوا ينقسمون منذ البداية الى طبقات لكل منها حقوق مختلفة ، إذ أنه يبدو مما كتبه هرودتوس ^(٣) أنه كان يفرق في نقراطيس بين الاغريق المستوطنين الذين أعطاهم أماسيس المدينة ليتخذوها وطنا لهم ، وبين الاغريق

(1) Cf. Jouguet, Vie Municip p. 8.

(3) Wilcken, Grundzuge, I, p. 12.

(4) Herod, II, 178.

الذين لم يستقروا فيها بصفة دائمة ، غير أن أماسيس منحهم أماكن ليقيموا فيها مذابح بهياكل ، ومعنى هذا أنهم لم يكونوا زائرين عابرين فقط ^(١) . وقد كان الهلينيون (Hellenion) أحد هذه الهياكل ، وأسهمت في نفقات تشييده المدن الأيونية خيوس وتيوس وفوقايا (Phocaea) وقلاترومي والمدن الدورية ليندوس (Lindos) وبالوسوس (Jalysos) وخاميروس ^(٢) (Chamiros) وقيندوس وهاليقارناسوس وفاسيليس (Phaselis) ، والمدينة الأيولية موتيليني (Mytilene) . وكانت توجد كذلك هياكل منفصلة لاغريق ميلتوس وايجينة ، ويحتمل أيضا لاغريق فوريناثة . ومن المؤكد أن أصحاب الهلينيون أنشأوا أيضا سوقا عامة ، هي التي كان يشرف عليها «مراقبو السوق» (Prostatai tou emporiou) وكان ينتخبهم ، على الأقل بادية الأمر ، أولئك الاغريق الذين أسسوا الهلينيون والسوق العامة . ولاشك في أنه كانت توجد كذلك أسواق خاصة لأهلى ميلتوس وايجينة وساموس لم تكن خاضعة «لمراقبي السوق» . ويظن أيضا أن هؤلاء المراقبين لم يكونوا بين حكام المدينة ، بل كانوا نوعا من القناصل التجاريين يقيمون دائما في المدينة ^(٣) .

ولا بد اذن من أن النقراطيسيين كانوا يكونون جماعة منفصلة عن أولئك السكان غير الدائمين ، ويحتمل أنهم كانوا بادية الأمر يكونون وحدهم هيئة المواطنين الذين يتمتعون بحقوق المواطنة . واذا كان يبدو أن

(1) Jouguet, Vie Municip., p. 23 .

(٢) يذكر هرودوتوس رودس بدلا من ليناوس وبالوسوس وخاميروس ، لكن لا بد من أنه كان يقصد هذه المدن الثلاث ، لأنه عندما زار مصر فوجها بين عامي ٤٤٨ و ٤٤٥ لم تكن دولة رودس قد تأسست بعد .

(3) Jouguet, Loc, cit.

المستعمرين الأصليين من أهل ميلتوس وسلالتهم كانوا يكونون نواة مواطني
نقراطيس ، فانه يصعب علينا أن نعتقد أن الجماعات القومية المختلفة التي
أسست الهلينيون والسوق العامة لم تكتسب بمضى الزمن أهمية كبيرة في
حياة المدينة ، وأن « مراقبي السوق » لم ينته بهم الأمر بأن أصبحوا في عداد
حكام المدينة . واننا في الواقع لنستشف من عبارات هرودوتوس اتجاهين
متضادين : كان أحدهما انفصال هذه الجماعات عما عداها ، والآخر نحو
ادماجها في المواطنين الأصليين . اذ لاشك في أننا عندما نقرأ في
هرودوتوس أن حق اختيار « مراقبي السوق » كان مقصورا على المدن التي
أنشأت الهلينيون ، نستخلص أن ذلك كان رجع الصدى لأصوات اغريق
الهلينيون ، كما نستخلص أن الأغريق الآخرين في نقراطيس ، وقد بهرهم
ثراء السوق العامة ، كانوا يطالبون بالاسهام في ادارتها ، فبدأ على هذا النحو
تطور لانستطيع أن نتتبع ادواره ، وان كنا لانستبعد أنه انتهى بالتآلف بين
مختلف القوميات الاغريقية هناك ، وبعدم قصر السوق العامة على فئات
بعينها ، ومن ثم فإنها أصبحت سوقا عامة للمدينة بأسرها . ولا بد من أن
تآلف هذه العناصر المتباينة لم يتم دون أن يترك وراءه أثرا ، ودون أن يؤدي
الى تقسيم السكان الى طبقات ، غير أن المعلومات التي لدينا قليلة الى حد
أننا لانعرف اذا كان يوجد بين النقراطيسيين مواطنون يتمتعون بحقوق
المواطنة كاملة ، وآخرون لا يتمتعون الا ببعض هذه الحقوق . ويستبعد بعض
المؤرخين أن المواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وعشائر ، بحجة أن
نقراطيس أسست قبل أن يتكرر قلايستثيس (Cleisthenes) هذا النظام
الذي نقلته المدن الأخرى عن أثينا⁽¹⁾ . بيد أنه اذا كان هذا السبب لانهض

(1) Wilcken, op. cit., p. 13.

دليلا على أن نقراطيس لم تقتبس هذا النظام بعد وجوده ، فانه على كل حال لا يوجد أى دليل على وجود هذا النظام فى نقراطيس ، وان كان يستخلص مما عثر عليه هناك من العملة الأثينية والآنية الفخارية الأثينية أن الأثر الأثينى كان يسود نقراطيس فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد^(١) .

وقد جمع أثيناسيوس^(٢) بعض ما كتبه المؤرخين عن نقراطيس ، مسقط رأسه ، فوجد أن شخصا يدعى هرمياس يحدثنا عن وجود حكام فى نقراطيس يدعون تيموخوى (Timouhoi) ، كما يحدثنا عن الولايم التى كانت تقام فى دار اليروتانيون ، مما يدل على أنه كان يوجد أيضا بروتانيس (Prytaneis) . وكلمة تيموخوى اصطلاح كان مستعملا فى لغة الادارة فى مدن آسيا الصغرى الأيونية ومستعمراتها^(٣) ، فقد وجد هذا الاصطلاح فى تيروس^(٤) وسينوب^(٥) وماسيليا^(٦) . ويحتمل أنه كان يقصد بهذا الاصطلاح أعضاء مجلس ارستقراطى شبيه بمجلس ماسيليا ، حيث كان يشرف على هذا المجلس لجنة مؤلفة من خمسة عشر عضوا يعهد اليهم بتصريف الشؤون العادية . وكانت هذه اللجنة تختار من بينها ثلاثة لادارتها ، يتمتع أحدهم بسلطة شاملة . لكننا لانعرف هل كان أعضاء لجنة

(1) Rostovtzeff, Soc, and Ec., p. 89.

(2) Athen. IV, 149d - 150 b.

لكن راجع :

Lumbroso, Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei, XI, p. Jouguet, Vie Municip., pp. 24, 475.

(3) Jouguet, Vie, p. 37.

(4) O.G.I. S., 309, 1, 12.

(5) Ditenberger, Syllogue, 603.

(6) Bouche- Lecl, III. p. 145, fn. 1.

لخمسة عشر وأعضاء لجنة الثلاثة يحملون أيضا لقب تيموخوى أم أنهم كانوا يدعون بروتانيس ، غير أننا نرجح أنهم كانوا يحملون اللقب الأخير وذلك بسبب طبيعة عملهم . ويؤيد هذا الرأى ما نستخلصه من رواية هرمياس عن وجود تيموخوى وبروتانيس فى نقراطيس ، لكننا لانعرف اذا كان يوجد فى نقراطيس الى جانب مجلس التيموخوى لجنتان مثل ما كان يوجد فى ماسيليا . واذا صح أن هرمياس هذا هو هرمياس من مشومنى (Methymne) ، معاصر افلاطون ⁽¹⁾ ، فان ما رواه عن نظم نقراطيس ينصب على فترة سابقة على عصر البطالمة . ومع ذلك فان الوثائق البردية تشير الى أن نقراطيس احتفظت فى عهد البطالمة بنظمها القديمة ⁽²⁾ ، بل أنها كانت تسك عملة خاصة بها فى خلال الفترة الواقعة بين وفاة الاسكندر الاكبر واتخاذ بطليموس الاول لقب ملك ⁽³⁾ . ونعترف أن بطليموس الثانى اهتم بتجديد معالم هذه المدينة ⁽⁴⁾ ، وأنه كان لا يزال لها شأن كبير فى القرن الثانى ، فقد أسلفنا أنه عندما غزا أنطيوخوس الرابع الدلتا وحاصر الاسكندرية اهتم بكسب ود نقراطيس فوزع الهبات على مواطنيها ⁽⁵⁾ . ولاشك فى أن كل ذلك ينهض دليلا على أن هذه المدينة كانت موضع عناية البطالمة ورعايتهم .

ونستخلص من وثيقة ⁽⁶⁾ يبدو أنها من عصر بطليموس الرابع فيلوباتور أو بطليموس السادس فيلومتور ⁽⁷⁾ ، أن نقراطيس كانت لاتزال تتمتع بشيء من

(1) Bouche - Lecl, III p. 145, fn. 1.

(2) P. Paris, 60 bis, I. IC; Cf. Lumbroso, Recherches, p. 222.

(3) Bevan, p. 90.

(4) Petrie, Naucratis, I, pp. 8. 26.

(5) Polyh., XXVIII, 20, 10 .

(6) O.G.I S., 120, Petrie, Naucratis, I, p 63, pl XXX, 3 .

(7) Jouguet, Vic, p. 475

الاستقلال الذاتى فى عصر البطالمة ، لأننا نرى فى هذه الوثيقة أن مدينة
نقراطيس تمنح مراسم التشريف لكاهن الألهة أئينا ، وكان يجمع بين
وظيفته الدينية ووظيفة حارس العقود (Syngraphylax) فى هذه
المدينة ⁽¹⁾ .

واننا لانعرف كيف نظمت علاقة نقراطيس بالسلطة المركزية ، لكنه
لاشك فى أنه مهما يكن حظ هذه المدينة والمدينتين الاغريقيتين الأخرين فى
مصر من الاستقلال الذاتى فى ادارة شؤونها المحلية ، فانها كانت جميعا
تخضع لسلطة الملك . ولضمان ذلك اتخذت وسائل شتى ، سنحاول التعرف
عليها عند الكلام عن الاسكندرية وبطوليس . وكل ما نعرفه فى هذا الصدد
عن نقراطيس مستقى من نقش ⁽²⁾ من عهد بطليموس الرابع ، وصف فيه
شخص يدعى قومون (Comon) بأنه أويقونوموس (Oikonomos)
نقراطيس ، وهو اللقب الذى سنرى أنه كان يطلق على موقف كبير من
موظفى الادارة المالية المركزية فى المديرىات . وقد يؤدى هذا الى الافتراض أن
البطالمة وضعوا السلطة المحلية فى المدينة تحت اشراف مندوب للادارة المالية
المركزية هناك ، لكنه من المحتمل أيضا أن قومون لم يكن الا موظفا محليا
أى أحد موظفى البلدية ، أو أنه كان حقا مبعوث الادارة المالية المركزية ، غير
أن مهمته كانت مقصورة على العناية بشئون الحامية فى نقراطيس ⁽³⁾ .
ولعل البطالمة قد اكتفوا بوجود هذه الحامية فى نقراطيس لضمان خضوعها
لسيطرتهم .

(1) Bouche- Leclercq, III, p. 145 .

(2) Strack, n0 57 .

(3) Bouche- Leclercq, III, p. 145 .

ويستدل على احتفاظ نقراتيس بنظمها حتى العصر الروماني بأن الامبراطور هادريانوس اتخذ في القرن الثاني من هذه النظم نموذجا احتذاه في انشاء مدينة أنطينووبوليس^(١) (الشيخ عبادة على الضفة الشرقية للنيل أمام الروضة بمركز ملوى فى محافظة المنيا) .

وتحدثنا وثيقة من القرن الثاني للميلاد^(٢) بأن قوانين نقراتيس كانت لاتعترف بشرعية الزواج بين الاغريق والمصريين . ويرجح المؤرخون الحديثون ان هذه القوانين التى ترمى الى الاحتفاظ بالعنصر الاغريقى نقيا خالصا ، كانت قائمة كذلك فى عصر البطالمة بل منذ انشاء المدينة^(٣) .

وقد انتقص تأسيس الاسكندرية من الأهمية التجارية التى كانت تتمتع بها نقراتيس ، لكن ما وجد بين اطلالها من الأنية الفخارية الكثيرة المصنوعة فى الخارج يرينا أن هذه المدينة كانت مزدهرة فى عصر البطالمة^(٤) . ومرد ذلك الى أن نقراتيس كانت المركز الرئيسى على الطريق البرى بين بلوزيون والاسكندرية^(٥) ، وكذلك الميناء الرئيسى على الطريق المائى بين منف والعاصمة .

وإذا كانت نقراتيس قد احتفظت فى عصر البطالمة بنظمها كمدينة اغريقية ، فانها احتفظت كذلك بتقاليدها فى حلبة الثقافة الاغريقية ، ولا أدل على ذلك من عدد رجال الأدب الاغريق الذين أنجبتهم فى عصرى البطالمة والرومان^(٦) . لكن صبغتها الاغريقية العامة لم تحل دون وجود

(1) Jones, op. cit., p. 303 .

(2) Wilcken, Grundzuge, no. 29 .

(3) Wilcken, Grundzuge I, p. 13; Jouguet, Mac, Imp., p. 323

(4) Petrie, Naucratis, I, p. 8.

(5) Edgar, Annales, XXII, p. 6 .

(6) Bevan p. 90 .

عناصر مصرية هناك ، ونستدل على ذلك من بقايا المعبد المصري التي
كشفت عنها هناك^(١) . ولاشك في أن المصريين المقيمين في نقرطيس لم
يعتبروا بين مواطنيها ، على نحو ما سنرى أنه كان حال المصريين في
الاسكندرية وبطوليس أيضا .

الاسكندرية

على بعد حوالي أربعين ميلا من نقرطيس في الاتجاه الشمالي الغربي ،
وعلى مسافة بضعة أميال غربي فرع النيل القانوي ، اختار الاسكندر البقعة
التي شيدت عليها مدينة الاسكندرية ، وهي تقع على ذلك الشريط من
اليابسة الذي يفصل البحر عن بحيرة مريوط^(٢) . ويبدو أن الاسكندر اختار
هذه البقعة القانوي لجفافها وارتفاعها عن مستوى الدلتا ، وبعدها عن
رر سب فرع النيل القانوي ، وسهولة وصول مياه الشرب اليها ، وذلك
فضلا عن قرب جزيرة فاروس^(٣) وبحيرة مريوط منها . فقد قدر الاسكندر أنه
بمد جسر من الجزيرة الى الشاطئ يمكن توفير مرفأين في هذا المكان ،
يستخدم أيهما تبعا لاتجاه هبوب الريح ، وأن البحيرة يمكن استخدامها مرفأ
للمراكب الآتية من داخل البلاد عن طريق النيل^(٤) . وجملة القول أن
الاسكندر أدرك تماما أبرز ما اتسمت به هذه المنطقة من مميزات جعلتها
أفضل مكان على الشاطئ لإنشاء مدينة كبيرة^(٥) .

(1) Bevan, p. 91; Marion Smith, Naukratis, Journ. Soc. Or. Res, 10,
1926, pp. 119 - 226; Gunn, J.E.A., 29, 1943, pp. 55 - 9 .

(2) Arrian, III, 1 ff.

(٣) كانت فاروس تقع شمال الاسكندرية بعدو ميل ويبلغ طولها حوالي ثلاثة أميال ويقول هيرودوس
أنه كان يوجد بها مرفأ صغير .

(4) Hogarth, Alex. in Eg., J.E.A., II, 1912, pp. 313 Joumet, Mac
Imp., p. 278.

(5) Fraser, I, p. 5 .

ولعل وجه الشبه بين موقع جزيرة فاروس تجاه الشاطئء الدلتا وموقع صور^(١) على جزيرة تجاه الشاطئء الأسيوى هو الذى لفت نظر الاسكندر^(٢) الى ما يتوافر لموقع الاسكندرية من مميزات^(٣) ، فقرر على الفور انشاءها دون تدبير سابق ، بدليل ما ترويه المصادر القديمة عن عدم توافر كمية كافية من الجير لتعيين مواقع الأجرور أو المعابد وأوار المدينة والاستعانة بالجوبه المخصصة لمؤنة الجنود لانتمام التخطيط مما اعتبره فالا سعيدا ينم عما ستصيه المدينة من الرخاء والرأهية^(٤) .

وما الذى حدا بالاسكندر الى تأسيس الاسكندرية ؟ هل أراد أن يجعل هذه المدينة مقر امبراطورية تتألف من عالم البحر المتوسط ؟ نحن لانستبعد على الاسكندرية أية مشروعات انشائية ، لكننا نستبعد عليه التفكير فى قصر امبراطوريته على هذه الدائرة الضيقة فقد كان هدفه الاستيلاء على آسيا ، بل على العالم فيما يبدو^(٥) . أم هل فكر فى جعل الاسكندرية مقر امبراطوريته ؟ ونحن نستبعد ذلك أيضا لأنه لو قصر امبراطوريته على العالم الاغريقى والامبراطورية الفارسية ، لكانت بابل بحكم موقعها أفضل من الاسكندرية للاضطلاع بهمة المهمة . ولو صح ما قيل من أنه كان يريد فتح الغرب

(١) كانت صور تقع على جزيرة تجاه الشاطئء الأسيوى ومن أجل فتحها اضطر الاسكندر الى تشييد جسر يربطها بالشاطيء فأصبحت جزءاً متصلاً باليابسة ونشأ عن إقامة هذا الجسر ميناء أن مثل ما حدث فيما بعد فى الاسكندرية عند ما ربط جسر الهيتاستاديون جزيرة فاروس بالبر

(2) Cf. Van Groningen, A propos de la fondation d' Alex., Aegyptus, 1925, pp. 200 ff.
(3) Cf. Arrian. III, 1, 5; Curt. IV, 81.
(4) Arrian. III, 2, 1 - 2; Strab., XVII. 792; Plut., Alex., 26; Curt. IV. 8, 6; Amm. Marcellinus, XXII, 16, 7.
(5) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 4 .

أيضا⁽¹⁾ لاجه بتفكيره الى أينما يحكم ماضيها وسكانتها وموقعها . أم هل أراد ، وقد حطم منذ فترة قصيرة مدينة صور التي كانت أكبر ميناء في شرق البحر المتوسط ، أن ينشئ ثغرا مقدونيا بخلف صور في العالم التجاري⁽²⁾ ؟ هنا محتمل ، ولا سيما أنه لم يكن لمصر ميناء جدير بأهميتها وتخطاها على شواطئ البحر المتوسط ، وذلك بالرغم من أن علاقتها بمالم بحر أيجة كانت في ازدهار مطرد منذ عدة قرون خلت . ولا أقل على ذلك من أن القراصنة قد تركوا منذ مدة طويلة عوامسهم القديمة في الجنوب واتخذوا مقرهم في الدلتا التي أصبحت قلب بلادهم الفاض ، الى حد أن الاسكندر لم ير ضرورة للتململ الى الحدود الجنوبية واكتفى بإرسال حامية صغيرة الى القشتن لتحمل الى أعلى منطقة طيبة نأ وصول عاملهم الجديد⁽³⁾ . وبعد دخول مصر حظيرة الامبراطورية المقدونية ، كان طبيعيا أن ير... التجارة نشاطها نحو بحر أيجة . ولعل هدف الاسكندر لم يكن اقتصاديا فحسب ، وهو ما يذهب اليه بعض الباحثين⁽⁴⁾ ، بل كان عسكريا أيضا ، وهو أن يجعل من الاسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر أيجة وشرق البحر المتوسط . ولعله أراد كذلك أن تكون مدينته الجديدة ، وقد قامت على أسس الحضارة الاغريقية ، منبعا يقبض بماء هذه الحضارة فينشر خصيها بين ربوع الشرق القديم .

ويبين أن الاسكندرية كانت أول ميناء لمصر على مياه البحر المتوسط

(1) Cf. Diod., XVIII, 4; Tarn, J.H.S., 1921, pp. 1 ff; 1939, pp. 124 ff.

(2) Bevan, p. 4; C.A.H., VI, p. 377.

(3) Jouguet, Mac. Imp., 29.

(4) Fraser, op. cit., p. 1.

العميقة ، لأن بلوزيون - إذا صح ما يرويه استرابون ⁽¹⁾ كانت تقع على فرع النيل البلوزي على مسافة أربعة كيلو مترات تقريبا من البحر . وقد كانت نقراطيس تبعد كثيرا عن البحر . أما قانوب ، وهي التي كانت تعتبر ميناءها ، فانها بحكم موقعها عند مصب فرع النيل القانوبي وتعرضها للرواسب الطميية كانت لاتصلح للوقاء بالهدف المنشود . واذا كانت بلوزيون قد احتفظت بمكانتها باعتبارها مفتاح مصر من ناحية الشرق - وترينا وثائق زينون أن جماركها كانت عامرة في القرن الثالث بما يتدفق عليها من واردات سوريا - فان نقراطيس تضاءلت أهميتها تبعا لزيادة أهمية الاسكندرية التي جذبت اليها أنظار الشرق والغرب معا وأصبحت تقوم بدور كبير في حياة مصر الاقتصادية ، لا باعتبارها عاصمتها فقط بل أيضا باعتبارها ميناءها الأول . ذلك أنها كانت تستقبل من الخارج ما تحتاج اليه البلاد فتوزعه عليها ، ويأتي اليها من كل أنحاء البلاد ما يزيد على حاجتها فتصدره الى مختلف الأسواق الخارجية . ولم تكن الاسكندرية مركزا تجاريا ممتازا فحسب بل كانت أيضا مركزا صناعيا هاما ⁽²⁾ .

وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينة اغريقية في العالم تفوق في اتساعها أكبر المدن القديمة : أثينا وقورنثة وسراقوسة ⁽³⁾ . وقد غدت كذلك في طليعة عواصم الحضارة الاغريقية واستتمعت بمكان الصدارة في حلبة هذه الحضارة طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، فلا عجب أن خلعت اسمها على حضارة هذين القرنين .

(1) Strabo, XVII. 1, 21.

(2) Jouguet, *Tris Ludes*, pp 91 ff.; Fraser, I, pp. 132, 134- 43, 175.

(3) Rostovtzeff, S. and E., p. 415.

ويدو مما يرويه استرابون أنه كانت تقوم في البقعة التي شيدت الاسكندرية عليها قرية تدعى راقوتيس (Rhakotis)، إذ أنه يحدثنا بأن ملوك مصر السابقين كانوا قانعين بمنتجات بلادهم ولا يريدون استيراد شيء من الخارج، ويكرهون الأجانب وبخاصة الأغرقيق بسبب ما عرف عنهم من الجشع في اغتصاب البلاد الأجنبية . وتبعاً لذلك فإن الفراعنة أقاموا في هذه البقعة حامية عسكرية لصد الأجانب عن دخول البلاد وأتزلوا جنودهم في القرية التي كانت تعرف باسم راقوتيس ، وأصبحت جزءاً من مدينة الاسكندرية وراء أحواض الميناء⁽¹⁾ . ونقرأ في « قصة الاسكندر » المنحولة على قاليسثينس أن البقعة التي شيدت الاسكندرية عليها كان يقوم عليها قديماً ست عشرة قرية مصرية كانت راقوتيس أكبرها⁽²⁾ . وقد ورد ذكر راقوتيس في مصادر بطلمية ورومانية أخرى من أقدمها بردية من أواخر القرن الثالث قبل الميلاد⁽³⁾ . وفي رأى أحد الباحثين أن راقوتيس كانت في عهد الأسر الفرعونية الأخيرة مدينة هامة ولم تكن قرية صغيرة بائسة ، وأن أهميتها هي التي حدثت بالاسكندر الى اختيار موقعها لانشاء الاسكندرية⁽⁴⁾ وفي رأى باحث آخر أن راقوتيس كانت القلعة الرئيسية على الحدود في الشمال الغربي للدلتا منذ عصر الأسرة الثامنة على الأقل⁽⁵⁾ . ويدل لنا أن هذين الرأيين انبثقا من الكشف عن مخلفات أثرية ضخمة في قاع البحر عند فاروس ، على نحو ما سيجيء ذكره بعد قليل .

(1) Strabo, XVII, 792.

(2) Ps - Callischnes, I, 31, 2 .

(3) Fraser, I, p. 5; II n. 17 p. 7.

(4) Wace, Alex. Un. Bull. Fac. Arts, 1948, pp. 2 ff.

(5) Rowe, Bull. Ryll. Lib., 36, 1953 - 4, p. 137 - 1; cf. Fraser, II n. 22 p. 5 .

وعلى الأبحاث الجيولوجية الحديثة على أن شاطئ الإسكندرية كان في عصر ما قبل التاريخ يتألف من سلسلة من الجزر الصغيرة ، تقع عند مدخل الخليج الذي أصبح فيما بعد بحيرة مريوط ، لكن تراكم رسال الصحراء أدى على تعاقب الأجيال إلى ربط هذه الجزر بعضها ببعض وتحويل الخليج إلى بحيرة . ومعنى الزمن طرأت تغيرات أخرى على أرض الإسكندرية ، إذ أن مسواها البحر قد انخفض عما كان عليه في عصر البطالمة والرومان مسافة هائله بين مصر ومصر وتمف أو أكثر من ذلك في الدلتا وسواحل أرصفة أطراف عدد العناني . ويدعو أن هذا الانخفاض قد حدث بالتدريج ، أما نتيجة لهزات زلزالية عيفة وإنما نتيجة لاحدى الظواهر الجيولوجية ، وأما لارتفاع مستوى البحر ، فتنسب على العنفة الساحلية وكانت بها تصور البطالمة وغيرها من أبرز معالم المدينة . ويجب أن يلاحظ أيضا أن مستوى المدينة القديمة أرفع من مستوى المدينة الحديثة بضعه أضع ، لايسبب هذا الارتفاع فحسب بل بسبب اختلافات المصور المختلفة التي كونت طبقات فوق طبقات ، إذ أنه لكي تصل إلى مستوى المدينة في العصر الروماني يجب أن تنحصر في باطن الأرض ستة أو سبعة أمتار . ولذا ذلك فله لايد من أن أطلال المدينة البطلمية تقع على عمق أهد من ذلك ، ومن ثم قلته يرجح أن المياه تنمر كل طبقات ذلك العصر^{١١٧} . وقد كان من جراء ذلك أنه يصغر المظهر صورة كاملة للمدينة الاسكندرية القديمة .

وقد كان يظن أن فلوروس لم تكن وقت سجيء الإسكندر أكثر من ملوى لبعض ميادى السمك المصريين ، وأن الإسكندر وخلفائه من أفراد أسرة

(1) Breccia, Alex. and Aeg., pp. 66, 67. (Eng. Ed.) ; Fraser, I, pp. 9 ff.

البطالة هم الذين أنشأوا في هذا المكان ميناء عظيما . لكن أبحاث جاستون جونديه (Gaston Jondet) أثارت مشكلة هامة ، إذ أنه كشف في قناع البحر ، عند المكان الذى كان يعرف قديما باسم جزيرة فاروس ، عن بقايا أرصفة ومنشآت بحرية ضخمة . ولم يثبت بعد إذا كانت هذه الأطلال جزءا من ميناء الاسكندرية فى العهد الاغريقى ، أو جزءا من ميناء أقدم عهدا من ذلك ثم أهمل وعفا عليه الزمن قبل الفتح المقدونى . ومع ذلك فإن جونديه يميل الى الاعتقاد بأن رسيس الثانى أو الثالث هو الذى أنشأ الميناء المندرج ليحمى مصر من طغيان سكان البحار ويقول : « ان مواد البناء ضخمة ، كما هى الحال فى أبنية الفراعنة ، ولا بد من أن نقلها وانشاءها كانا أصعب من اقامة الأحجار فى أبنية الفراعنة ، ولا بد من أن نقلها وانشاءها كانا أصعب من اقامة الأحجار التى تتألف منها الأهرام الكبيرة »⁽¹⁾ . ويرى فريق من الباحثين أن هذه المخلفات المصمورة فى الماء مخلفات موانى بحرية يعزون انشاءها الى الكريتيين فى العصر المينوى المتوسط أو الحديث أى فى عصر الدولة الوسطى أو الدولة الحديثة⁽²⁾ . هذا الى أن الدكتور الفخرانى يرى ان ملوك مصر فى عهد الدولة القديمة هم الذين أنشأوا هذه الموانى المطمورة ، وان هذه الموانى ازدادت فى الأهمية فى عصر الاسرة التاسعة عشر وظلت قائمة الى زن حدثت تغيرات جيولوجية وطبيعية أفضت الى اختفائها تحت الماء⁽³⁾ . ولما كان لا يوجد أى دليل على خضوع أى جزء من مصر

(1) Gaston Jondet, Les Ports submerges de l'ancienne ile de pharos (Memoires presentes a L' Inst. Eg., Vol. IX. le Cairo 1916)

(2) Raymond weill, Les Ports antihelleniques de la cote d'Alex et l'empire cretois, Bull. Inst. Fr. Ar. O. 1916. XVI, Sin ANTHON Evans, The Palace of Minos at Knossos, London: (1920) p. 292 ff; Camille Antran. Les pheniciens. 1920.

(3) دكتور فورى عبد الوهاب الفخرانى : موانى الاسكندرية القديمة ، ١٩٦٣ .

للمينوتيين ، فان الرأى الثانى مرفوض شكلا وموضوعا . ويبدو لنا أن الرأى الثالث ليس الا تطورا للرأى الأول ، وأنه لا يمكن قبول أيهما أو ترجيحهما على الآخر قبل انتشار المخلقات من البحر ودراستها أو العثور على ادلة أخرى نستهدى بها .

وقد اهتم الكتاب القدماء بتفاصيل قصة تعيين مواقع أسوار المدينة أكثر من اهتمامهم باعطائنا معلومات دقيقة عن مقياس الأسوار وأبعادها وشكلها ومواقعها . وقد انفرد تاقيتوس (Tacitus) ^(١) من بين كافة المؤرخين القدماء بأن عزا انشاء الأسوار الى بطليموس الأول ، وأما غيره من قدامى المؤرخين فانهم لم يثيروا الى الأسوار الا اذا عرضت مناسبة للإشارة الى أحد الحصارات التى عانتها المدينة . ولا سبيل الى الشك فى أن أسوار الاسكندرية كانت أعظم من أسوار أية مدينة اغريقية أخرى ، فيما عدا سراقوسة وأثينا . ذلك أن الأحداث قد أثبتت أنها كانت منيعة على الدوام ، فقد فشل أمامها أنطيوخوس الرابع ملك سوريا فى عامى ١٧٠ و ١٦٨ ق.م وقضى دقلديانوس ثمانية أشهر للاستيلاء عليها فى عام ٢٩٥ - ٢٩٦ . ويكاد ينحصر كل ما نعرفه عن هذه الأسوار فى عصر البطلمة فيما يلى :

(أولا) أنه كان يحيط بالاسكندرية عندئذ أسوار يبلغ أقصى طولها حوالى ١٥ ك . م . مع ملاحظة أنه وفقا للعادة الشائعة عند الاغريق كانت المقابر تقع خارج الأسوار وتبعاً لذلك كانت الجبانتان الغربية والشرقية ، جبانة القبارى وجبانة الشاطبى ، تقعان خارج أسوار الاسكندرية .

(ثانيا) حصنت هذه الأسوار باقامة أبراج عليها فى مسافات متقاربة .

(ثالثا) كانت هذه الأسوار تتبع فى الناحية الشمالية مجرى الشاطبى ،

فيما بين حدودها الغربية (جبانة القبارى) وحدودها الشرقية (جبانة الشاطبي) . وعند رأس لوخيلاس "Lochias"^(١) كانت تتجه جنوبا حوالى كيلو مترين صوب القناة المتفرعة من الفرع القانوني : وفى الناحية الجنوبية كانت الأسوار تتبع الشاطبيء الشمالى لبحيرة مربوط^(٢) .

ويحدثنا استرابون بأن المدينة كانت تبلغ ٣٠ ستاديا (Sladia) ومفردها Stadion = ٦١٠ قدم أو ١٨٥,٩ متر) فى الطول وسبعة أو ثمانية فى العرض^(٣) . وأما المؤرخ اليهودى يوسف^(٤) فإنه يتفق مع استرابون من حيث تقدير طول المدينة ، ولكنه يختلف معه من حيث تقدير عرضها فهو يحدثنا بأنه كان ١٠ ستاديا ، وهو التقدير نفسه الذى تجده عند فيلون^(٥) .

ومن المعروف أن المدينة الاغريقية كانت تتألف عادة من المدينة واقيلمها الزراعى ، لكن جوجيه يعتقد أن الاسكندرية لم تتألف الا من المدينة وضواحيها ، وذلك لأن ما يعرف باقليم الاسكندرية كان فى العهد الرومانى منفصلا عن المدينة ويكون مديرية على حدة تحت سيطرة قائد يقيم فى هرموبوليس بارفا (Hermopolis Parva = دمنهور) ، ويرجح جوجيه أن هذا النظام كان سائدا فى عهد البطالمة أيضا^(٦) . ونحن نستبعد أنه حين كانت الاسكندرية عاصمة البطالمة وأعظم مدينة فى العالم الاغريقى بأسره لم يكن لها أقليم زراعى مثل غيرها من المدن الاغريقية ، ولاسيما أننا سنرى فيما بعد أنه كان من أنواع الأراضى فى عصر البطالمة ، ما يعرف بأرض

(1) Hist, IV, 83, 1.

(2) Bressia, op. cit., p. 71; Cf Fraser, I, pp. II ff.

(3) Strabo, XVII, 795.

(4) Joseph., Bell. Jud., II, 386.

(5) Phil., In Flac., 92.

(6) Jouguet, Vie, p. 8.

المدينة (go Politike) وهى الارض التى خصصت للاسكندرية وبطوليس وكذلك الأرض التى كانت تمتلكها المدينة الاغريقية القديمة نقرطيس . ولعل اتساع نطاق اقليم الاسكندرية الزراعى هو ما حدا بالرومان الى جعله مديرية قائمة بذاتها . وقد يؤيد ما نذهب اليه شدة عطف البطالمة وحدهم على مواطنى عاصمتهم الاغريق . ويجب ألا نخلط بين اقليم الاسكندرية (Alexandreias chora) وبين ذلك الجزء من ليبيا وهو الذى كان يطلق عليه أفوريسمنى (Aphorismene) وتخصص منتجاته للاسكندرية . ومما تجدر ملاحظته أن الاسكندرية كانت لا تعتبر جزءا من مصر وإنما مجاورة لها ، على حد تعبير الاغريق والرومان وكانوا يدعون الاسكندرية على النحو التالى Pros Aigypto" أو Kat' Aigypton⁽²⁾ أو apo Aigyptou⁽³⁾ أو ad Aegyptum .

ويحدثنا مؤلف قصة حياة الاسكندر⁽⁴⁾ بأن الفاتح الكبير وضع أساس مدينة الاسكندرية فى اليوم الخامس والعشرين من شهر طوبه عام ٣٣١ ق.م . وبأن المدينة كلها اعتادت طوال العصور القديمة تزيين الحيوانات بالزهور وتقديم القرابين لآلهة المدينة الحارسة (Agathoi Daimones) فى

(2) Rostotveff, Soc. and Ec., p. 415.

(3) Syll, 3, no. 583, l. 315.

(4) Ps. - Callisthencs, I, 32. 10.

مثل هذا الموعد^(١) من كل عام .

وكان المهندس الذى استخدمه الاسكندر لتخطيط المدينة يدعى دينوقراتيس (Dinocrates) . وقد طبق هذا المهندس أفكار تخطيط المدن التى نشرها هيبوداموس (Hippodamos) من ميلتوس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وطبقت فى اعادة تخطيط بايرايس (Peiraios) ووردس وهاليقارناسوس^(٢) . وأهم طابع لتخطيط الاسكندرية هو شوارعها التى تجرى فى خطوط مستقيمة من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ، حتى لتشبه لوحة الشطرنج . وقد شبه الأقدمون شكل رقعة المدينة بشكل ملحفة الحرب المقدونية^(٣) وكانت كقطاع من دائرة يبلغ طوله ضعف عرضه تقريبا .

وإذا كان قليومنيس النقراطيسى هو أول من بدأ فى اقامة منشآت الاسكندرية وكان كل البطالمة تقريبا قد أسهموا فى تجميل هذه المدينة ، فانه لاسبيل الى الشك فى أنه كان لبطليموس الأول والثانى أكبر نصيب فى

(١) وفى رأى جوجيه انه لما كان التقويم المصرى لم يصحح الا فى عهد بطليموس الثالث ، فان

تاريخ تأسيس المدينة كان يوافق ٧ من أبريل

(Jouguet, Rev. Et. An., 42, 1940, pp. 192-7; Bull. Inst. Eg., 24 1942 pp. 158 - 74).

ولكنه فات جوجيه اننا نستمد هذا الموعد من قصة حياة الاسكندر وهى التى كتبت فى العصر

الرومانى حين كانت مصر تستخدم التقويم الرومانى ، ومن لم فان فيلكن يرى بحق أن ٢٥ من

طوبه كان يوافق ٢٠ من يناير -

(Wilcken, S.B. Berlin, 30, 1928, p. 579. n.3).

وعن مناقشة هذه المشكلا وايضا : Fraser, II, n. 9 p. 3.

(2) Breccia, op. cit., p. 67.

(3) Plut., Alex., 26, 8; Strabo, XVII, 793; Diod., XVII, 35; Plin., N. H., V, 62.

ذلك . ويبدو أنها في عهد بطليموس الثانى كانت قد استكملت أهم مظاهرها التى اشتهرت بها فى عصرى البطالمة والرومان .

تاريخ نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية :

ويجدر بنا التوقف هنا لمناقشة التاريخ الذى أصبحت فيه الاسكندرية بدلا من منف عاصمة لمصر منذ أن اتخذها بطلميوس بن لاجوس مقرا له . ويسلم فريزر بأننا لانكاد نعرف شيئا على الاطلاق عن مدى نمو الاسكندرية فى عهد قليومنيس (٣٣١ - ٣٢٣) ، وبأنه لايرد للاسكندرية أى ذكر فيما يتصل بالأحداث التاريخية التى وقعت فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وبأنه لم تصل اليها نقوش ولا وثائق بردية يمكن تأريخها بدقة وتتم عن أن الاسكندرية كانت مصدرها أو تشير الى هذه المدينة قبل أواخر عهد بطلميوس الأول وبداية عهد بطليموس الثانى (ولعل فريزر يقصد نقوشا اغريقية لأنه عرف واستخدم نقشا مصريا ورد فيه ذكر الاسكندرية ويرجع الى الشطر الأول من عهد بطلميوس الأول) ، وبأن المصادر الأدبية كذلك تلوذ بصمت عميق عن هذه المدينة فى تاريخها الباكر . ومع ذلك فان فريزر يميل الى الاعتقاد بأن الاسكندرية غدت سريعا بعد انشائها مقر الحكم فى مصر ، وذلك على أساس : أولا ، أن الاسكندر الأكبر عهد بانشاء المدينة الى قليومنيس وكان رجلا جم النشاط . وثانيا : أنه لما كان قليومنيس قد أصدر باسم الاسكندر نقودا ترجع الى عام ٣٣٠/٣٣١ أو الى عام ٣٢٦ / ٣٢٥ ، وكان يبدو أن بطلميوس بدأ مباشرة فى سك نقود عقب اعدامه قليومنيس فى عام ٣٢٣ ، فانه يلوح أنه كانت توجد دار لسك النقود فى الاسكندرية منذ عهد قليومنيس ، وذلك بالرغم من عدم وجود دليل على أن

الدار التي سكته فيها نقود كل من قليونيس وبطلميوس كانت تقوم في الاسكندرية . وينى فريزر احتمال وجود دار لسك النقود بالاسكندرية في ذلك الوقت الباكر على احتمال آخر وهو أنه من العسير تصور قيام بطلميوس بإنشاء دار لسك النقود في منف في حين أن المدينة الجديدة القائمة على البحر والمنفتحة على التجارة الاغريقية كانت في حاجة ملحة الى النقود . هذا الى أن رغبة بطلميوس في اكتساب مكانة كبيرة في العالم الاغريقي كانت تحفزه على اصدار نقود ولايته من مدينة اغريقية لا من مدينة مصرية . وثبعا لذلك فان فريزر يكاد أن يوقن بأنه لم يوافق عام ٣٢٣ حتى كانت دار سك النقود تمارس نشاطها في الاسكندرية . ويرى فريزر أنه من المستبعد أن بطلميوس كان يسك نقوده في مدينة ويستمر مقيما في مدينة أخرى ، ويضيف الى ذلك أن وثيقة مصرية (نصب الوالى المؤرخ بالعام السابع من عهد الاسكندر الرابع) ، قد تشير الى أن بطلميوس انتقل من عاصمته القديمة منف واتخذ الاسكندرية مقرا له في تاريخ لا يرجع الى ما بعد عام ٣١٩/٣٢٠^(١) أى أن هذا الانتقال كان حوالى عام ٣٢٠ ق.م^(٢) .

وخلاصة ما أسلفناه هو أن فريزر يستند في تحديد التاريخ الذى اتخذ فيه بطلميوس الاسكندرية عاصمة له بحوالى عام ٣٢٠ الى حجتين أحدهما هي التى يشرحها في الجزء الاول من كتابه على نحو ما عرضناه وسميها في الجزء الثانى « أدلة النوميات » ولكننا نرى أن الأصح تسميتها النتيجة الافتراضية لسك قليونيس وبطلميوس نقودا في الفترة الباكرة من تاريخ

(1) Fase, I, op. cit. pp. 6-7. op cit.

(2) Fraser, op. cit., II, n. 28 pp. 11 - 12 .

الاسكندرية ، بيد أنه توخيا للايجار ستستخدم فى التعبير عن التهمة التى نستصوبها عبارة « النتيجة الافتراضية لأدلة النوميات » . وأما الحجة الأخرى فهى حجة « نصب الوالى » وهى التى اكتفى فريزر بالإشارة إليها اجمالا فى الجزء الأول وفصلها فى الجزء الثانى .

وذكرنا فريزر بالبحث الذى كان قد نشره وانتهى فيه الى أن بطلميوس نقل عاصمته من منف الى الاسكندرية فى حوالى عام ٣٢٠ وذلك استنادا الى أساسين جوهريين وأحدهما هو أن نصب الوالى المؤرخ بالعام السابع من عهد الاسكندر الرابع يرجع الى عام ٣١٧ / ٣١٦ (أى أن فريزر خالف عندئذ جمهرة الباحثين واحتمب بداية عهد هذا الملك منذ مولده بدلا من احتسابها منذ انفراده بعرش الامبراطورية المقدونية نتيجة لمصرع شريكه فى عرشها فيليب ارهيداوس) .

والأساس الآخر هو أنه لما كان نصب الوالى يرجع الى عام ٣١٧ / ٣١٦ وكان فى رأيه أن النصب توخى الترتيب الزمنى فى سرده عددا من الأحداث (١ - اعادة بطلميوس تماثيل الآلهة من آسيا ، ٢ - اختياره الاسكندرية مقراله ، ٣ - قيامه بفتح سوريا ، ٤ - فتح اقليم Ir - m - z وهو الذى اعتبره قورينى) فانه يجب تأريخ هذه الأحداث جميعا بالفترة ٣٢١ - ٣١٩ ، وبوجه خاص يجب اعتبار فتح سوريا ذلك الذى تم فى عام ٣١٨ / ٣١٩ . ويعترف فريزر فى مؤلفه الأخير نقل العاصمة الى الاسكندرية فى حوالى عام ٣٢٠ مصرا على أن منف ظلت طويلا عاصمة بطلميوس . وثانيا ، أنه يجب احتساب بداية حكم الاسكندر الرابع منذ انفراده بعرش الامبراطورية المقدونية فى عام ٣١٦ / ٣١٧ لأن الأدبى برديات اللذين تعادل العام السابع من عهد الاسكندر الرابع بالعام الرابع عشر من عهد بطلميوس الوالى أى

عام ٣١١ . بيد أن فرينز يرى أنه اذا كان ذلك يستتبع ارجاع تاريخ نصب
الوالي الى هذا العام بدلا من عام ٣١٦/٣١٧ ، فانه يمكن القول دون جزم
بأن هذا لا يؤثر فى « التأريخ الأقدم » الذى أزع به الأحداث الواردة فى
نصب الوالى (أى أنها ترجع جميعا الى ٣٢١ - ٣١٩) . وثالثا ، أنه ازاء
تشكك علماء الدراسات المصرية فى أن اقليم Ir-m-z هو اقليم المارماريداي
فانه يجب استبعاد التفكير فى أى تأريخ مبنى على افتراض أن الحملة المشار
اليها فى نصب الوالى كانت احدى حملات بطلميوس ضد قورينى . وبعد
هذه الاعترافات يقول فرينز ان كل ما يتبقى لاستخلاصه من نصب الوالى
هو أن اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له سبق قيامه باحدى حملتيه
لفتح سوريا أما تلك التى وقعت فى عام ٣١٩ / ٣١٨ وأما تلك الحملة
الطويلة التى كانت موقعة غزة (٣١٢ / ٣١١) أبرز أحداثها ، ولكنه فى
ضـر . « أدلة النوميات » يرجح ترجيحاً قويا حملة ٣١٨/٣١٩ . ويضيف الى
ذلك أنه لما كان المحتمل أن اقليم Ir-m-z هو اقليم قورينى ، وكانت
الحملة الوحيدة ضد قورينى التى يمكن اعتبارها حملة تأديبية هى حملة
عام ٣١٢/٣١٣ ، وكانت هذه الحملة سابقة على الحملة السورية التى
وقعت فى عام ٣١١/٣١٢ ، فان هذا يؤيد ترجيحه للحملة السورية التى
وقعت فى عام ٣١٨/٣١٩ ، ونسعا لذلك يكون بطلميوس قد اتخذ
الاسكندرية عاصمة له قبل هذه الحملة .

وهكذا يتضح أن فرينز خرج من بحثه الحديث بالنتيجة نفسها التى كان
قد انتهى اليها ببحثه القديم وهى أن التاريخ الذى نقل فيه بطلميوس
عاصمته من منف الى الاسكندرية كان حوالى عام ٣٢٠ ، وذلك بالرغم من
تسليمه مؤخرا بأن نصب الوالى يرجع الى عام ٣١١ ، وهو التاريخ الذى

يأخذ به كثيرون من الباحثين منذ أمد طويل ونأخذ به نحن منذ حوالي
الثلاثين عاما ، أن تاريخ نص الوالى يرجع الى العام السابع من عهد الملك
الاسكندر المعمر أبدا ، فى الوقت الذى يبدأ فيه فيضان النيل ، أى فى شهر
يونيه عام ٣١١ .

ونحن اذ نسلم بأن تأريخ اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له مشكلة
ليست هينة ، ونعترف بأن فريزر انفق جهدا مشكورا فى محاولة حل هذه
المشكلة ، لايسعنا الا أن نبدى أنه لنا على هذا الجهد السخى مأخذ نرى أنها
أثرت تأثيرا جذريا فى النتيجة النهائية التى توصل اليها ، وهى أن بطلميوس
اتخذ الاسكندرية عاصمة له حوالي عام ٣٢٠ . وسنبدا بعرض هذه المآخذ
اجمالا قبل أن نتاولها تفصيلا ، وأول هذه المآخذ هو أن فريزر توصل الى
نتيجته النهائية سالفة الذكر اعتمادا على حجتين : احدهما هى ما يسميه
« أدلة النوميات » ، فهذه الدجة ليست الا نتيجة مستخلصة من عدة
افتراضات مما يضى عليها ظابع المجازفة العلمية غير المأمونة ولا المقبولة .
وثانى هذه المآخذ هو أن فريزر بدلا من أن يلقى على نصيب الوالى نظرة
شاملة تستوعب محتوياته جميعا وتؤدى الى فهم هدفه الحقيقى والى
استخلاص أصح النتائج أو على الأقل أقربها الى الصحة ، اجتزأ بعضا من
هذه المحتويات واتخذ منها حجة اخرى تسند وفى الوقت نفسه تستند الى
الحجة الأولى توصلا الى النتيجة النهائية السالفة الذكر . وليس من شأن

ذلك الا اثاره شك قوى فى سلامة هذه النتيجة . وثالث ما أخذنا هو أنه قد فات فريزر فى تقديره تاريخ نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية أن يدخل فى هذا التقدير اعتبارات الظروف التى اكتتفت مركوز بطلميوس فى بداية عهده وكان لابد من أن تؤثر فى اتخاذ بطلميوس هذه الخطوة . ومن البديهي أنه من شأن اغفال هذه الاعتبارات فى تقدير تاريخ نقل العاصمة الى الاسكندرية أن يشير شكا قويا آخر فى سلامة النتيجة التى توصل اليها فريزر .

وأما عن المأخذ الأول فانه مر بنا أن فريزر نفسه يعترف بعدم وجود دليل على أن الدار التى سكنت فيها نقود كل من قليونيس وبتلميوس كانت تقع فى الاسكندرية ، ولكنه مع ذلك يفترض وجود مثل هذه الدار فى الاسكندرية منذ عهد قليونيس ، بل يقول أنه يكاد أن يوقن بأنه لم يواف عام ٣٢٣ حتى كانت هذه الدار تمارس نشاطها ، ويبنى فريزر هذا الافتراض اليقيني - وهو ما يسميه « أدلة التوميات » ونسبته نحن « النتيجة الافتراضية لأدلة التوميات » - على ثلاثة افتراضات اخرى . ولنبداً بأبرزها شأننا وأيسرها تقنيها وهو الافتراض القائل بأن رغبة بتلميوس فى اكتساب مكانة كبرى فى العالم الاغريقى كانت محفزة على اصدار نقوده من مدينة اغريقية - أى الاسكندرية لا من مدينة مصرية ، أى منف . وهنا تملكنا الدهشة لأن فريزر يعترف بأن بتلميوس اتخذ منف عاصمة له فى بداية عهده ، ولأنه لاشك فى أن مسألة اتخاذ بتلميوس مدينة مصرية عاصمة له أهم بكثير من مسألة مكان اصدار نقوده ، ولاشك فى أن رغبة بتلميوس فى اكتساب مكانة فى العالم الاغريقى لم تنحل دون اتخاذه منف عاصمة له فى بداية عهده . وتبعاً لذلك اذا كان بتلميوس لم ير بأساً فى اتخاذ منف

عاصمة له وكان فيما يبدو - على حد قول فريزر - بدأ مباشرة فى سك نقوده عقب اعدامه قليومنيس ، فهل من المستبعد أن يكون بطلميوس قد سك نقوده كذلك فى منف ، علما بأن هذا يتفق ووجهة نظر فريزر القائلة بصعوبة تصور اقامة الحاكم فى مدينة وسك نقوده فى مدينة أخرى ؟ وإذا صح ما يرجحه بعض الباحثين من أن نقود قليومنيس ترجع الى عام ٣٣١/٣٣٠ فأيهما أدنى الى العقل والقبول أنه كانت توجد فى ذلك الوقت الباكر دار لسك النقود فى منف أم فى الاسكندرية ؟ ومن الجلى أن الاحتمال الأول ارجح من الثانى ، ومعنى ذلك أن يكون بطلميوس قد وجد فى منف دارا لسك النقود أنشأها قليومنيس وقام بدوره باستخدامها .

وأحد الافتراضين الأخيرين هو حاجة الاسكندرية الملحة الى النقود . والافتراض الآخر هو صعوبة تصور اقامة بطلميوس فى مدينة وانشاء دار لسك النقود فى مدينة أخرى . وليس من العسير الرد على هذين الافتراضين ، ولنبدأ بالإشارة الى التناقض الذى وقع فيه فريزر ، فهو من ناحية يقول ببقاء بطلميوس فى منف حوالى ثلاث سنوات كان فى خلالها بسك نقوده فى الاسكندرية ، ومن ناحية أخرى يقول بأنه من العسير تصور اقامة الحاكم فى مدينة واقامة دار لسك النقود فى مدينة أخرى . ولا مجال للجدل فى أمرين : وأحدهما هو أن الاسكندرية فى عهدها الذهبى - حين غدت من أعظم المراكز التجارية فى العالم الاغريقى - كانت حاجتها الى النقود أكثر الحاجا منها فى باكورة تاريخها .

والأمر الآخر هو أنه منذ أن اتخذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له كانت هذه المدينة المقر الرسمى للبطالمة الأوائل منهم والأواخر . ومع ذلك فاننا

منطالع في سياق الحديث عن النقود أنه طالما بقيت فينيقيا في قبضة البطالمة كانت أهم دور سك العملة البطلمية في المدن الفينيقية الخاضعة لهم وهي صور وصيدا ويطوليس (عكا) ويافلم وعزة ، وأنه عندما فقد البطالمة فينيقيا في مستهل القرن الثاني قبل الميلاد لجأ البطالمة الى دور السك في قبرص لسك عملتهم الفضية اذ أن كل النقود الفضية التي أصدرها البطالمة المتأخرون تحمل العلامات المميزة لدور السك في قبرص . أى أنه لا حاجة الاسكندرية الى النقود ولا اقامة البطالمة فيها استتبع حتما وجود أهم الدور لسك عملة البطالمة في عاصمتهم .

وفي ضوء هذه المناقشة التي جرحت الافتراضات الثلاثة التي بنى عليها فريزر افتراضه اليقيني ، وهو الذي يسميه « أدلة النوميات » (وتسمية نحن « النتيجة الافتراضية لأدلة النوميات ») ويتخذ منه إحدى الدعامتين اللتين أقام عليهما نتيجته النهائية (اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له حوالى عام ٣٢٠) يتبين لنا مدى وهن افتراضه اليقيني . وليس من الاسراف في الرأى القول بأه هذا الوهن الشديد يلقي ظلا كثيفا على النتيجة النهائية التي بنيت عليه .

وأما عن المأخذ الثانى فانه يخص اساسا الدعامة أو الحججة الثانية التي اقام عليها فريزر نتيجته النهائية (اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له حوالى عام ٣٢٠) . وهذه الدعامة أو الحججة الثانية هي « نصب الوالى » . ويستوقف النظر هنا .

(أولا) أنه برغم أن فريزر لم يعنه من أمر هذا النصب الا ذلك الجزء

من النقش الذى يروى أربعة أحداث (١) - إعادة بطلميوس تماثيل الآلهة من آسيا ، ٢ - اختيار الاسكندرية مقرا له ، ٣- قيامه بفتح سوريا ، ٤- فتح اقليم Ir-m-z) فان فريزر أغفل أو تغافل تماما أول هذه الأحداث .

(ثانيا) أن فريزر افترض أن ذلك الجزء من النقش يسرد هذه الأحداث وفقا لتاريخ وقوعها ، أى أن سردها رتب ترتيبا زمنيا ، وبناء على ذلك يرى فريزر أنه لما كان اتخاذ بطلميوس قد نقل عاصمته من منف قبل هذا الفتح . ويسلم فريزر بأن هذا الفتح قد يكون نتيجة أما لحملة بطلميوس فى عام ٣١٨/٣١٩ وأما لحملة فى عام ٣١١/٣١٢ ولكن فريزر يرجح الحملة الأولى استنادا الى ما يسميه أدلة النوميات وهى التى رأينا أنها ليست أكثر من نتيجة افتراضية بحث لانستد الا الى افتراضات، يكتنفها الشك من كل ناحية . وفضلا عن ذلك فان فريزر يؤيد ترجيحه لحملة عام ٣١٨/٣١٩ باحتمال أن الحملة ضد اقليم Ir-m-z كانت حملة بطلميوس التأديبية ضد قورينى فى عام ٣١٢/٣١٣ ومن ثم فانها تكون سابقة لحملة بطلميوس السورية فى عام ٣١١/٣١٢ ، وذلك بعد سطور قليلة من قوله بضرورة استبعاد أى تاريخ مبنى على افتراض ان الحملة ضد اقليم Ir-m-z كانت إحدى حملات بطلميوس ضد قورينى . وهكذا نرى فريزر يناقض نفسه مرة أخرى ويعود من جديد الى بناء افتراض على افتراض دون دليل على سلامة أى واحد من هذه الافتراضات ويتخذ من هذه الاسس الهشة دعامة يقيم عليها نتيجته النهائية (اتخاذ بطلميوس عاصمة له حوالى عام ٣٢٠) .

(ثالثا) أن الافتراض الاساسى الذى يستهل به فريزر استخدام نصب الوالى (وهو الافتراض الذى يزعم أن ذلك الجزء الذى اقتطفه من نقش

النصب يسرد ما أورده من أحداث وفقا لترتيبها الزمني (افتراض يشير الشك في صحته أمران : واحدهما ، هو أن الفقرة الوحيدة في النصب التي يتبين فيها وقوع حادث فعلا قبل حادث آخر هي التي تقول أن بطليموس فتح سورا وبعد ذلك اقليم Ir-m-z . والأمر الآخر ، هو أن ذلك الجزء من النقش قد أورد قبل مسألتي نقل العاصمة الى الاسكندرية وفتح سوريا مسألة أخرى أغفل فريزر أو تغافل أمرها تماما وهي مسألة استعادة تماثيل الآلهة أو بعبارة أشتمل استعادة المقدسات المصرية من أسيا ، أى أن هذه المسألة كانت أول الاحداث الاربعة المجتزأة من محتويات النصب ومسألة فتح سوريا ثالث هذه الاحداث برغم ارتباط هاتين المسألتين ارتباطا عضويا وثيقا هو ارتباط السبب بالنتيجة ، لكن النتيجة قدمت هنا على السبب ، ويؤيد هذا الارتباط العضوى ما ورد فى أربعة مصادر أخرى من عصر البطلمة . وهى : لوحة بيشوم (من عهد بطليموس الثالث) ولوحة بيشوم الجديدة (من عهد بطليموس الرابع) . ذلك أنه ورد فى لوحة بيشون (القديمة) أن الملك (بطليموس الثانى) ذهب الى بلاد الفرس (أى البلاد التى كانت خاضعة للفرس اشارة الى حرب قاريا أو حرب دمشق) وأحضر تماثيل للهة . وورد فى المصدر الثانى أن تماثيل الآلهة التى نهبها الفرس استعادها الملك

(بطلميوس الثالث) بعد قيامه بحملة خارجية . وبعد أن يتحدث المصدر الثالث عما قام به بطلميوس الثالث فى الحرب السورية الثالثة يقول ان هذا الملك بحث عما كان الفرس قد نهبوه من المقدسات المصرية وأعادها الى مصر . ووردت فى المصدر الرابع فقرة طويلة عن استعادة المقدسات المصرية التى نهبها الفرس . ومجمل هذه الفقرة أنه بعد انتصار بطلميوس الرابع فى معركة رفع (عام ٢١٧) أمر هذا الملك بالبحث بحثا دقيقا عن هذه المقدسات ، وأعاد الى مصر - الى جانب ما كان أبوه قد استعادة - كل ما وجد من التماثيل ، وأقام حفلا كبيرا لها ، وقضى بأن تعاد الى معابدها الأصلية حيث كانت من قبل .

وهكذا يتكشف لنا أولا ، أن استعادة المقدسات المصرية من آسيا يرتبط بحملات آسيوية ارتباط النتيجة بالسبب ، مما كان يستتبع ذكر السبب قبل النتيجة لو أن النقش كما يزعم فرينز رتب الأحداث الأربعة التى اجتزاها منه ترتيبا زمنيا ، ولكن النقش أورد استعادة بطلميوس المقدسات ثم اختياره الاسكندرية مقرا له ثم فتحه سوريا . وثانيا ، أن مصادر متعددة من عهد البطالمة الأربعة الأوائى تردد ذكر مسألة استعادة المقدسات المصرية ، مما ينم عن أن هذه المسألة كانت شديدة الحساسية بالنسبة الى المصريين وعن أن البطالمة اتخذوا من هذه المسألة وترا يعزفون عليه لكسب ود مصر ودعم مركزهم فيها باظهار الفارق الهائل بين حكامها الجدد وحكامها القدامى من الفرس ، على نحو ما سبق ذكره فى سياق الحديث عن البطالمة والديانة المصرية وعلى نحو ما سنتبينه توا .

وفى رأينا أن العبارة الخاصة باعادة بطلميوس المقدسات المصرية من آسيا ، وغير ذلك من محتويات نصب الوالى الى جانب ما اجتزأه منها فريزر ، فضلا عن الزخرفة التى زينت بها قمة هذا النصب ، تقتضى دراسة هذه النصب دراسة شاملة ليتيسر استخلاص أصح النتائج أو على الأقل اقربها الى الصحة . ذلك أن هذ النصب نقش عليه نص طويل بالهيروغليفية ، وزينت قمته بمنظرين مصريين (من حيث الطراز والطابع) يصوران ملكا وهو يقدم القرابين فى أحدهما الى حورس اله مدينة بى (Pe) وفى المنظر الآخر الى بوتو الهة مدينتى بى وتب (Top) . ويبدأ النص باثبات تاريخه فى العام السابع من عهد الاسكندر الرابع ، ثم يقرن اسمه بالألقاب الفرعونية التقليدية ، ويصفه بأنه صديق الهى بى وتب وبأنه ملك على بلاد اخرى الى جانب مصر . ويروى النص أنه فى أثناء وجود هذا الملك فى آسيا كان ينوب عنه فى حكم مصر وال عظيم ، اسمه بطلميوس ، قوى البنية والشكيمة ، ذكى الفؤاد ، بارع فى القتال . وبعد أن يورد النص تلك العبارة الخاصة باعادة المقدسات المصرية التى وجدت فى آسيا ، يذكر أن بطلميوس آخذ الاسكندرية مقرا له ، وأنه جمع قوات كبيرة من الفرسان والسفن وفتح سوريا وبعد لك قام بحملة تأديبية ضد اقليم Ir-m-z وعقابا لأهالى هذا الاقليم أحضر اعدادا كبيرة من الأسرى والخيول . ويمضى النص فيقول انه بعد عودة هذا الوالى العظيم الذى كان يبذل قصارى جهده فى خدمة صوالح آلهة مصر العليا ومصر السفلى أقام حفلا كبيرا حيث استمع الى حديث طويل فحواه أن اقليم باتانوت (Patanut = المنطقة الشمالية من محافظتى الغربية وكفر الشيخ) كان دائما أبدا ملكا لالهى بى وتب الى أن سلبهما

ايه اجزو كسيس ولكن خباش (الزعيم الوطنى الذى قاد ثورة المصريين على
الفرس فى عام ٤٨٦) أعاد الى الالهين ممتلكاتهما وأضاف اليها . ويحدثنا
النص بأنه بعد استماع بطلميوس الى هذا الحديث أصدر قرارا يقضى
بتجديد منحة خباش كاملة وتعيين حدود الممتلكات الممنوحة . وينتهى
النص بالاعراب عن تمنى النصر لهذا الوالى العظيم جزاء وفاقا لتجديده
منحة خباش لالهى بى وتب ، وباستمطار لعنات هذين الالهين على كل
متنمئد يده الى أى شىء من ممتلكاتهما .

وعند دراسة نصب الوالى يستوقف النظر : أولا ، أن النقش اذ يسجل أن
تاريخه هو العام السابع من عهد الاسكندر الرابع (أى عام ٣١١) ،
لايحتفل باثبات انتقال هذا الملك من آسيا الى مقدونيا منذ عام ٣٢١ ، ولا
بالاشارة الى مقر هذا الملك الصبى التمس فى وقت تاريخ النقش مثل
احتفاله بذكر مقر بطلميوس فى ذلك الوقت . وفضلا عن ذلك فان قول
النقش أن بطلميوس كان يحكم مصر بوصفه نائبا عن الاسكندر الرابع حين
كان هذا الملك فى آسيا كان بطلميوس يحكم مصر باسم فيليب أرهيداوس
والاسكندر الرابع ، بوصفهما ملكين شريكين تحت الوصاية وفقا لقرار
مؤتمر بابل . وقيام بطلميوس باعادة انشاء قدس الأقداس فى معبد الكرنك
باسم فيليب أرهيداوس^(١) لايدع مجالاً للاجتهاد فى التفسير بأنه ربما كان
بطلميوس لايعترف به ملكا . وحتى اذا صح هذا فانه لايفير من حقيقة أن
النقش لايتوخى الدقة فى تسجيل الأحداث . وفى رأينا أن هذا كله الى
جانب ما ذكرناه بصدد الأحداث الأربعة يدل على أنه كان لهذا النقش أو

(1) Noshy, Arts in Ptolemaic Eg., p. 67; Jequier, Temples Ptol. et
Rom., pls, II, III; Murray, Eg. Temples, pp. 71, 80 etc..

بعبارة أخرى نصب الوالى هدف آخر غير تسجيل الأحداث ومراعاة الدقة سواء فى سردها أم فى ترتيبها ترتيبا زمنيا .

وثانيا ، أن النصب يعنى بوجه خاص بتذكير المصريين بأنهم يخضعون لفرعون يعطف على آلهة البلاد وله من الحول والقوة بحيث أن سلطانه لا يمتد على مصر فحسب بل أيضا على أقاليم أجنبية ، وبأنه ينوب عن هذا الفرعون فى حكمهم وآل حكيم قوى بارع فى القتال ولا يقل عن مولاه عطفًا على آلهة مصر .

وثالثا ، أن ذكر اتخاذ بطلميوس الاسكندرية مقر له يجيء بعد الاستهلال بتسجيل ان هذا الوالى أعاد الى مصر مقدساتها من آسيا - أى أنه من طراز آخر غير طراز حكامها السابقين من الفرس الذين نهبوا هذه المقدسات - وقبل تسجيل أمرين آخرين وهما : (١) قوات بطلميوس البرية والبحرية الضخمة وانتصاراته العسكرية الخارجية ، للدلالة على قوته وكفايته العسكرية ، (٢) مظهر آخر من مظاهر عطف بطلميوس على الديانة المصرية بمساعدة الاغريق لهم فى ثوراتهم ضد الفرس ، وليبرز وجه الشبه بين بطلميوس والزعيم الوطنى خباش ، ويؤكد بذلك كله الفارق الهائل بين موقف بطلميوس ازاء الديانة المصرية وموقف الفرس ازاءها ، وهو الموقف الذى كان من أقوى أسباب نعمة المصريين عليهم .

وان ذلك ذلك كله على شىء فهو يدل على :

(أولا) أن النص المنقوش على نصب الوالى كان ضربا من الدعاية السياسية التى ورد بين ثناياها ، كإتخاذ بطلميوس الاسكندرية مقرا له .

(ثانيا) أن محور هذه الدعاية كان الاشادة بمظاهر عطف بطلميوس

(الوالى القوى الحكيم صاحب البراعة القتالية والقوات الضخمة والانتصارات الباهرة) على الديانة المصرية ، وابرار وجه الشبه بينه وبين الزعيم الوطنى خباش وكذلك وجه الاختلاف بينه وبين الفرس حكام مصر القدامى البغيضين .

(ثالثا) أنه لو أن فريزر درس نصب الوالى دراسة شاملة ، وأولى محتوياته جميعا ما تستحقه من عناية ، لجنب نفسه الانزلاق الى اجتزاء جانب من هذه المحتويات ، والى افتراض أن ما اجتزأه سجل زمنى رتبب الاحداث الواردة فيه وفقا لتاريخ وقوعها ، والى تأريخ أحد هذه الأحداث (فتح سوريا) بعام ٣١٩ / ٣١٨ استنادا الى نتيجة افتراضية بحث والى فرض قال هو نفسه بضرورة استبعاده ، ليخرج من ذلك كله بأن بطلميوس نقل عاصمته من منف الى الاسكندرية فى حوالى عام ٣٢٠ . وتبعنا لذلك اذا كان لاسيلى الى الشك فى أن هذا النقل قد سبق تاريخ نصب الوالى (شهر يونيه عام ٣١١) ، فان لنا عذرا فى أن يساورنا الشك فى سلامة النتيجة التى انتهى اليها فريزر ، وذلك بسبب الشبهات القوية التى تخوم حول المنهج الذى اتبعه والافتراضات التى استخدمها فى الوصول الى هذه النتيجة .

(رابعا) أنه لا بد من أنه كان هناك سبب للقيام بتلك الدعاية السياسية فى شهر يونيه عام ٣١١ .

فما هو هذا السبب ؟

يبد أنه قبل تبين هذا السبب يجب أن نتناول المأخذ الثالث وهو أنه فات فريزر فى تقديره حوالى عام ٣٢٠ تاريخا لنقل العاصمة من منف الى الاسكندرية أن يدخل فى حسابه الاعتبارات التالية :

(أولا) أن بطلميوس اذ اتخذ منف عاصمة له ودفن فيها الاسكندر الأكبر قبل نقل جثمانه الى الاسكندرية كان حريصا أشد الحرص على كسب ود المصريين . وينهض دليلا على ذلك :

١- الى جانب ما أورده نصب الوالى عن مظاهر عطفه على الديانة المصرية ، هناك شواهد أخرى عن هذا العطف ، فقد سبق أن ذكرنا أنه ما كاد يصل الى مصر فى عام ٣٢٣ حتى تبرع بمبلغ قدره خمسون تالنتا للاحتفال بجنائزة أحد العجول المقدسة ، كما ذكرنا أنه أقام عدة منشآت دينية ترجع الى عهد فيليب أرهيدوس والاسكندر الرابع .

٢- أنه يتبين من المصادر المصرية ، على نحو ما سيجيء ذكره فيما بعد ، أنه على الأقل فى بداية عهد بطلميوس كان نبيل مصرى يدعى نقتانيو - لعله كان سليل آخر فوعون مصرى - نومارخ المديرىات الثانية عشرة والرابعة عشرة والتاسعة عشرة من مديرىات الدلتا ، وكان أيضا قائد قوات الأجانب فى المديرية الرابعة عشرة . وكذلك كان نبيل مصرى آخر يدعى ابسمتيك قائدا للجنود فى مديرية بوسيريس . واذا كان من المحتمل أن هذين النبيلين المصريين لم يكونا الوحيدين اللذين سمح لهما بطلميوس فى بداية عهده بالاحتفاظ بمناصب عليا ، فاننا لانسمع شيئا على الاطلاق عن هذه الارستقراطية فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد . وتعطينا زخارف مقبرة بتوسيريس فكرة عن حال الارستقراطية المصرية الدينية فى بداية عصر البطالمة ، اذ أنه يتبين من نقوش هذه المقبرة أن صاحبها كان يمتلك أو على

الأقل يتولى ادارة مساحة واسعة من الأراضى . ولاشك فى أن ذلك لم يكن شأن بتوسيريس وحده دون غيره من كبار رجال الدين الى أن عمل البطالمة بشتى الطرق على تقليم أظافرهم .

ومعنى ذلك كله أن بطلميوس كان حريصا فى بداية عهده على كسب ود المصريين باتخاذ مدينة منف عاصمة له ، وبإظهار حذبه وعطفه على الديانة المصرية ، وبعدم إقصاء المصريين عن المناصب العليا ، وبعدم اذلال رجال الدين .

(ثانيا) أننا نستمد من تاقيتوس أن بطلميوس الأول هو الذى أنشأ أسوار الاسكندرية ، على نحو ما مر بنا ذكره ، وأن القرائن توتى بأن هذه الأسوار كانت ضخمة منيعة . ولا جدال فى أن انشاء مثل هذه الأسوار كان يتطلب قدرا غير قليل من الوقت والمال ، وهو ما يداخلنا شك كبير فى أنه كان ميسورا لبطلميوس فى السنوات الأولى من عهده وسط انهماكه فى مشاكل حيوية بالنسبة لكيان ولايته على نحو ما أوضحنا تفصيلا فى معرض الكلام عن سياسته الخارجية وعلى نحو ما سنعرض له اجمالا .

(ثالثا) أن تصرفات بطلميوس منذ حضوره الى مصر اذ تدل على تحديه للسلطة المركزية فى الامبراطورية المقدونية تحديا سافرا ، تدل أيضا على : (١) رغبته فى الاستقلال بحكم ولايته وتأمين سلامتها وهى الرغبة التى تطورت الى الاستقلال بهذه الولاية وجعلها دولة قوية مستقلة . (٢) صدق تنبؤه بنشوب صراع محموم محتوم نتيجة لتضارب أطماع خلفاء الاسكندر الأكبر .

وكان من شأن ذلك كله أن يبذل بطلميوس قصارى جهده لتأمين مركزه في مصر عن طريقين : وأحدهما هو اجتذاب أكبر عدد ممكن من الاغريق وأشباههم الى مصر لبناء قوة يستطيع الاستناد اليها في حكم ولايته وفي الذود عن حياضها وتأمين سلامتها وكذلك في ضمان هذه السلامة بالاستيلاء على ملحقاتها الطبيعية والسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر . والطريق الآخر ، هو استرضاء المصريين قدر الطاقة وتفادي الاقدام على ما قد يستنفرهم منه مما يؤدي الى زغزعة مركزه قبل أن يشند ساعده ويدعم مركزه بمساندة القوات الاجنبية له .

وما لاشك فيه : (١) أن بناء قوات بطلميوس واستيلائه على الملحقات الطبيعية لمصر والسيطرة على الطرق البحرية المؤدية اليها لم تقتض تكاليف طائلة فحسب بل أيضا فترة من الوقت غير قصيرة . (٢) أن منف بموقعها الداخلي وتحصيناتها القوية كانت أكثر أمنا من الاسكندرية الواقعة على شاطئ البحر ، قبل تحصينها بأسوار منيعة وتأمين سلامتها بقوات بحرية كبيرة . (٣) أن قيام بطلميوس بنقل عاصمته سريعا من مدينة منف المصرية العريقة الى مدينة الاسكندرية الاغريقية الحديثة ، بما ينطوي عليه ذلك من جرح مشاعر المصريين ، كان لا يتماشى مع السياسة التي اضطرت ظروفه الى اتباعها في بداية عهده ، وهي سياسة استرضاء المصريين ، لكي يجنحوا الى الهدوء والسكينة وينصرفوا الى استغلال موارد البلاد الاقتصادية ، وما كان أحوج بطلميوس عندئذ الى استتباب الأحوال في البلاد والى الحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال .

وفي ضوء هذه الاعتبارات لعله لا يكون من الاسراف في الرأي القول بأن

سبب تلك الدعاية السياسية التي انطوت عليها محتويات نصب الوالى كان نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية وهو الأمر الذى رأينا كيف أن خبر اعلانه شفع بالتلويح بحكمة بطلميوس وبراعته القتالية وضخامة قواته العسكرية وروعة انتصاراته الخارجية ، وغلف بمظاهر عطفه على الديانة المصرية وبإظهاره أنه من طراز يماثل طراز الزعيم الوطنى خبائش ويختلف كل الاختلاف عن طراز ملوك الفرس ، أى أن خبر اعلان انتقال العاصمة الى الاسكندرية غلف على نحو ما يغلف قرص دواء مر الذاق طبقة من السكر ليستسيغ المريض تعاطيها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن أول عملة سكها مؤسس أسرة البطالمة وتحمل نقشا مؤداه « عملة اسكندرية فى عهد بطلميوس » (Alexandreion Ptolemaiou) ترجع الى عام ٣١٢ / ٣١١^(١) . وتبعاً لذلك فانه فى ضوء معلوماتنا الحالية لانستبعد أن بطلميوس لم يتخذ الاسكندرية عاصمة له الا فى عام ٣١٢ / ٣١١ بعد الانتصار الباهر الذى أحرزه عند غزة فى حملة ذلك العام ، وأفضى الى استعادته جوف سوريا وكذلك الى استعادة سلوقس ولاية بابل ، حيث أصبح شوكة غليظة فى جانب اثيجونوس وهو الذى كان أكبر خطر يهدد بطلميوس منذ عام ٣١٦ .

يتضح من هذا النظام اذن أن البطالمة لم يتوسعوا فى انشاء المدن اليونانية المستقلة فى مصر ، ولم يكن ذلك مستغرباً لأنهم أخذوا بمبدأ حكم مصر حكماً مستقلاً ملكياً مطلقاً مما قد يتعارض مع وجود المدن المستقلة بكثرة . ومع ذلك فإن المدن الثلاث التى لدينا عنها بعض المعلومات تحت

(1) Svoronos, *Ta Nomismata tou Kratou ton ptolemaion*, II, no. 32 III, *Pin.* II, 10 - 11 ; Fraser, II, p. 11 .

حكمهم لم تكن مستقلة بالمعنى الصحيح فرغم تمتعوا بمظاهر نظم الحكم المحلي ، إلا أن الملوك البطالمة مارسوا سلطانا قويا مكنهم ان يجعلوا هذه المدن تسير على نحو يتفق وسياسة البطالمة فى الحكم المركزى المطلق .

أما عن نظم هذه المدن ، فكان لكل منها هيئة من الموظفين يتمتعون بمواطنه المدينة . وفى الاسكندرية وبطلمية أنفسهم السكان الى قبائل واحياء حسب النظام الآتينى كما كان لكل مدينة نظمها السياسية الخاصة يتمتع المواطنون فقد يحق ممارستها دون سائر الاهالى فللكل مدينة هيئة من الموظفين . أو الحكام ينتخبهم المواطنون من أنفسهم ، والى جانب الموظفين وجد مجلس الشيوخ يسمى بولى ، وجميعه تضم المواطنين جميعا وسميت اكليزيا . وعن طريق هؤلاء الموظفين وتلك المجالس التشريعية كانت كل مدينة تدبر شعونها بنفسها . واهم واجبات المسئولين فى المدينة هى التربية والتعليم والتموين .

وكان للمدينة اليونانية فوق ذلك قانونها ومحاكمها الخاصة بها ، وثبتت وثائق القرن الثالث ق.م أن مدينة الاسكندرية تمتعت بمثل هذا القانون وتلك المحاكم . ولا بد أن المدن الاخرى كان بها نظامها القضائى ايضا ولكنها لم تكن جادة فى سن قوانينها وتنظيم قضائها كما يتراءى لها ، بل كانت هذه القوانين والنظم تصدر عن الملك شخصا ودونه ان يكون للمدن أى اختيار .

وما تمتعت به هذه المدن أيضا أن كل مدينة اقطعت بواسطة الملوك مساحة من الأرض الحقت بها ، ويتمتع المواطنون بحق امتلاكها وكانت

هذه الأرض أهم مصدر لميزانية المدينة .

هذه أهم مظاهر الحياة المدنية في عصر البطالمة ورغم سلطان الملوك القوي والقيود الكثيرة التي فرضت على المدن بحيث جعلت فكرة المدينة اليونانية ظاهرية فقط لامتني لها في الواقع ، كان مواطنو هذه المدن شديدي الاعتزاز بالانتماء اليها ، وكانوا يعتبرون ذلك شرفا يفوق منزلة سائر اهالي مصر الذين كانوا رعايا مباشرين للملك .

وما من شك ان مدينة الاسكندرية كانت أهم هذه المدن جميعا ، وذلك للظروف المختلفة التي جعلت منها عاصمة الدولة وأكبر مركز تجارى وصناعى فى العالم وزاد من اهميتها ومجدها وجود المكتبة والموسيون بها . وقد اهتم الملوك بالاسكندرية واسبقوا على مواطنيها الكثير من الامتيازات حتى اصبحوا فى واقع الأمر أرقى واغنى طبقة بين سكان مصر جميعا .

الديانة الجديدة :

احتل الدين مكانة كبيرة فى المجتمع المصرى القديم ، وكان لا بد ان يولى البطالمة عناية خاصة نظرا لتعدد تكوين المجتمع المصرى فى ذلك الوقت فهناك المصريون بعقائدهم وتقاليدهم القديمة الموروثة ، وهناك أيضا الاغريق بألهتهم وعاداتهم الدينية المختلفة ثم العقائد الدينية الاخرى التى عرفت طريقها الى مصر فى العصر الفارسى السابق .

ونجد أن السياسة البطلمية الدينية كانت تدور حول محاور ثلاثة وهى :
اقامة عبادة الملوك للاسكندر ولانفهم من بعده ، استحالة واسترضاء المشاعر الدينية لدى القسمين الاساسيين فى المجتمع وهما المصريون والاعريق واخيرا اتخاذ الاله جديد لدولتهم وهو الاله سيرابيس .

لقد نشأت عبادة الملوك في عصر بطليموس الاول . وقد ابتدأت بتقديس الاسكندر رسميا وعين له كاهن خاص تهرخ باسمه الوثائق الرسمية في حين أصبح الاسكندر ملكا لمصر صارا في نظر المصريين ملكا موالها وابنا للاله امون رع .

وكذلك بطليموس وسلالته ، وقد اصبحت عبادة الاسكندر عبادة رسمية في الدولة وجملت هذه العبادة الرسمية الملك بطليموس فيما بعد . ولكن هذا التقديس لم يأخذ الصفة الرسمية في مصر طيلة حياته ، ولكن بعد وفاته اعلن الملك بطليميوس الثاني تأليه والديه تحت لقب الالهية المنقذين .

واصبحا يعبدان مع الاسكندر . وهكذا انشأت عبادة ملوك البطالمة بصورة رسمية وأصبحت بعد ذلك عبادة الملوك شيئا طبيعيا مع حدوث بعض التغيير وهو عبادتهم في حياتهم وليس بعد وفاتهم . ولقد وجدنا تأكيدا لهذه العبادة وتدعيمها لها ولانتشارها ان هؤلاء الملوك المؤهلين حرصوا على تصوير انفسهم على العملة مع كتابة النقوش الدالة على تأليهم عليها .

أما ثانيا هذه المحاور فهو استعماله واسترضاء المشاعر الدينية عند كل من المصريين والاغريق . بالنسبة للمصريين فنجد احترام للالهة والديانة المصرية عن طريق الاحتفالات التي اقامها البطالمة للالهة المصرية واعادة التماثيل والكتب المقدسة الخاصة بالمعابد المصرية التي كان الفرس قد استولوا عليها . كذلك بنى البطالمة المعابد للالهة المصرية . أما بالنسبة للاغريق فان البطالمة اهتموا بانشاء علاقات قوية بينهم وبين أهم مراكز العبادة

فى بلاد الاغريق عن طريق ايفاد بعثات للاشتراك فى الحفلات الدينية
وتقديم القرابين لهذه الالهة واقامة حفلات دينية للالهة الاغريقية مع اظهار
اسمى صور التكريم وكذلك انشاء المعابد الاغريقية فى انحاء مصر .

أما المحور الثالث فقد كان اتخاذ الة جديد للدولة الطلمية هو
الآله سيرابيس . ويحدثنا بلوتارخ⁽¹⁾ بأن بطلميوس الأول كون لجنة من
علماء الدين من بين اعضائها الكاهن المشرى مانيثون والكاهن الاغريقى
تيموتيوس . وقد استقر رأى اللجنة على ديانة جديدة تتألف من سيرابيس وهو
كبير الالهة - وايزيس وهاريوخراتيس ، كما قامت اللجنة بتنظيم شئون هذه
الديانة .

وترجع نشأة العبادة الجديدة الى آله مصرى فى مدينة منف وهو
اوزير جابى الذى يمثل ما يعرف بعجل الاله حابى (ارايس) عند موته
ولتحاده بالاله اوزيريس . وحيث أن عبادة هذا الاله فى منف كانت قد
شاعت بين العناصر الاجنبية وخاصة اليونانية المستقرة فى المدينة من قبل
الاسكندر حين تقرر ان يصبح اوزيرحابى هو الاله الرسمى الجديد للدولة
البتلمية ، واتخاذ الاسكندرية مركزا جديد له ، تقرر ايضا ادخال بعض
التعديلات على شخصية وملامحه ليصبح مقبولا لدى الاغريق .

(1) Plutarch, De Jsi. et os. 28 .

وقد استقر الرأي على أن يصبح هذا المعبود المصري الاغريقي سيرابيس " حاملا لصفات الاله المصري اوزيرحابي ولكن في هيئة تشبه الاله زيوس . أى تمثيله في صورة انثائية لا بد من عبادة العجل ، ذلك لأن الاغريق عموما لم يكتفوا عادات المصريين في تمثيل آلهتهم في صورة حيوانية وكان الاغريق يقيمون له تلبقا اغريقية بينما ظل المصريون الذين لم يروا فيه سوى الههم - اوزيرابيس (العجل ابيس) فقد ظل بالنسبة لهم لها مصرا صميما في شكله وصفاته وطقوسه . وان اشتراك المصريين والاعريق في عبادة هذا الاله بعد في حد ذاته شاهدا على مهارة بطليموس الأول في استخدام هذه العبادة للربط بينهم .

وقد أصبح معبد سيرابيس في الاسكندرية هو المعبد الرئيسي لهذه العبادة ومركزا لاشعاعها الى بلدان البحر الابيض المتوسط . ووجد معبد آخر في

(١) اختلفت الآراء حول أصل سيرابيس ، وزاد ذلك من الغموض الذي احاط به وربما كان هذا الغموض هو الذي أعطاه قوة .

Bevan, op. cit. 48 - 47 .

- وقد ظل الاصل الذي اشتقت منه هذه العبادة محل نقاش وخلاف كبيرين ففي كتابات المؤرخين القدماء ان بطليموس الاول يرجع أصل العبادة الى مصدر أسبوي وفي اخر فان سيرابيس يرجع الى أصل بابلي .

منف^(١) وسرعان ما خلعت على الاله الجديده الصفحات الالهية المتعدده .
فهو الاله المنفذ واله الشفاء والخصب والحياة الثانية .

ولم تلبث هذه العبادة ان انتشرت خارج مصر بشكل واضح . وقد أثر هذا الانتشار الى حد أن أصبح سيرابيس هو الاله الذى يرعى الامبراطورية البطلمية وكان ظهور هذا الاله خارج مصر بشكل نجاحا كبيرا للبطالمة وبمظيم هيبه من شأنها تدعيم مركز هؤلاء الحكام . فى المجال الدولى ، بل يؤكد لنا المؤرخ « بل »^(٢) ان الهدف الاساسى من نشر هذه العبادة كان لاستخدامه فى المجال الدعائى الدولى .

ويمكننا اخيرا أن نضيف ان الاله سيرابيس ظل نحو قرناً ونصف تقريبا من تاريخ الدولة البطلمية الها رسميا لكنه بعيد عن قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية حتى اذا كان النصف الأخير من العصر البطلمى وجدنا هذا الاله يزداد شعبية تدريجيا ويصبح فى العصر الرومانى أهم الالهة المصرية جميعا واشهرها ويبدوا أن هذا التحول فى شعبية سيرابيس لم يحدث الا بعد ان استعاد شخصيته المصرية فى معبد الاسكندرية واقامت له فى المعبر تماثيل على هيئة العجل ، وأكبر دليل على صحة هذا التفسير هو عشورنا على

(١) من خلال مجموعة كبيرة من الوثائق البريدية التى عثر عليها فى معبد سيرابيس أو السيرابيون بجوار منف يتضح تأثير هذا المعبد العظيم على الحياة الاجتماعية للمدينة فقد كان هذا المعبد بمثابة مركز ادارى كبير . وظهر به نوع من التصوف الدينى داخل المعبد . وكذلك وجدت به أيضا مجموعات إحدى كثيرة لجأت الى معبد للاحتماء به من ظروف الحياة الصعبة ومن هؤلاء بطليموس التاسك الاغريقى ، والتوأمان اللتان عذبتهما زوجة الاب ، وهيرافلبها التى حاولت ان تحمى نفسها من العبودية لجأت الى حماية الاله والمجرمون الهاريون من السجن وآخرون - هاربون مع دفع الضرائب وضمن أخرى كثيرة انظر هذه الوثائق فى U.P.Z.T.

(2) Bell, Egypt, p.40 .

تمثال كامل من الجرانيت الاسود للعجل أيس في موقع معبد السيرابيوم
بجوار عمود السوارى^١

سياسة البطالة الدينية :

لقد عرفنا كيف كان البطالة يعتبرون أنفسهم سادة مصر بحق الفتح ،
لكن لكي يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم
كذلك على حق الملوك الالهى ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين
كافة رعاياهم ولذلك كان التسامح الدينى أبرز ما تتصف به سياسة البطالة
الدينية بوجه عام .

١- اتخاذ صفات الفراعنة :

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض
والسيد المطلق . فقد كان من الأفضل أن يتخذ البطالة صفات الفراعنة ،
ليتمتعوا بمكانتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء
المصريين ويصبغوا مركزهم بصيغة شرعية . ولاسيما أن الاسكندر الأكبر
كان قد رسم نفسه فرعوناً فى منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة
التي درج الفراعنة على حملها .

وقد اتخذ البطالة صفات الفراعنة بالتدريج . فقد حمل بطلميوس الأول
بعض القاب الفراعنة التقليدية ، وأن بطلميوس الثانى والثالث قد حملا هذه
الألقاب جميعا .

ويستخلص من القرار الذى أصدره الكهنة فى منف عقب موقعة رفع أن

(1) Breccia, Aleandria ad Aegyptum.

بطلمبوس الرابع قد ذهب الى مدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة القلب الفراعنة التقليدية بل أنه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يفتى سائر البطالمة المتأخرين أثر بطلمبوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضامفا وممولون على نمالة المصريين .

٢ - احترام الديانة المصرية :

وإزاء رغبة البطالمة الملحة في أن يظهرُوا أمام المصريين في ثوب الفراعنة الحقيقيين اعترفوا بالديانة المصرية دينا رسميا ، وسمحوا للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكن يشبوا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية حلوا حذر الفراعنة في تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئين اليها ، واتشاء المعابد والهياكل أو اصلاحها وزخرفتها ، وتصوير أنفسهم على جدرانها وكذلك على النقود والأحجار الكريمة في شكل آلهة مصرية .

ان نبوءة مثل نبوءة « صانع الفخار » التي تحدثت عن تحرير الوطن واجلاء الاجانب واعادة العاصمة الى منف واقامة فرعون وطني لتعتبر تعبيرا بليغا عما كان يجيش في صدور المصريين من الآلام والأمال وتصور لنا حقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد . وان دلت هذه النبوءة على شيء فهي تدل على أنه مهما أنفق البطالمة من جهد في الظهور أمام المصريين في ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فإن قلوب المصريين لم تطمئن اليهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين ولم تر في الاسكندرية عاصمة البلاد .

وفلا عجب أن كان المصريون يتوفون الى فرعون وطنى يقيم فى عاصمة
وطنية بعد أن يحرر الوطن من معتصبيه الأجانب .

٣- موقف البطالة من الكهنة المصريين :

كان رجال الدين المصريين يحتلون مركزا رفيعا وأهمية خطيرة فى حياة
البلاد ، يحسب الملوك حسابهم ويعتبرهم الأهالى مرشديهم ، وزعماءهم
الروحيين ، يستمعون الى نصيحهم وينزلون على إرادتهم . وإزاء ذلك استقر
رأى البطالة على أن يتخذوا منهم أداة لنشر الهدوء والسكينة فى البلاد ،
وذلك فانهم حين أظهروا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية استنوا من
النظم ما يكفل تقليد أظافر رجال الدين وخضوعهم لهم . وقد كان العامل
المادى من أهم الوسائل التى لجأ اليها للحصول على طاعة القساوسة فانهم
اسندوا ادارة أراضى المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة التى
كانت المعابد تجبيها من زارعى الكسروم والفاكهه والبقول ، والغوا
احتكار المعابد وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكى يقللوا من قسوة
الكهنة ويسطوا لهم ايديهم أو يكفوها تبعا لموقف الكهنة منهم .

وبين أن تضيق الخناق على الكهنة قد زج بهم فى صفوف الشوارما
حدا بالبطالة الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بثتى الوسائل . ومع
ذلك يبدو من تجويد المنح للكهنة فى عهود مختلفة بل فى العهد الواحد
نفسه أن الكهنة لم يفلحوا فى استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التى
كان البطالة الأوائل قد «لبسوها اياها . وذلك لأنه عندما ضعفت السلطة
المركزية وفسدت الاداة الحنومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل
الموظفين على تنفيذ قراراتها .

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا وأشياء ازاء سياسة البطالة نحوهم ،
اذ حين كانت العلاقات متوترة بين البطالة وكهنة آمون فى طيبة
كانت العلاقات حسنة بين البطالة ومنافسى اولئك الكهنة ولاسيما كهنة
منف .

٤ - احترام الديانة الاغريقية :

وقد كان البطالة مثل غيرهم من المقدونيين اغريقيا فى كل نواحي
حياتهم ، فى ثقافتهم وديانتهم والى حد كبير فى أسمائهم ، بل أنهم ادعوا
أنهم من سلالة الآلهة الاغريقية . وازاء عواطفهم الدينية وأصلهم السماوى
الاغريقى وتعاليمهم الاغريقية ، كان طبيعيا أن يظهروا احترامهم للديانة
الاغريقية ويعترفوا بها ديانة رسمية فى دولتهم .

وفضلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسى له وزن كبير فى نظر
البطالة ، فقد كانوا فى حاجة الى رجال رؤوس أموال من بلاد الاغريق
لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب
عطف الاغريق ، بأن يظهروا أمامهم فى توب حماة الحضارة الاغريقية ، وان
يثبتوا للملأ أجمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكتف البطالة بالاعتراف
بالديانة الاغريقية دينا رسميا فى مصر بل ادخلوا عليه شتى مظاهر العطف ،
فشيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحوا الضياع لمعابدها ، وأباحوا للاغريق حرية
اقامة شعائرها ، واقاموا صلوات وثيقة مع أشهر مراكز العبادة فى بلاد
الاغريق . وأنشئوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الأوليمبية أو
الحفلات الآثينية .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات البطولوليمايا التي أنشأها بطلميوس
الثانى تخليداً للذكرى أبيه المؤلمة .

٥- الاغريق والديانة المصرية :

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام بسبب
قدم عهدها وغموض اسرارها . ودرج الاغريق على تشبيه الآلهة المصرية
بالآلهة الاغريقية . لكن مما لاشك فيه أن هذا التشبيه لم يكن الا تشبيها
سطحيا لم ينفذ الى اعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة
المصرية مكان الآلهة الاغريقية . ولذلك نجد أن الاسكندر الأكبر والبطالمة
شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق والهة المصريين وتشير القرائن الى
أن اغريق مصر سواء أكانوا ينزلون فى مدن مصر الاغريقية أم فى خارج تلك
المدن قد استمسكوا بعبادة آلهتهم القديمة ، زيوس وهيرا وديمتر وأفروديتى
وغيرها ، ولعله قد ساعد على استمساك الاغريق بآلهتهم ، وعدم اقبالهم
بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة فى اشكال تبعد عن
تصورهم لما يجب أن يتوافر فى صور الآلهة من صفات توائم مكانتها الرفيعة
ومع ذلك فان بعض الاغريق ، نتيجة لتلك التشبيهات ، وباعتبارهم نزلاء
فى تلك البلاد التى تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة كسب
عطف هذه الآلهة .

ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت اسماء اغريقية ، كما
عبدوا أيضا بعضها الآخر بأسمائها المصرية ، حين لم تكن لها مرادفات بين
آلهتهم ، لكنها كانت تتمتع بهيبة كبيرة بين المصريين استرعت أنظار
الاغريق .

ولا يبعد أن تعبد فريق من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو ادى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية .

وإذا كان بعض الاغريق عبدوا الآلهة المصرية ، الا أنهم لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية .

ومن ناحية أخرى استمسك المصريون على الدوام بدياناتهم ، التي كانوا ينامحرون بها ويعتبرون المآله الاغريقية بمرحلة تقدمية لها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من النقص الى حد يستفز مشاعرهم ضد اتباعها ، فلا عجب انه لم يقم دليل واحد على أن الديانة الاغريقية استتوت ولو عددا قليلا من المصريين .

٦- ديانة سيرابيس (الديانة الجديدة) :

لما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والاعريق معا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار النفور الدينى الذى كان هيرودوت قد لاحظته من قبل لا يبد أن يعوق الألفة بين المصريين ، فانه رأى من الضرورى أن يؤلف بين قلوبهما .

بانشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحدة ووثام بين الاغريق والمصريين عندما يشتركون جميعا فى التبعيد الى آلهتها ، وبذلك يدوكون أنهم يتعبدون الى نفس الآلهة وانما كل فريق منهم على النحو الذى كان يألفه - ولا يبد من أذ، بطلميوس كاذ، يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة فى أن تخلف ديانة المصريين والاعريق وهذا يفسر ذلك الانتمام الكبير الذى وجهه هو وسلالته الى الديانة الجديدة .

ويحدثنا بلوتارك أن بطلميوس الأول كونه لجنة من علماء الدين المصريين والاعريق لتنفيذ فكرته . وقد استقر رأي اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالثا يتألف من سيرابيس وزوجه ايزيس وانبهما هاربو كراتسن ويتفق الجميع على أن ايزيس وهاربوكراتس كانا الهين مصريين . أما سيرابيس كبير آلهه الثالث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأي السائد أنه كان الاله المصري أوربوس أبيس ، آله العالم الآخر في منف . وعلى كل حال ، فإن آلهة النالوث قدست للاغريق في شكل اغريقية وللمصريين في شكل مصري يبدو التباين بينهما في أجلى صورة في حالة سيرابيس الذي قدم للاغريق في شكل رجل كهل يشبه عن قرب الاله زيوس وأغدقت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون في شكل المعجل أبيس ، وكان يعرف بعد وفاته باسم اوزيريس أبيس .

وإذا كان بطلميوس الأول هو الذي أنشأ عبادة سيرابيس ، فإن الأدلة الاثرية تثبت أن بطلميوس الثالث هو الذي شيد المعبد الكبير الذي اقيم لهذا الاله في حي راقوده بالاسكندرية على ذلك التل الذي لا يزال قائما حتى اليوم في حي كرموز . وقد ذات شهرة مباني هذا المعبد بما كانت تتضمنه من مكتبة وأروقة تقوم فيها الأعمدة والتماثيل ويؤدي إليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

وقد نجحت الديانة الجديدة ، وفازت بعدد كبير من الأتباع وانتشرت ليس في مصر فقط بل انتشرت في أنحاء البحر الأبيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا - لكن النجاح الحقيقي

لهذه العبادة يجب أن يقاس بمقدار ما أنزلت في تأدية الغرض المنشود من اقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ ان المصريين عبدوا آلهة الثالوث المقدس . ولكن في ثوبها المصرى وابعبارها في عداد الآلهة التي ظلوا على ولائهم لها ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثالوث الآلهة الوحيدة التي يتعبد المصريون اليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدمت لهم آلهته في ثوب اغريقى على أنها نظيرة لآلهتهم الاغريقية .

ومع ذلك وبرغم ما أظهره الاغريق لآلهة الثالوث المقدس من رعاية واحترام فانهم لم ينصرفوا الى عابديتها دون غيرها ، بل ان هذه الألة لم تحتل المكان الاول في عبادتهم . وأية ذلك أنهم حيثما كانوا ينزلون في كثرة ، سواء في مدن مصر الاغريقية أم في خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الاغريقية . ويكاد يكون من المحقق ان الديانة الحقيقية للاغريق طوال عصر البطالمة كانت الى حد عبادة آلهة المدن التي أتوا منها ، والى حد كبير عبادة المذاهب ذات الاسرار التي كانت معروفة في بلاد الاغريق وبين اغريق آسيا وانتشرت في كل أنحاء العالم الاغريقى . مثل مذهب ديمتر ومذهب ادونيس . ومذهب ديونيسوس .

ولاشك في أن الديانة الجديدة قد نمت بمكانة كبيرة لكن لما كانت تلك المكانة نتيجة لايعاء الحكومة وكانت تلك الديانة ديانة مفصلة ، وكان البطالمة قد أباحوا لساكنى رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والاغريقى هي الديانة التي كان يألفها كل من الفريقين .

امتزاج الذكوة

لكى نفهم مغزى سياسة البطالة الدينية ازاء المصريين والاغريق ، ولماذا عمل البطالة على استغلال معتقدات المصريين الدينية فى دعم مركزهم ، ووضع أساسى السلطة المركزية فى مصر ، يجب أن ندرك ان مصر القديمة كانت تعتبر بتقاليدها المتوارثة التى تنظم حياتها العامة والخاصة . وان الاحتفاظ بهذه التقاليد يرجع الى سيطرة الديانة على عقول المصريين القدماء ، فكان لها أثر وأى أثر فى حياتهم . وقد كانت الديانة فى مصر المصدر الذى استمد منه حكام البلاد سلطتهم .

وازاء حاجة البطالة المادية الى الاغريق فى كل مشروعاتهم فان ملوك مصر الجدد فتحوا أبوابها على مصر أعينها للاغريق .

ولا ريب فى أنه ، مصر قد غدت ، منذ الفتح المقدونى ملكة هيلينستية ، الا انها كانت وقبل كل شىء بلدا يعتد بحضارته الفرعونية ونظمه الموروثة . واذا كان البطالة قد شملوا الاغريق بعظمتهم ، فقد كان لزاما عليهم الا يهملوا وألا ينفصلوا عن المصريين ، وكى يفوزوا بولاء العناصر المختلفة ، لجئوا الى ما اتى كشيبة فى مقدمتها بل وأهمها استغناء المعتقدات الدينية السائدة بين رعاياهم .

هذا الى جانب ان البطالة رغم كونهم مقدونيين ، الا أنهم كانوا اغريقا فى كل نواحي حياتهم ، فقد كانوا اغريقا فى ثقافتهم وديانتهم .

وكان شعورهم الدينى باعثا على اظهار احترامهم للديانة الاغريقية الى جانب الديانة المصرية . هذا بالاضافة الى باعث سياسى آخر ، ذلك ان

البطالة كانوا يتطلعون الى لعب الدور الأول فى عالم بحر ايجه ، الذى كان مليئا بالاغريق . ولذلك كانوا دائما فى حاجة ملحة الى الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية .

ومن هنا ندرك أه كان للبطالة سياسة دينية خاصة ازاء تلك العناصر سواء كان منها العناصر الوطنية أو العناصر الاجنبية الأخرى ، تمخضت فى النهاية الى ظهور الاله الجديد ذى الأصل الحضارى المزدوج ، الاله سرايس فى مدينة منف ، وما تبعه بالضرورة ، من تشبيهات أخرى كثيرة بين الالهة المصرية واليونانية ، وجدت طريقها فى مبنى السيرابيون العظيم بجوار منف

يقول بعض المؤرخين ⁽¹⁾ ، ان الاسكندر الاكبر لعب دورا قياديا فى خلق العبادة الجديدة والاله الجديد سرايس ، فانه حينما دخل مصر ذهب الى منف لتقديم القرابين للآلهة المصرية والاله آيس .

ولكن رغم ذلك من الصعب جدا ان نساند هذا الرأى القائل بأن الاسكندر لعب دورا قياديا فى خلق هذه الديانة الجديدة

(1) Otto, Priester und Tempel II p. 261 .

والاله الجديد . ذلك لأن تمثالا لآيس من البرونز^(١) عثر عليه في الدلتا، موضوعا على قاعدة يحوى نقشاً دوريا اهداء الى *Πλαναί* من عمل سوكيديس ، ولعل تاريخه يرجع الى الفترة المبكرة للقرن الخامس ق . م . ، يوضح ان الاستقرار الاغريقي المبكر فى مصر ساعدهم على أن يألفوا عبادة العجل المقدس آيس . ولذلك فإنه من الطبيعى أيضا أن يألف الاغريق عبادة العجل المقدس بعد مماته ليصبح اوزيرابيس ، قبل الفترة البطلمية أو على الأقل قبل تأسيس عبادة سرايوس ووصول الاسكندر

أن بردية تحوى لعنة أرتميزيا^(٢) ابنة أمازيس على والد ابنتها المتوفاة ، وتاريخها يرجع الى نهاية القرن الرابع^(٣) ق . م . توضح هذه النظرية .

ان دعوة ارتميزيا - التى سبقت الاشارة اليها - موجهة ليس الى سرايوس ولكن الى اوزيرابيس والآلهة التى تجلس معه .

(1) Fraser, Ptol. Alex., ch. 5 . p. 250. n. 473: Jeffery Archaic Scripts, p. 355.1

يذكر فيلكن ان تفسير اسم *Ἄρσις* يعتبره الشك لكن على أى حال فان التمثال البرونزى يوضح عبادة يونانية للاله آيس فى القرن السادس ق . م .

U.P.Z.I. p. 25;

Cults. & (2) U.P.Z.I. 1 (IV cent B.c.), s. B. 5103. H.I. Bell, Creeds, pp. 3-4

(3) Fraser, Ptol. Alex., Ch.5. n. 474. U.p.z. I., pp. 97-8

ان هذه السيدة التي تدعى ارتميزيا كانت من أصل يوناني ومن بين الذين يدعون هيلينومفيتس أو كارومفيتس ، وهم من نسل الجنود المرتزقة الذين أحضرهم إسماتيك الأول ، ومنذ عصر أمازيس وهم مستقرون في منف^(١) .

ورغم أنها يونانية الا أنها توجهت بالدعاء الى الاله اوزيرابيس المصري . وفي هذا أقوى دليل على أن الاغريق الفوا عبادة العجل المقدس اوزيرابيس قبل الفترة البطلمية وقبل تأسيس عبادة سرايبس ووصول الاسكندر .

على أى الأحوال لقد نسب القدماء خلق الاله الجديد الى بطليموس سوتر . ويبدو أن بطليموس انشأ هذه العبادة ليبرر سلطته المطلقة في نظر رعاياه الاغريق ، لأنه باعتباره خليفة للاسكندر في حكم مصر ، تصبح سلطته ، بعد تأليه الاسكندر ، مستمدة من مصدر الهى . ويضيف أوتو^(٢) أنه أراد أن يوحد بين قلوب المصريين واليونانيين . ولتوضيح المعقول الذى يقوله فريزر هو أن سوتر في خلقه للعبادة الجديدة كان يهدف الى اعطاء

(1) Diod. 1. 67 :

(2) Fraser, Ptol. Alex., p. 252: .

العنصر اليونانى الها حاميا وهذا ما كانوا يفتقدونه^(١) .

ان خلق العبادة الجديدة بالنسبة لاغريق مصر يجب ألا يجعلنا نتخطى حقيقة هامة ، وهى أن اليونانيين قد اصبحوا فى ذلك الوقت أساسا جوهريا فى ولاية مصر ، فكان لا بد وأن يكونوا أيضا أساسا جوهريا فى طبيعة هذا الاله الجديد .

وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا ان للمصريين ديانة موروثية راسخة القدم ، والاغريق احضروا معهم ديانتهم ومذاهبهم ، الا أن الاغريق درجوا منذ عهد هيرودوت على تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية^(٢) . فلقد تركت الديانة المصرية فى نفوس الاغريق أثرا واضحا بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها . هذا بالاضافة الى أن الاغريق درجوا على اظهار اجلالهم لآلهة البلاد الاجنبية التى يزورونها^(٣) .

وهنا يجب أن نوضح - من خلال ما أمكن العثور عليه من نصوص - أصل الاله الجديد^(٤) وعبادته فى سيرايبون منف ، وأى علاقة نشأت بينه وبين اوزيريس أبيس المصرى . وهل سرايبس اتى من خارج البلاد أو أنه خلق

(1) Fraser, Ptol. Alex., p. 252. H.I. Bell. Cults & Creeds, p. 15;

(2) Herod. II. 42, 123, 144;

(3) H.I. Bell, Cults & Creeds, p. 9;

(٤) ظل الأصل الذى استقت منه هذه العبارة محل نقاش وخلاف كبيرين فى كتابات المؤرخون القدماء ان بطلميوس الاول هو الذى احضر التمثال وهذه العبادة من سيتوبى . وربما كان ذلك باعنا الى تطرق البحث عن مصدر اسبوى ترجع اليه هذه العبادة . وفى قول آخر فان سرايبس كان هو الاله البابلوى شاريسى . U.P.Z.I. pp. 77. ff. ولكن الابحاث الطويلة التى قدمها فيلكن اثبتت غير ذلك

U.P.Z.I. pp. 25-29;.

من اوزيريس أبيس فى منف أو أنه خلق جديد ، ثم قد تسأل لماذا وكيف
اختير اله منف ليكون أصل الاله الجديد ؟ .

عندما فتح الاسكندر مصر اکتسبت مذاهب منف أهمية عظيمة بين
الناس ، فاذا أريد إقامة ديانة جديدة على أسس قوية ، كان لابد من اختيار
معبود هذه الديانة من بين الهه منف . ثم أن منف كانت مركزا من أهم
واكبر المراكز الدينية فى مصر وعاصمة المملكة القديمة ، لذلك كان اله
منف مناسبا ليحتل هذه المنزلة .

ويذكر تاكيتوس^(١) انه فى رأى بعض الناس أن العبادة خلقت فى منف
ونقلت الى الاسكندرية بواسطة بوارجيس الأول . وهذا الرأى يحوى فى معناه
حقيقة ان سرايس يدين بأصله الى عبادة منف .

كان العجل أبيس الحى المقدس فى منف ، يوضع فى هيكل فى المدينة
يدعى أبيون Apeum ويتصل بمعبد بتاح ، وكان يقرب أحيانا فى حياته
بالاله بتاح الاله المحلى لمدينة منف^(٢) . وعند وفاته يشبه أوزيريس ويصير
اوزيريس أبيس أو أوزيريس ، ويعبد فى المعبد الجنائزى ، السيرابيون بالقرب
من منف . وكانت كل مصر تشترك فى الحداد عليه الذى يدوم سبعين
يوما^(٣) . وتقوم بالسويل والبكاء والقرب من الجثة فى منف تزاما منف

(1) Fraser, Ptol. Alex., Ch.5. p. 250. n. 447;.. alii auctore m
eudem ptolemaeum, sedem ex quatransierit Memplim perhi-
bent, inclutam olim et veteris Aegypti columnen.

(2) Ibid., p. 250;

(3) Pliny, N. H. VIII. 71. Lib. I, 84 - 85;

المشهورتان اللتان تمثلان الالهتين الاخنتين ايزيس ونفتيس^(١) .

وفى معبد السيرايبون مكان دفن العجول ، توضع أجسادها المنخطة فى دهاليز تحت الأرض ، قام بنائها أمينوفيس الثالث ووسمها أبسماتيك الأول ، وتشمل نوايت حجرية لاعداد كثيرة من العجول المعبودة . وقد استمرت عبادته فى الفترة اليونانية والرومانية^(٢) .

ويعتبر المتعبدون اوزيريس أبيس اله العالم الآخر ، له شكل بشرى لعله كان شكل اوزيريس جالسا على عرش وله رأس عجل^(٣) . لكن اوزيريس أبيس كان يصور للاغريق فى شكل يناسب آراءهم ومعتقداتهم^(٤) وكما سبق أن ذكرت ، فان اوزير ابيس كان يتمتع بمكانة كبيرة بين اغريق مصر ، قبل الفتح المقدونى وقبل خلق وتأسيس عبادة سرايبس .

ويرى فيلكن^(٥) ان سرايبس كان اله العالم الآثار ، الذى يعبد فى المعبد المقام فوق مقابر العجول المنخطة بالقرب من منف .

لقد كان اله سيرايون منف الها مصرى ، الا أنه فى أحد هياكل هذا المعبد كان يوجد تمثال لهذا الاله فى شكله الاغريقى أى الصورة البشرية التى يقدم بها للاغريق لكي يقبلوا على عبادته . وهذا يوضح أن المصريين والاغريق كانوا يعبدون الاله نفسه دائما ، ولكن فى صورتين مختلفتين تناسب كل صورة منهما معتقدات كل منهما . أى أن سرايبس كان يعبد

(1) Otto, Priester und Tempel. pp. 116-118;

(2) Fraser, Ptol. Alex., p. 250;

(3) Ibid.

(4) Bevan, Egypt, pp. 41-43.

(5) U.P.Z. I. pp. 85 ff.

فى شكله الاغريقى أى الصورة البشرية التى قدم بها للاغريق لكى يقبلوا على عبادته . وهذا يوضح ان المصريين والاغريق كانوا يعبدون الاله نفسه دائما ، ولكن فى صورتين مختلفتين تناسب كل صورة منهما معتقدات كل منهما . أى أن سراجيس كان يعبد فى شكله الاغريقى ، فى نفس المعبد الذى يعبد فيه النموذج المصرى الأصلى . وان برديات هلا المعبد التى ترجع الى سيرايبون واحد ، توضح أنها تنتمى الى المعبد المصرى القديم الخاص باوزيريس آيبس ^(١) .

ولكن رغم ذلك فان ابته ^(٢) يؤكد ان المصريين الاصليين لم يوافقوا موافقة صادقة على سراجيس الذى يحتل الصورة اليونانية للاله أو بمعنى آخر أن هذه الديانة الجديدة لن تجد فى نفوسهم صدقاً .

ولعلنا نجد دليلاً على ذلك فى برديات السيرايبون التى ترجع الى القرن الثانى والقرن الأول ق . م . التى ذكرت اسم الاله اوزيريس ^(٣) كثيراً . ولكى يظهر التأثير الحضارى المزدوج لامتزاج الآلهة المصرية والآلهة اليونانية اضيف لمعبد سراجيس بعض الزخرفة اليونانية لتعبر عن الطبيعة الاساسية للاله الجديد وخاصة ارتباطه مع الاله ديونيسوس اليونانى ^(٤) .

(1) Fraser, Plot. Alex. p. 253 U.P.Z.I. pp. 15ff.

(2) Sethe, Sarapis, p. 15;

(3) Sethe, Sarapis, P. 11;

يرى زيتنه ان اوزيريس المذكور فى برديات السيرايبون يوضح فقط التور المتوفى - بينما سراجيس يوضح اله العالم السفلى . ولكن هذا يصعب تصديقه الا فى حالة واحدة فقط وهى البردية التى تحوى لعتة ارتعيزها حيث انها أى ارتعيزها توجهت بالدعاء الى اوزيريس قبل خلق وتأسيس عبادة سراجيس فان البردية ترجع الى القرن الرابع ق . م .

U.P.Z.I. (IV Cent. B.C.).

(4) Fraser, Ptol. Alex., p. 253;

ولقد لعبت منف دورا هاما في خلق عبادة سراييس⁽¹⁾ . فان الاله سراييس يدين بأصله الى عبادة منف ، فقد خلقت العبادة في منف ونقلت الى الاسكندرية في عصر يوارجيس الأول⁽²⁾ .

ثم بمن قرن الاله سراييس ليقدم الصورة الاغريقية والتعبير الاغريقي للجالية اليونانية ؟

ان صفات سراييس المأخوذة من اوزيريس كآله الجمال السفلى جعلت له شبيهين أو نظيرين يونانيين . الاله الاغريقي ديونيسيوس. وهاديس أو بلوتون⁽³⁾ .

(1) Ibid., Ch. 5. pp. 253 - 254, notes 500, 501;

لعبت منف ايضا دورا هاما في الانتشار المبكر لعبادة سراييس خارج مصر . ففي نصب عشر عليه في ديلوس يرجع تاريخه الى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد . كتبه شاعر غير معروف يطلق عليه مهنسان . جاء فيه : ان جد الكاهن ابولونيوس يعرف بأنه رجل مصرى اتى من مصر حاملا الاله ؛ 4-2 سليا

ثم انه اتى من منف ; 39-37 LL.

(2) Ibid., p. 250;

(3) Fraser, Ptol. Alex., p. 255; U.P.Z.I., p. 30;

عن تشبيه سراييس بالآله بلوتون اليوناني لا يوجد أى دليل له فى النصوص . ولكن فيمكن يذكر انه ربما بعد معرفة ما جاء فى البريدية رقم ١٢٢ التى تذكر ان مزارعا ملكيا تعود ان يحج سنويا الى السيرابون من أسبيل تقديم القرابين للآله سراييس - ربما كان فى ذلك دليلا على ان سراييس اتخذ صفة الخصوبة الخاصة بالاله بلوتون .

ان تشبيهه سرايس بهذين الالهين ناخ من اتحاد سرايس مع اوزيريس أو
بالاصح مع اوزيريس

لقد مزج ديونيسوس مع سرايس . ونستطيع ان نتبين هذه الحقيقة مع
مظهر هام . فقد كان معبد السيرايون فى منف ، مكان خلق وظهور
سرايس ، متينا بسخاء من تماثيل ديونيسوس . فان الدروموس الذى يصل
معبد نكتانبو - من ملوك الأسرة الثلاثين - مع هيكل آيس ، كان محاطا
على الجانبين بمصطبة وضع عليهما تماثيل منحوتة تمثل ديونيسوس طفلا
ومعه الحيوانات المختلفة التى اندمجت فى عبادته مثل الأسد والطاووس^(١) .

هذه المجموعة اليونانية الخالصة ، منحوتة من الحجر الجيرى ، ولكنها
اختلفت تماما وتاريخها يعتره بعض التردد . وربما يرجع الى بداية عهد
البطالة . ويمكن الاستدلال على ذلك من امضاء أحد الفنانين عشر عليه فى
الدروموس ويوضح ان بعض على الاقل من هذه التماثيل يرجع الى هذا
التاريخ^(٢) .

ان أصل سرايس الذى يوضحه اوزيريس ، وعن طرقة أدمج مع ديونيسوس
وهاديس أو بلوتون ، يؤلف العنصر الأساسى فى شكل الاله الجديد المركب .
تطورت العبادة فى منف فى اتجاهات مختلفة كنتيجة للاتحاد المبكر
والدائم مع اوزير آيس .

(1) Fraser, Ptol. Alex., Ch. 5, p. 255, no. 511;

(2) Ibid., n. 512;

ولاكساب سرايبس مكانة عظمتى ، نشر بين الناس ان هذا الاله يقوم بمعجزات عظيمة لأنه يشفى المرض ، وكان من بين من شفاهم أشخاص عظماء . فقبل ان ديمتريوس الفاليري مستشار بطلميوس الأول ، اصابه العمى ولم يسترد بصره الا بفضل سرايبس⁽¹⁾ لذلك ظهر سرايبس فى منف كإله للشفاء ، وهذا ينهض أو يقود الى التشبيه مع أسكليبيوس إله الشفاء لدى اليونانيين . ولذلك وجدت بينه وبين إيمحوتب⁽²⁾ - إله الشفاء المصرى - رابطة قوية ويقول فريزر أن امتزاج إيمحوتب وأسكليبيوس لم يكن امتزاجا قويا واضحا ، بقدر ما كان تقاربا فى الخصائص الوظيفية لكل منهما⁽³⁾ .

وشخصية سرايبس كإله للشفاء واضح من إهداء بطلميوس - آخر ، وهو إهداء مبنى ليخناپسيون⁽⁴⁾ Lychnaption فى السيرايبون . وقد أهداه رجل يونانى من أجل شكر الاله الذى شفاه بعد أن فشلت معه جميع الطرق العلاجية . وهو بناء على الطراز اليونانى وبعد مكانا للمصاييح المقدسة ، ويرجع تاريخه الى بداية القرن الثالث ق . م .

تتضح شخصية سرايبس كإله للشفاء مرة أخرى من بردية من منتصف القرن الثالث ق . م . وهى تحكى قصة « زويلوس » ، الذى وعده الاله بالشفاء من مرضه اذا هو حقق رغبات الاله . وفى نفس هذه الرسالة فهو يحمس إبولونيوس - وزير المالية - بتلبية رغبات الاله حتى يكون سرايبس

(1) Fraser, Plot. Alex., Ch. 5 n. 522;

(2) U.P.Z.I. pp. 38 - 41 ;

(3) Fraser, Plot. Alex., p. 256;

(4) Ibid., Ch. 5, p. 255, n. 498;

كريما معه ويحميه ويحمى صحته .

اذن لقد مزج اليونانيون آلههم أسكابيروس بالاله ايمحوتب^(١) بن بتاح كبير آلهه منف . وفي الواقع لقد ذكر الاله اسكليبيوس^(٢) كثيرا فى برديات السيرابيون فان وجود معبد للاله اسكليبيوس فى السيرابيون يفسر خاصية الشفاء التى اكتسبها سرايس بعد ذلك .

وفى اجدى الوثائق تطلب التوأمتان المقيمتان فى السيرابيون العظيم التمييز الخص بهما من معبد أسكليبيوس لقاء قيامهما بخدماتهما هناك .

أشرك مع سرايس الهان مصريان وهما ايزيس وحرىقراط وهؤلاء الثلاثة كونوا معا ثالوثا مقدسا ، وفى هذا الدليل آخر على الأثر المصرى فى هذه العبادة الجديدة . فان فكرة الثالوث قديمة العهد فى الديانة المصرية ، بل ترجع الى أقدم العصور . كان يوجد فى كل اقليم فى مصر ثالوث مقدس يتألف من أب وأم وابن . وفى منف كان الثالوث يتألف من بتاح وزوجه سخمت وابنتهما نفرتوم ، هذا بالاضافة الى أنوبيس التابع الأمين

(١) ايمحوتب شخصية تاريخية عرف أنه بانى هرم زوسر من الأسرة الثالثة واشتهر بحكمته ومهارته الطبية ومن هنا عبده المصريون فى عصور متأخرة على أنه آله الطب بن بتاح العظيم .

(2) U.P.Z.I. 42 (162 B.C.) L.7.

..45 (162 / 161 B.c) L.17;

46 (162 / 161 B.C) L.16;

57 (161 B.C ?) L 5.

125 (89 B.c) L 9.

الذى ينقل الي اوزيريس أرواح الموتى^(١) .

ومثل سرايبس قدمت ايزيس للاغريق فى صورة اغريقية ، لكنها تختلف عن سرايبس فى أن الشكل الذى قدمت به للاغريق كان أكثر تمصراً منه . اعتقد المصريون فى ايزيس القديمة بينما اليونانيون فى ايزيس الجديدة ذات الشكل الاغريقى^(٢) .

عبدت ايزيس الى جانب سرايبس فى معبد السيرايبون وقد عبدها المصريون واليونانيون كل حسب معتقداته .

واستمرار شخصية العبادات الاجنبية فى منف ، يتضح فى أكثر من نص ، فنجد احتفاظ الالهة عشترت باسمها وعبادتها . داخل السيرايبون حيث عثر على معبد لعشترت هناك .

ويطلق هيرودوت على عشترت افروديت الاجنبية

وهيكل عشترت فى السيرايبون يعد فرعاً من معبد عشترت الذى يوجد فى منف ، ويقع جنوب معبد بتاح فى معسكر الصوريون ، ومعروف من

(1) Fraser, Ptol . Alex., p.259.

(2) U.P.Z.I. P.29.

Wiedemann, Herodot II., P.433, P.S.I.53: (III Cent B.C.)

زمن قديم^(١) وربما بوضع ذلك ان عبادة عشترت في السيرايون كانت عبادة مصرية ذلك لأن الالهة الفينيقية عرفت منذ الأسرة ١٨ . اذن فعبادتها بدأت في العصر الفرعوني وليس البطلمي . وقد مزجها المصريون مع الالهة سخمت كالهة للحرب ، وبالتالي صورت أفروديت على نصب من منف من الاسرة ١٩ كالهة حاملة الدرع^(٢) .

كان هذا مزجا مركبا . فقد مزج اليونانيون عشترت مع أفروديت ثم مزجها ايضا المصريون مع الالهة سخمت وحتحور وايزيس ، على أى الأحوال لقد ذكر معبد عشترت كثيرا فى نصوص السيرايون^(٣) . وهو أيضا يحمل اسم أفروديسيون نسبة الى مزجها مع الالهة أفروديت^(٤) .

لاشك أنه بجانب تلك العبادات التى حافظت على شخصيتها الأجنبية فى داخل هذا المعبد العظيم المترامى الأطراف ، وجدت أيضا آلهة مصرية ، احتفظت باسمائها المصرية مثل الاله بس الذى أقبل عليه أيضا اغريق مصر .

(1) Wiedemann, Herodot II. P.433, P.S.I.531 (III Cent. B. C.).

(2) Petrie, Memphis I.P.8. pl. XV n.37.

U.P.Z.I.5. (163 B.C.)L.9.

6.(162 B.C.)L.8.

7.(163 and 161.B.C.)L.10.

8.(161 B.C.)L.9.

15.(156 B.C.) L.11.

(3) U.P.Z.I.116 (III Cent. B.C.)L.18.

119(156 B.C.) L.21.

120 (II Cent. B.C.) L.6

(4)

U.P.Z.I.P.43 Weber, Terni, p. 131.fn.19.

يوضح ان الالهة بس عبت على انها الالهة السخمت ، لأنها صورت سادة وبالتالي امتزجت مع الالهة افروديت الاجنبية .

ايضا عبت بوياستيس⁽¹⁾ هناك ، حيث يؤكد فيلكن أنه في جنوب
معبد الانوبيون في الجهة اليسارية يوجد مقابر عديدة لقطط وهي الحيوانات
المقدسة لبوياستيس .

من خلال هذا النص يمكن القول ان عبادة بوياستيس وجدت أيضا
هناك . هذا وقد ذكر أيضا الاله آمون وعبادته ، وربما وجدت عبادته أيضا في
السيرايون .

ثم يحدثنا نص آخر بأن ارنوغريس يعمل في السيرايون كمرابي للأبيس .

وبذلك يمكن القول ان عبادة تحوت حيث كانت الابيس قدسة له ،
وجدت طريقها في السيرايون⁽²⁾ .

ثم أيضا عبادة ناويجومنيفيس ، والدلائل والاشارات على ذلك كثيرة -
ففي أحد النصوص يذكر بتزيس انه كان عليه تخنيط
اوزيرابيس واوزير منيفيس . ولأن اوزير آيبس يوجد في السيرايون وليس في
منف لذلك كان بتزيس يقوم بهذه الخدمات في السيرايون .

حقا اذا كنا لم نجد بعد دليلا قويا واضحا على امتزاج الديانتين
الاغريقية والمصرية ، فانه لايجوز الاستنتاج ان كل اله مصري كان له شبيهه
اليوناني . أو أن كل اله مصري كان يعبد في معبده فلا بد وان نجد الى

(1) U.P.Z.I. 43.

(2) U.P.Z.I. P. 42.

جانبه اله اغريقى . فى الواح لقد عبد المصريون الاله سرايس ولكن فى ثوبه المصرى ، ولأنه ايضا بالنسبة لهم كان فى عداد الآلهة التى ظلوا على ولائهم لها . كذلك كان موقف الاغريق من العبادة الجديدة . لقد اعتنق الاغريق العبادة الجديدة لأن آلهتها قدمت لهم فى ثوب اغريقى وأنها شبيهة بآلهتهم . ولقد وجدوا أن تلك الآلهة المصرية لا تفتقر فى كثير من الهتهم ، وكان لزاما عليهم احترام آلهة الارض التى أصبحت وطننا ثانيا لهم .

وعلى كل حال فلاشك أن تشبيه الآلهة الاغريقية بالآلهة المصرية فى المعبد العظيم معبد السراييون بجوار منف ، لم يكن الا تشبيها سطحيا لم ينفذ الى اعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تخل الآلهة المصرية محل الآلهة الاغريقية وهذا ما نستطيع ان نؤكد من أن الاسكندر الأكبر والبطالمة شيّدوا معابد مختلقة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين⁽¹⁾

وظل سرايس نحو قرن ونصف تقريبا منذ خلقه ، الها رسميا بعيدا عن قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية حتى أواخر العصر البطلمى حيث بدأت شعبيته تزداد تدريجيا ، حتى أصبح فى العصر الرومانى أهم وأشهر الآلهة المصرية . وقد اعتنق سرايس شخصيته المصرية فى معبد السيراييون بالاسكندرية فأقيمت له به تماثيل على هيئة العجل التى عشر على واحد منها وهو نمثال كامل جعبل من الجرانيت الأسود للعجل آيس ، ويعود الى زمن الامبراطور هادريان فى العصر الرومانى ومحفوظ فى المتحف اليونانى

(1) Fraser, Ptol. Alex., p.260.

والروماني بالاسكندرية^(١) .

ثانيا - السياسة الخارجية للبطالة :

تتأثر سياسة مصر الخارجية بمجموعتين من العوامل احدهما العوامل الطبيعية التي جعلت مصر أولا جزءا من وادى النيل ، وفيرة الخيرات في بعض النواحي وفقيرة في بعض النواحي الأخرى ، ومصر حلقة الاتصال بين افريقيا واسيا وأوروبا ولذلك كان على مصر أن تسمى لتصرف مايفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ماانفتقر اليه وان يكون لنشاط السياسة المصرية ثلاث جبهات احدهما افريقية والأخرى أسوية والثالثة اوروية أما المجموعة الثانية من العوامل فهي تلك الظروف الدولية التي تتكيف بها سياسة مصر الخارجية^(٢) .

وعلى عهد البطالة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا . اذ أنه حين كانت الحضارات الشرقية أخذه في الاضمحلال كانت حضارة الاغريق تصل الى ذروة المجد وأصبح بحر ايجيه أهم مراكز الحضارة في العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر قبل أن ينظم وراثة العرش وطبيعة الحكم في الامبراطورية وانتهت بأن اقتسمها قواده ، كان لذلك عدة نتائج .

أولا : ان عرش مصر ال الى اسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة .

ثانيا : نشوب صراع عنيف بين هؤلاء القواد دام أربعين عاما ادى آخر الأمر الى قيام ثلاث دول قوية على انقاض الامبراطورية المقدونية : وهي دولة

(1)Breccia, Alexandria ad Asgyptum, p.115.

(٢) د ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر من ٧٣ .

البطالة فى مصر ودولة السلوكيين فى سوريا وبابل ، دولة مقدونيا .

ثالثا : قيام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ، ولاسيما بين البطالة والسلوكيين .

وحين كان خلفاء الاسكندر يتصارعون فى شرق البحر الابيض المتوسط كانت روما تجدد فى بسط سيطرتها على الحوض الغربى لهذا البحر وهكذا ظهر عامل آخر جديد له خطره فى افق السياسة الدولية . ولاشك أن كل هذه العوامل اثرت فى سياسة مصر الخارجية .

ووسط مطامع القواد خلفاء الاسكندر ، كان فوز بطلميوس باستقلال مصر والمحافظة على هذا الاستقلال واحراز مكانة هامة فى السياسة الدولية وكان كل ذلك يتطلب تجنيد جيش قوى وبناء اسطول كبير - كما سبق القول - ولما كانت وفرة المال شرطا اساسيا لبناء الجيوش والاساطيل وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لاتستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، كان لا بد من اعادة تنظيم شئون الادارة للنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الاعمال الواسعة شعر بطلميوس وخلفاؤه بالحاجة الى رؤوس اموال واعوان مخلصين ومعنى ذلك انهم كانوا فى حاجة الى الاغريق لبناء جيوشهم واساطيلهم ولاعادة تنظيم شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد توافرت لديهم رؤوس الاموال وكذلك الخبرة بأحدث الاساليب الاقتصادية ونظم التجارة .

وكذلك الحاجة الى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط

تجارتها الخارجية .

وازاء كل هذه العوامل نجد أن بطلميوس قد انسلخ عن الامبراطورية المقدونية واعلن نفسه ملكا على مصر .⁽¹⁾ استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية⁽²⁾ واستولى ايضا على جوف سوريا⁽³⁾ (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الاقاليم الواقعة على شواطئ اسيا الصغرى فى كيليكييا وكاريا . وذلك حماية لحدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والاخشاب التى تفتقر اليها مصر .

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها جديدا . وعندما تولى عرش مصر بطلميوس الثانى كانت دولته اقوى دولة فى العالم الهيلينىستى وكانت تليها دولة السليوكيين التى كانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر فى بلاد ما بين النهرين وجانبا كبيرا من اسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) وكانت الدولة الثالثة وهى مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الاغريقية فى شبه جزيرة البلقان .

وقد كانت اكل دولة من هذه الدول أهدافها ، أما مصر فان - بطلميوس الثانى كان يشبه الهدف الاساسى نفسه الذى كان ابوه ينشده وهو الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الاول فى السياسة والاقتصاد فى العالم الهيلينىستى .

(1) Bevan op cit.p.27-8.

(2) B ouc he Leclercq lpid. pp.16-17. IBid.

(3) B ouche Leclercq lPid. pp.28ff.

لكن كان طبيعيا الا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا وشواطئ آسيا الصغرى ، لأن ذلك كان يحول دون أن يكون لهم اسطول كبير ويحرفهم منافذ الطرق الهامة الحربية والتجارية والقادمة من امبراطوريتهم الاسيوية فيترتب على كل ذلك ان تصبح دولتهم مملكة شرقية منعزلة عن العالم الاغريقى . وذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة .

كذلك لم يكن فى وسع مقدونيا الاعتراف بسيطرة البطالمة على بحر ايجه لأنه كان يترتب على ذلك حرمانها السيادة على هذا البحر وتبعاً لذلك انتقال السيطرة على مؤنة بلاد الاغريق من قبضة مقدونيا الى قبضة عداء شديدا . وهكذا لم يكن فى وسع بطلميوس الثانى تحقيق اهداف السياسة الخارجية التى وضع ابوه اساسها دون القيام بمجهود عنيف ، وقد تمكن هذا الملك من توطيد حدود مصر الغربية واهتم بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر ، ووطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق اعالى النيل .

كذلك دعم سلطان مصر فى جوف سوريا واسترد ممتلكات مصر على شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي وكان ابوه قد فقدتها فى عام ٣٠٦ ق . م . وازداد اليها ممتلكات جديدة على شاطئ آسيا الصغرى وبسط نفوذه على كريت وعلى بعض جزر بحر ايجه .

غير أن الهزيمة التى نزلت ببطلميوس الثانى فى خلال الحرب السورية الثانية سلبته سيادته البحار وكل ممتلكاته فى آسيا الصغرى وبحر ايجه .

يتضح لنا اذن أن الاتجاهين اللذين ظهرا فى ارض السياسة المصرية على

عهد بطلميوس الاول قد استمررا مسيطرين على هذه السياسة في عده بطلميوس الثاني أيضا .

لكن لعهد بطلميوس الثاني ميزة أخرى ، ففي عهده ، بدأ اتجاه جديد في سياسة مصر الخارجية لأن مصر في عهده كانت أول دولة انشأت علاقات سياسية مع روما⁽¹⁾ ففي عام ٢٧٣ ق . م ارسل بطلميوس الثاني بعثة الى روما تمخضت عن عقد اتفاق بين الدولتين . ومن المحتمل أن الدوافع التي لطمت على بطلميوس الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية لأن الأيونان الغربية كانت تستطيع المساهمة بقدر كبير في رخاء مملكته .

ان السياسة الخارجية التي وضع بطلميوس الاول اساسها وسار بطلميوس الثاني على نهجها اصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الاوائل . وآية ذلك أن بطلميوس الثالث حين ارتقى العرش وضع نصب عينيه تحقيق الاهداف التي أراد ابوه وجده تحقيقها . ولا جدال في أن امبراطورية البطالمة قد وصلت في عهده بطلميوس الثالث الى اقصى اتساعها لكنها لم تكن الا امبراطورية بحرية وليكنه على أن حال نفذ خطوات ابيه في اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب .

وعندما تولي بطلميوس الرابع عرش مصر اعتقد انتيوخوس الثالث ان الفرصة قد سنحت لسلب مصر جوف سوريا ، غير أن بطلميوس اعاد تنظيم الجيش وادمج في قواته عددا كبيرا من المصريين يعزى اليهم الفضل الاكبر في الانتصار في موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م . على جيوش انتيوخوس

(1) C.A.H. VII. p.823.

الآغريقية^(١) وعاد الملك المهزوم ليعمل بنشاط من أجل إعادة ميناء
إمبراطوريته وسلب البطالة جوف سوريا . ذلك الإقليم الذي أصبح منذ عهد
بطلميوس الأول - سببا دائما للنزاع بين هاتين المملكتين .

وقد اتفق المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذي
بلغت فيه دولة البطالة أقصى اتساعها وإومج مجدها . والعهد الذي أخذت
فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب إليها . فقدت أملاكها في الخارج
وترعزع سلطانتها في الداخل وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات إلى أن
انتهى بها الأمر إلى زوال استقلالها .

ويلاحظ أنه منذ موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م حتى موقعة أكتيوم عام ٣١
ق . م قد مرت سياسة مصر الخارجية في ثلاثة مراحل .

المرحلة الأولى :

من موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م حتى وفاة بطلميوس الخامس في عام
١٨٠ ق . م حين أثار مخاوف مصر محاولة أنتيوخوس الثالث لم شمل
إمبراطوريته وتوسيع رفعتها ، عملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما^(٢)
ولكن اضطرابات مصر الداخلية وفاة حكامها شجعت أصحاب المطامع . فانه
في نفس الوقت الذي أحس فيه فيليب المقدوني استقبال بعثة مصرية أوفدت
لتعقد معه معاهدة تتضمن شروطها زواج ابنته من بطلميوس الخامس
ومساعدة فيليب لمصر ضد أنتيوخوس ، عقد فيليب مع أنتيوخوس في
عام ٢٠٢/٢٠٣ ق . م - معاهدة اقتسما بمقتضاها ممتلكات مصر

(1) Polyp. V, 63.

(2) B ouche Leclercq lBld pp.342 ff.

الخارجية^(١) وهكذا سرعان ما فقدت^(٢) مصر ممتلكاتها في آسيا الصغرى وجوف سوريا ولم يبعد لها من ممتلكاتها سوى قبرص وبرقة . فى الوقت الذى بدأ فيه فيليب وانيوخوس الاستيلاء على ممتلكات مصر . اخافت هذه الأطماع روما والرومان لأنهم لم يأمنوا يوما بجانب الدول الهيلينستية الشرقية ، فقد كانت لها تقاليد حرية وموطن اعظم الاختراعات فى فنون القتال ، ولذلك لم يضيع الرومان وقت طويلا قبل ان يشتبكوا مع فيليب ثم انتيوخوس وهزموهما الاول فى عام ١٩٧ ق . م . وذلك بحجة الدفاع عن حرية الاغريق واملاك بطلميوس السلوبة^(٣) .

ولما لم يكن من صالح روما ان ترى مصر قوية شديدة البأس فأنها عندما هزمت انتيوخوس وكان قد استولى على الجانب الاكبر من امبراطورية البطالمة وزعت بمقتضى معاهدة اباميا^(٤) كل ما انتزعت منه بين رودس وبرجام ، لتتخذ منهما اداة لتنفيذ سياستها وتوجد توازنا بين القوى فى الشرق باضعاف مصر وسوريا وتقوية رودس وبرجام ، وكذلك لتنتشر الفرقة والانقسام بين القوى التى كان من الممكن ان تتحد ضد روما بدافع الخوف على كيانها ازاء ازدياد الاطماع الرومانية . ولذلك فان مصر فقدت اغلب ممتلكاتها واتجهت الى روما لحمايتها من انتيوخوس مما أدى الى ضياع استقلالها الذى كانت لاتزال تتمتع به شكلا وفعلا .

(1) Polyp. xv.20.

(2) C.A.. viii. p.p.150-1.

(3) Rostovtzeff, SEHHHW. pp.52ff.

Diod. xxix 10.

(٤) انظر شروط المعاهدة فى

المرحلة الثانية

فهى مند تولى بطلميوس السادس فيلومينور عرش مصر فى عام ١٨٠ حتى وفاة بطلميوس التاسع سوتير الثانى عام ٨٠ ق م

مهدت الظروف فى هذه المرحلة لكى نبسط روما سلطانها الفعلى على مصر وان احتفظت مصر باستقلالها ويرجع تدخل النفود الرومانى فى مصر الى عاملين احدهما عندما عزا انتيوجوس الرابع مصر نفسها ، ولم ينفذها منه الا تدخل روما التى ارعمت الملك السورى على لاسحاب من مصر ورد قبرص اليها

اذ لم يكن فى وسع روما السماح لامبراطورية السليوكيين بالاتساع بحيث تضم مصريين جوانبها لأنه ذلك كان يهدد مركز روما فى شرق البحر الابيض المتوسط . والعامل الآخر هو اشتداد النزاع بين بطلميوس السادس واخيه الاصغر بطلميوس الثامن واتحادهما روما حكما فى النزاع بينهما والذى استغلته روما لتحقيق اغراضها

وبرغم هذه الاحداث الداخلية ، وتدحل النفود الرومانى فان مصر لم تنس جوف سوريا وحاولت مرارا استعمال الاضطرابات التى كانت داخل سوريا لاستعادة هذا الجزء من ممتلكاتها لكنها باءت بالفشل وفضلا عن ذلك بفأنها ايضا فقدت برقة ، اذ أن بطلميوس ثامن (يوارحتيس الثانى) كان قد تنازل عنها لابنه غير الشرعى نطلميوس ايون وهذا اورثها الى روما فى عام ٩٦ ق م

المرحلة الثالثة

عُهِىَ مَدَ وَفَاةَ بَطْلَمِيُوسِ التَّاسِعِ (سُوْتِيرِ الثَّانِي) فِي عَامِ ٨٠ ق . م حَتَّى مَوْقِعَةِ اَكْتِيُومِ فِي عَامِ ٣١ ق . م .

بَلِغَ مِنْ اَزْدِيَادِ نَفُوذِ رُومَا فِي مِصْرَانِهِ مِنْذِ وَفَاةِ بَطْلَمِيُوسِ التَّاسِعِ فِي عَامِ ٨٠ ق . م اَصْبَحَ مِصْرِيهَا مَتَعَلِّقًا بِمِصْرِي الصَّرَاعِ الحَزْبِي فِي رُومَا لِأَنَّ زَعْمَاءَ حَرْبِ الشَّعْبِ كَانُوا يَطَالِبُونَ بِضَمِّ مِصْرِ اِلَى اَلْاِمْبِرَاطُورِيَةِ الرُّومَانِيَةِ اسْتِنَادًا اِلَى وَصِيَّةِ رَعْمُوَا اَنَّ بَطْلَمِيُوسِ الحَادِي عَشْرَ اَوْرَثَ مِصْرَ وَقَبْرِصَ بِمَقْتَضَاهَا لِلْاِمَّةِ الرُّومَانِيَةِ

وَقَدْ بَقِيَ مِصْرِي عَرْشِ بَطْلَمِيُوسِ الثَّانِي عَشْرَ (الزَّمَار) مِتَّارْجِحًا اِلَى اَنَّ اِبْتِنَاعَ تَأْيِيدِ الزَّعِيمِ الشَّعْبِي يُولِيُوسِ قِيَصْرَ بِمَبْلَغِ كَبِيرٍ مِنَ المَالِ فَصَدَرَ قَانُونٌ تَعْتَرَفَ فِيهِ رُومَا بِهَذَا الرَّجُلِ مَلِكًا عَلَى مِصْرَ وَحَلِيفًا وَصَدِيقًا لِلشَّعْبِ الرُّومَانِي . لَكِنْ رُومَا لَمْ تَلْبِثْ اِنْ سَاتَوَلَّتْ عَلَى قَبْرِصَ . وَبِضْمِهَا اِلَى رُومَا بَعْدَ بَرَقَةِ لَمْ يَبْقَ مِنْ دَوْلَةِ البَطَالِمَةِ اِلَّا مِصْرَ ، وَحَتَّى مِصْرَ لَمْ يَبْقَ لَهَا اِلَّا اسْتِقْلَالًا شَكْلِيًا .

وَحِينَ وَصَلَتْ مَكَانَةَ اَسْرَةِ البَطَالِمَةِ اِلَى اَلْاِنْهِيَا، اِرْتَقَتْ عَرْشَ مِصْرَ كَلِيُوبَاتْرَةُ السَّابِعَةُ وَسُرْعَانَ مَا رَأَتْ سُلْطَانَهَا لَا يَمْتَدُّ عَلَى مِمْتَلِكَاتِ البَطَالِمَةِ الْقَدِيمَةِ فَحَسِبَ ، بَلِ كَذَلِكَ عَلَى اِقَالِيمِ لَمْ يَحْلُمَ بِهَا اَحَدٌ مِنَ البَطَالِمَةِ الثَّلَاثَةِ الْاَوَائِلِ لَكِنْ اَلْاِنَ وَعِنْدَمَا لَمْ تَعُدْ لِقُوَّةِ مِصْرَ الحَرْبِيَّةِ قِيَمَةُ تَذَكْرِ اِلَى جَانِبِ قُوَّةِ رُومَا ، وَعِنْدَمَا لَمْ يَعُدْ فِي وَسْعِ اَيِّ مَلِكٍ مِتْرَبِعِ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ اِنْقَادَ دَوْلَتِهِ المِتْدَاعِيَّةِ بِاَيِّ قُوَّةِ يَمْلِكُهَا اسْتِخْدَمَتْ كَلِيُوبَاتْرَةُ فِي السِّيَاسَةِ ، الحَرْبِ سِلَاحَ المَرْأَةِ الفَاتِنَةِ الَّتِي نَمَكَنْتْ مِنْ اسْتِحْدَامِ قُوَّةِ رُومَا اَدَاةً لِتَنْفِيْذِ

اعراضها

ارصى بطلمبيوس (الزمار) بان يتولى العرش من عمده ابنته كليوباترا
المسماة ~~والخبره بطلمبيوس الثالث عشر~~ ، على أن يقوم للثوملثة بتنفية الوصية
والاشراف على ~~مخلفاتها~~ . وبعد وفاته بدأت كليوباترا فى ممارسة الحكم مع
أخيه الاضغر وفى ~~انها~~ ذلك قامت الحرب الاهلية فى روما بين بومبيوس
وقيصر ، فاحتاج الاول الى قوات لمواجهة الثانى ، واستطاع ان يجمع
اسطولا من عدة دول من بينها مصر ، كما طلب مبالغاً كبيرة من الاموال
من بلاد كثيرة .

وفى عام ٤٨ انتصر قيصر على بومبيوس فى معركة فارسالوس ، فلجأ
بومبيوس الى الاسكندرية واثقا انه سيجد الحماية هناك ، ولكن على العكس
من ذلك بيت القائمون بأمر القصد الملكى النية لقتله ، وغرضهم من ذلك
تحاشى غضب قيصر ونشوب قتال بين الطرفين تكون مصر ميدانا له ، وقد
تم قتلة على يد جندى رومانى سبق أن خدم تحت قياد بومبيوس نفسه .

عندما جاء قيصر الى مصر متتبعا بومبيوس ، وعلم بمقتله ، لم يكن
ينوى الرحيل بسرعة منها ، فقد جاء الى اغنى بلاد العالم وهو فى حاجة
شديدة الى المال مؤكدا ان الحكومة المصرية تدين له بمبلغ كبير ولايخالج
أحد الشك فى أنه كان يعوزه المال لمتابعة معركته ضد ابناء ومؤيدى
بومبيوس وقد جاء على لسان الشاعر « لوكانوس » ان قيصر رأى ثروة مصر
بعيون شرهة وقد اعلن قيصر بانه سيبقى فى مصر ليفصل بين الاخوين -
كليوباترا واخيها المتصارعين على السلطة

وقد جمع قيصر بطلمبوس الثالث عشر وكليوباترا المسماة وعلس عليهما

وصية بطلميوس (الزمار) وامرهما ان يعيشا سويا تبعا للتقاليد المصرية
وان يكون الشعب الرومانى وصيا عليهما .

ولكن ماذا كان من أمر الاسكندرانيين (أهل اسكندرية) ازاء قدوم قيصر
الى مصر وظهوره كوصى على الملكين الصغيرين ؟ لقد كان الاسكندريون
يكنون كراهية شديدة للرومان وذلك منذ عهد يوارجنيس الثانى بطلميوس
الثامن عندما كانوا يشعرون بأنه يستمد قوته من تقربه الى الرومان وتزلفه
اليهم . وقد عبروا عن كراهيتهم هذه من خلال عدد من الاحداث . منها
قتلهم للاسكندر الثانى الذى اختارته روما ليكون ملكا على مصر ، وطردهم
لبطلميوس اوليتيس الذى اعتمد على السناتو لتشيبه على عرشه ، وثورتهم
على رايبروس - المرابى الرومانى الذى اقرض بطلميوس (الزمار) الكثير من
الأموال اثناء اقامته فى روما والذى وضعه الملك فى منصب وزير المالية حتى
يوفى ديونه .

أدى سلوك قيصر الى اثاره كل العواطف المعادية للرومان سواء فى
الحكومة أو بين السكان ومن بينهم الفرق العسكرية الملكية فاعلنوا حربا
ضده عرفت باسم حرب الاسكندرية وكان الفوز فيها حليفا لقيصر على
الرغم من عنف المعركة وقوتها . وقد ساعد على الفوز انضمام اليهود اليه .
وبعد الحرب اعلن قيصر على عرش مصر كليوباترا السابعة واخاها بطلميوس
الثالث عشر فى الوقت الذى كان يستطيع فيه ان يضم مصر الى الحكم
الرومانى . ووفقا لرواية سويتونيوس فان السبب الذى منعه من ضم مصر هو
الخوف من أن يتولى حكم مصر عندما تصبح ولاية رومانية حاكم قوى
يستطيع ان يستخدم هذه الدولة المركزية القوية كمركز لاشعال الثورات ضد

روما ، ولا يفوتنا أن نبين ان خوف روما المستمر من هذه الفكرة قد ظهر بعد ضم مصر فى العصر الرومانى . اذ اهتم اول والى لها بأنه يتجاوز حدوده وتم عزله من منصبه لذلك ترك قيصر كلديواترا ملكة على مصر وهو والى من ولايتها له . اذ انه لم يكن هناك رومانى واحد يأمن له قيصر ويجعله حاكما لمصر خاصة فى ظروف الحرب الأهلية وتخطيط ابناء بومبيوس لتكملة معاركه .

وقد اعلن قيصر اعادة قبرص الى الحكيم البطلمي ، وسمى من وراء ذلك الى كسب تأييد الاسكندرانيين اما كلديواترا والى سست منذ البداية الى كسب قيصر الى جانبها فلم تعد تخشى شيئا طالما تحظى بتأييد اعظم الرومان سانا . وطالما تخلصت من منافسيها بطلميوس الثالث عشر بوفاته غرقا وارمينوى الرابعة ترحيلها مع الأسرى الى روما . وقد انجبت كلديواترا من قيصر ابنا دعاه الاسكندريون « قيصرون » بقصد السخرية وليس من المستبعد ان الامال راودت كلديواترا فى أن تصبح اميرة على الامبراطورية الرومانية نفس الامور . الزواج من قيصر . ولكن خابت آمالها عندما بدأت الاشاعات تنتشر فى روما حول رغبة قيصر فى تحويل الجمهورية الى ملكية يجلس على عرشها . لذلك دبرت مؤامرة تم فيها اغتياله واغتيال امال وتطلعات كلديواترا ، فاضطرت الى القناعة بعرش مصر وضمت اقليم الجيوبوس قيصر معها فى الحكم .

انتهت الحرب الأهلية التى قامت بعد مقتل قيصر بفوز اكتافيانوس وماركوس انطونينوس وقد اقتسم الطرفان الامبراطورية ، فكانت الولايات الغربية من نصيب الاول والولايات الشرقية من نصيب الثانى . وقد أرسل

انطونيوس فى استدعاء كليوباترا مستنكرا عدم مساعدتها لهم ضد اعداء قيصر . وقد تجلت مظاهر الثروة والعظمة فى رحلة كليوباترا لتقدم لانطونيوس البرهان على عظم ثروة مصر . وقد التقت مصالح انطونيوس وكليوباترا . فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن ان بمصر معيناً منها لانيصب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها وتحقيق اغراضها ، ومطامعها السياسية .

امضى انطونيوس مع كليوباترا الشتاء التالى ، واسفرت علاقتهما عن ميلاد توامين ، وعلى الرغم من كراهية الاسكندرانيين للرومان الا أن انطونيوس استطاع ان يكسب حبهم . ولعل ذلك راجع الى احترامهم لكليوباترا وقبولهم للمكانة العالية التى اضفتها عليه .

وفى اثناء ذلك عرف انطونيوس عن غزو البارتية للشرق وعن ثورة زوجته الاولى واخيه ضد اوكتافيانوس . وقد لفت نظره الى خطورة الموقف جماعة من الجنود الايطاليين الموجودين بالاسكندرية فسافر فى النهاية الى ايطاليا وكانت زوجته قد توفيت وهناك تم عقد صلح بين انطونيوس واكتافيانوس فى ٤٠ ق . م على أن يظل انطونيوس حاكماً على الممالك الشرقية وان يبدأ حربه مع البارتيين . وضمماناً لتحقيق المعاهدة زواجه من اخت اوكتافيانوس . وقد سرت هذه المعاهدة الرومان فى الوقت الذى اغضبت فيه كليوباترا .

وقد سعت اكتوبريا بعد زواجها من انطونيوس الى الحد من الخلاف بين زوجها واخيها والتقريب بينهما . وفى عام ٣٧ ق . م ذهب انطونيوس شرقاً

لملاقاة البارثيين وقد صاحبتة في رحلته زوجته اكفافيا ولكنه اعادها ثانية الى ايطاليا . وبمجرد وصوله الى سوريا أرسل في استدعاء كليوباترا فقد كان في حاجة الى معونة اغني بلاد الشرق .

ولعل انطونيوس اضطر في ذلك الوقت الى أن يعلن زواجه من كليوباترا ويهبها البلاد التي فتحها في مقابل ان تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها . فقد اهداها هي وابنائها فنيقيا وجوف سوريا وقبرص وجزء كبير من كلسيكيا . وبحصول كليوباترا على هذه الأراضي تكون قد استردت املاكها التي كانت لها أيام ملوك البطالمة الاوليين وبخاصة على عهد كل من بطلميوس الثاني وبطلميوس الثالث وكان الرومان قد استولوا على بعضها في عهد الملوك المستضعفين من هذه الأسرة . ولذلك فانه كليوباترا تستحق ان تقوم بهذا النصر . لأنها استردت املاك مصر ومجدها الذي كان لها أيام اعظم اجدادها .

وقد وصف بعض المؤرخين القدامى كليوباترا بالبقاء واتهموها بالسيطرة الكامل على انطونيوس ويحدثنا ديوكاسيوس بان انطونيوس احب كليوباترا حين رآها . وجعلته يصير وفق هواها . فلم يعد يهتم بالاعمال الاخلاقية ولكن اصبح عبدا للملكة وكرس نفسه لحيبها مما ادى الى قيامه باعمال كثيرة مثيرة للاشمئزاز ولع وصف الكاتب تأثر بللدعاية التي شنها أوكتافيوس ضد انطونيوس . فان كليوباترا لم تكن مجرد محظية أو لعبة في ايدي الرومان . بل لاشك أنها هدفت من علاقتها بانطونيوس الى المحافظة على استقلال مصر وتوسيع حدودها والاحتفاظ بالعرش من بعدها لابنائها ولعل كليوباترا كانت في نظر الكثيرين من الشرقيين رمزا مناومة روما وضمانا للخلاص من

استعبادها .

فى عام ٣٤ ق . م خرج انطونيوس فى حملته على ارمينيا وبعد اخضاعها عاد الى الاسكندرية ليحتفل بمهرجان انتصاره على غير العادة التى تقضى بأن يكون الاحتفال فى روما .

وقد أعلن فى هذا الاحتفال ان كليوباترا ملكة مصر وقبرص وليبيا ووادى سوريا وشاركها ابنتها قيصرون واعلن ان ابناؤه منها هم ملوك وقسم بينهم الولايات الشرقية .

بدأ اكتشافاتوس بعد طلاق اخته من انطونيوس فى حملة التشهير ضده . وارتكز فى هذه الحملة على افعال انطونيوس للممالك الشرقية التابعة للامبراطورية الرومانية على كليوباتره وابنائها ، واحتفاله بانتصاراته كقائد روماني فى الاسكندرية بدلا من روما . وزواجه بزوجة اجنبية وجعله قيصرون وريشا مع امه كليوباترا وكانت نتيجة هذه الحملة ان اعلن الرومان الحرب على كليوباترا ملكة مصر . فأن روما التى لم تخشى أى شعب من شعوب العالم ، آثارها الفزع مرتين طوال تاريخها . كانت المرة الاولى من هانيبال والثانية من كليوباترا .

لذلك كان الرومان يكتنون لكليوباترا الكراهية الشديدة فهى بعلاقتها مع قيصر كانت تسعى الى أن تصبح ملكة على روما فرفضوا أن تتحول الامبراطورية الى مملكة تخكمهم من فوق عرشها الملكية المصرية التى بمقتوها وبخشوها فى نفس الوقت .

فدبروا لاغتتيال قيصر وتمكنوا بذلك من القضاء على احلام كليوباترا والخلاص منها . ولكن ان تعود كليوباترا لتسيطر للمرة الثانية على انطونيوس .

أكبر القواد الرومان والذي يتولى أمر نصف ولايات الامبراطورية - ثم تحمله على توزيع هذه الولايات عليها وعلى ابنائها فكان أمرا مهينا لا يطاق وخيانة علنية لا تفتقر لذلك اعلن اكتافيانوس هو والرومان الحرب ضد كليوباترا عداوة الشعب الرومانى فكانت حربا قوميا ضد الخطر الاجنبى وعلى الرغم من أن كليوباترا قدمت الكثير من الاموال والعتاد والسفن من أجل المعركة ، وعلى الرغم من الجهد الذى بذله انطونيوس فى قيادة الجند ، إلا أن النصر فى النهاية كان حليف اكتافيانوس فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق . م واضطر انطونيوس - وكليوباترا الى الانسحاب والانتحار فى آخر الأمر .

وهكذا انتهت فترة حكم البطالمة بانتحار كليوباترا التى كان طموحها أكبر من طموح الملوك البطالمة جميعا ، فبعد أن كانت مصر على وشك الوقوع فى ايدى الرومان وبالتالي تصبح ولاية رومانية ، أصبح الرومان يخشون بأس الملكة المصرية ويخافون من أن تصبح يوما ملكة على روما نفسها .

وكانت كليوباترا تخطط دائما لتحقيق هذا الأمل بل واعلنت ذلك صراحة ولكن شاءت الاقدار أن يحالفها سوء الحظ مرتين ، واضطرت الى أن تضع حد لحياتها وخاتمة للعصر البطلمى الذى امتد طيلة ثلاثة قرون وتحولت مصر من دولة مستقلة تحت حكم البطالمة الى ولاية رومانية تتبع امبراطور روما . ولكن كليوباترا بقيت اسطورة ترددها اللسان فى كل مكان ويستلهمها الكتاب والشعراء على مر العصور .

الفصل الرابع

معالم النظم والحضارة في مصر

العصر البطلمي

البناء الاجتماعي

أ - البناء الاجتماعي :

من التادر أن نجد مجتمعا متحضرا خاليا من الاجانب في أى فترة من فترات تاريخه ، فمصر الفرعونية كما سبق القول - كانت قبلة انظار الشعوب واستقر بها خليط غريب من السكان ينتمون الى شتى الأمم القديمة ، كما حدثنا هيرودوت⁽¹⁾ في كتابه حيث قال « ان بنصر صوريين وقورينانيين وليبيين ويونانيين وفارسيين وغيرهم » .

يقابلنا في مصر تأثيرات ذلك الاختلاط والامتزاج الاجتماعي ، لهذا كان من الضروري معرفة نبذة صغيرة عن تلك المجموعات التي حضرت الى مصر قبل تأسيس دولة البطالمة ، والتي كان من شأنها ان اثرت على طبيعة تكوين مجتمع منف ، وطبيعة الاعمال التي كانوا يقومون بها .

يمكن ارجاع تاريخ استقرار العناصر اليونانية الأولى في مصر الى القرن السابع قبل الميلاد حين اتخذ منهم بسماتيك جنودا مرتزقة⁽²⁾ .

ثم كان احتلال الفرس لمصر مدة قرنين ، ولذلك كان من المسلم به انهم وجدوا في مصر بل لقد امتزجوا مع المصريين هناك⁽³⁾ .

وحيثما دخل الاسكندر الأكبر مصر في ٣٣٢ ق . م وجد بها عناصر اجنبية مختلفة . واقدم الوثائق البردية⁽⁴⁾ التي حدثتنا عن هذا الامتزاج الاجتماعي هي ما يطلق عليها لجنة ارتميزيا . وتاريخ الوثيقة يرجع الى القرن الرابع ق . م . وارتميزيا صاحبة الرسالة كانت من اصل يوناني ومن بين

(1) Herod. 11 . 112.

(2) F. Kienitz. Die Politikk Geschichte, Agyptens, P. 36.

(3) Herod., 111. 97.

(4) U.P.Z. 1 .

الذين يدعون هليينومفيتس ، أو كارومفيتس ، وهؤلاء من نسل الجثود المرتزة الذين احضرهم بسماتيك الأول ، ومنذ عصر اماريس وهم مستقرون في منف .

من ذلك يمكن لنا استنتاج طبيعة تكوين المجتمع المصرى قبل تأسيس دولة البطالمة فمنذ هذه الفترة استقر خليط عجيب من العناصر الاجنبية فى مصر ثم نجد ان مجتمع مصر فى العصر البطلمى يضم الى جانب المصريين وهم العنصر الاصلى للوطنيين ، هليينين وفارسيين وفينيقيين وطراقيين ويهود ومقدونيين وغيرهم .

فان الفترة البطلمية خلقت عالما جديدا وحضارة جديدة نشأت من اتحاد عناصر شرقية بعناصر غربية ويمكن القول ان اتحاد كل العناصر البشرية الموجودة. لم يكن فقط اتحادا سياسيا ، ولكنه كان امتزاجا لحضارة الشرق والغرب وامتزاجا اجتماعيا بين الشعوب .

رغم كل ما امكن معرفته عن هذا الامتراج الاجتماعى وعن المجتمع المصرى شديد الاختلاط ، لكن لسوء الحظ ليس لدينا احصاءات نوعية عن كل عنصر من هذه العناصر يبين نسبة عدد بعضها الى بعض ، ولا النسبة العددية بينهم وبين المصريين^(١) .

وكل ما لدينا من الاحصاءات هو رقم اجمالى عن عدد سكان مصر ، فيذكر جوزيفوس الذى عاش فى بداية العصر الرومانى ان عدد سكان مصر - عدا أهل الاسكندرية الذين كان لهم سجل خاص بهم - هو سبعة

(١) د . مصطفى المبادئ : مصر من الاسكندر الأكبر ص ١٠٩ وما بعدها .

ملايين ونصف مليون سمة ونحن نستطيع ان نتق في صحة هذا الرقم نظرا لأن الادارة اليونانية والرومانية كانت تحتفظ باحصاءات دقيقة عن عدد السكان ، كما كانت تسجل المواليد والوفيات بانتظام نظرا لارتباط ذلك بالضرائب التي كانت تجبى على الافراد . ولدينا رقما آخر عن الاسكندرية يسد النقص فى رقم جوزيفوس ، فيذكر ديودور الصقلى ان عدد سكان الاسكندرية من الافرد فى العصر الأخير من الحكم البطلمى هو ثلاثمائة الف شخصا ونحن لانعرف على وجه التحديد ماذا يعنى ديودور بلفظ احرار ولكن اذا - فرضنا انه وجد بالاسكندرية مائتا الف آخرون ممن لم يسجلوا ضمن السكان - ديودور مثل العبيد وبعض الاهالى النازحين من الريف دون ان يكونوا مقيدين رسميا ، ضمن اهالى الاسكندرية فان مجموع سكان الاسكندرية يكون خمسمائة الف شخص تقريبا .

ومن الممكن ايضا ان نعتمد على وثيقة بردية فى محاولة لتحديد عدد سكان منف العاصمة القديمة دون التقيد بنوعية العناصر المكونة للمجتمع نفسه لصعوبة تحقيق ذلك .

هذه الوثيقة يرجع تاريخها الى سنة ٢٣٥ ق . م جاء بها بيان دخل منف من السمك ، ثم تناولت البردية مصاريف النقل والضرائب حيث ان الصناعة السمكية كانت صناعية محتكرة فى العصر البطلمى .

وهذا ما سجله لنا النص ، ان دخل السمك الذى بيع فى منف يقدر ٣ ثلثات فى الاقاليم ٤٠٠٠ دراخما ، فى الاسكندرية ٨ ثلثات .

ذلك فى الواقع يعد نسبة كبيرة من السمك يتم توزيعها على الاماكن التى جاء ذكرها فى النص ، وخاصة منف والاسكندرية ، فان دل على شىء

فانما يدل على ضخامة سكان تلك الاماكن وعلى مدى عناية واهتمام الدولة بها .

وإذا ما حاولنا مقارنة دخل منف من السمك ودخل الاسكندرية وارجاع ذلك الى النسبة العددية لسكان كل منهما ، نجد أن دخل منف يشكل اقل من النصف بتالنت واحد . وهذا يعد مبلغا كبيرا . وإذا كنا نعرف ان سكان الاسكندرية فى العصر الاخير من الحكم البطلمى يلفوا ٥٠٠,٠٠٠ نسمة تقريبا . اذن قياسا الى دخل كل منهما من السمك يمكن القول بان سكان منف بلغوا تقريبا ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من عناصر بشرية مختلفة فاذا كان هذا الرقم لا يوضح التعداد الصحيح لسكان منف فانه على الاقل يمثل الحد الاقرب الى الحقيقة لسكان منف فى القرن الثالث ق . م وخاصة اننا نعرف من استرابون^(١) بان منف كانت تعتبر المدينة الثانية فى مصر بعد الاسكندرية من حيث عدد السكان الذين كانوا من جنسيات مختلفة .

ولكن لنا أن نسأل الان كيف كانت تعيش تلك الاجناس المختلفة فى المجتمع المصرى ؟ ان هذا العدد الكبير المختلط كان فى حاجة الى تنظيم دقيق . فهل وجد فى مصر نظام سياسى موحد يضم الجاليات المختلفة وينظم شئونها واعمالها ويعمل على الاستعادة منها ؟

نحن لانعرف تفاصيل سياسة البطالمة لاستقدام مهاجرين من اليونان للعمل فى بناء الدولة الجديدة فى مجالات الجيش والادارة والاقتصاد . ومن المحتمل ان بطلميوس الأول لجأ الى اتباع سياسة منظمة لاستقدام مواطنين من المدن اليونانية . مثلما فعل اثينجونوس حينما استقدم مواطنين من المدن

(1) Strabo, xvii, 32.

اليونانية . مثلما فعل انتيجونوس حينما استقدم اعدادا من الاثينيين والمقدونيين ليقمهم في مدينته الجديدة انتيجوبا في سوريا . ولكننا لانمتلك مايفيد ان أحد البطالمة فعل ذلك . ومع ذلك فيبدو ان البطالمة لم يضطروا الى أن يحددوا انفسهم كثيرا ليجذبوا الى مملكتهم الجديدة اعدادا كبيرة من الاغريق وغير الاغريق . فبالاضافة الى الحامية والجالية التي كان قد تركها الاسكندر . والاغريق المستقرين في مصر قبل مجيء الاسكندر فلا بد من بطلميوس الاول عندما عين حاكما على مصر احضر معه قوة عسكرية ايضا . ولكن رغم ذلك فان هذه الاعداد لم تكن تكفى حاجات انشاء الدولة الجديدة ، ومن أجل تشجيع وتنظيم مزيد من هجرة الاغريق الى مصر ، اتبع بطلميوس سياسة كانت معروفة في مصر من قبل وهي منح الجنود قطعا من الأرض تسمى « كليروي » يمكنهم ان يقيموا عليها ويستثمروها بدلا من نظام دفع الرواتب نقدا ، وهو مالم يكن ممارسا في ذلك الوقت . ومن دلائل تطبيق ونجاح هذه السياسة ما يرويهِ ديودور الصقلي ان بطلميوس الاول حين انتصر على ايمرتيوس في معركة غزة سنة ٣١٢ ق . م أسر من الجيش المنهزم ٨٠٠٠ جندي وارسلهم الى مصر وأمر بأن يوزعوا بين النومات . لهذا كانت انتصارات بطلميوس الحربية يجلب له عددا من الجنود المقدونيين والاغريق في حين ان هزائمه لم تكن تفقده الكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الانضواء تحت لواء خصمة وكانوا يحاولون الفرار الى مصر حيث لهم ارض وأهل .

على أى حال لم يجد بطلميوس مشقة في الحصول على اعداد كبيرة من الاغريق فان اشتهار مصر بالغنى واشتهار بطلميوس بالكرم جعل

جماعات كبيرة منهم تأتي الى مصر^(١) .

اذن جاء هؤلاء المهاجرون الى مصر سعيا وراء الثراء وكثير منهم جاء ليحصل على الثروة عن طريق الارتزاق بالجندية ، ولكن اعدادا كبيرة وجدت طريقها الى الارتزاق عن طريق القيام بشتى انواع العمل والنشاط الاخرى فى المدينة ، فمنهم رجال الحاشية الملكية والقصر والموظفون ورجال الفنون والاداب والعلم ورجال التجارة والصناعة واصحاب السفن وكثير من هؤلاء اصبحوا تدريجيا اصحاب ارض منحها لهم الملك - كما سبق القول . أو اشتروها بما اكتسبوا من مال .

فى الواقع ان الاغريق كانوا قد القوا فى بلادهم نظام المدينة اليونانية بحيث كان من العسير عليهم - حتى فى المهجر أن يعيشوا بغير نظام المدينة، وقد فعلوا ذلك فى المستعمرات التى اقاموها لانفسهم فى جميع هجراتهم السابقة الى شواطئ بالبحرين الاسود والابيض . أما فى مصر فلم يشجع الملك البطلمي هذا الاتجاه ، لأن نظام المدينة وما يتبعه من الاستغلال الذاتى على الاقل كان يتعارض مع مبدأ الحكم المطلق الذى اقامه البطلمة فى مصر . ولكن ارضاء لشعور الاغريق القوي بالانتماء الاجتماعى سمح لهم الملك البطلمي بتكوين اتحادات أو منظمات تسمى « بوليتما » ، تضم كل واحدة منها ابناء الوطن الاغريقى الواحد .

والبوليتوما هيئة مستقلة ذات تنظيم خاص يغلب عليه الطابع العسكرى ولكن كان لها ايضا أوجه نشاط اخرى اجتماعية ودينية . وما من شك

(1) Rostovtzeff SEHW p. 409.

د / مصطفى البادى ، مجمع الاسكندرية عبر العصور ص ٣١ .

انهما كانت خاضعة للملك مباشرة فمن المرجح ان السبب فى انشائها هو أن كل بوليتيوما تضم مجموعة الجنود المرتزة الذين من موطن واحد اصلا بحيث يمكن تنظيمهم فى وقت السلم حين ينتشرون فى الريف ومستقرون فى مزارعهم ليسهل حصرهم واستدعاؤهم بسرعة عند الحاجة . واذا كانت كل بوليتيوما فى أول الأمر قاصرة على ابناء موطن واحد فانها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن .

ونستطيع ان تميز من بين جميع العناصر الاجنبية عنصرا واحدا نشرانه كان يتمتع بمنزلة ومكانة خاصة ، ذلك هو العنصر المقدونى . فمن وجهه النظر الاغريقية لم يكن المقدونيون اغريقيا ، رغم انهم كانوا يسيرون نحو الاصطباغ بالصبغة الاغريقية بخطوات سريعة . ولكن نظرا لأنهم كانوا ينتمون الى عنصر الاسكندر الاكبر أولا ثم الملك بطلميوس بعد ذلك ، ونظرا لأنهم كانوا يعتبرون ارقى وحدات الجيش واهم عناصره ، فلم يكن غريبا ان شعروا بشيء من الاعتزاز والفخر بمكانتهم فى الجيش . ويدوا فعلا ان الاسكندر ومن بعده بطلميوس اولوا العناصر المقدونية عناية واهتماما خاصا . ولقد كان بطلميوس فى حاجة خاصة الى هؤلاء المقدونيين لبناء جيشه الجديد فى مصر خاصة بعد أن اثبت الجندى المقدونى تفوقه على الجندى الاغريقى تحت قيادة فيليب وابنه الاسكندر المقدونى وقد اجزل بطلميوس لهم العطاء . ومنحهم كثيرا من الارض ليستقروا عليها فى مصر زمن السلم^(١) ولكن ما من شك ان حرص على استبقاء عدد كبير منهم فى الاسكندرية ليكونوا القوة الاساسية فى الحرس الملكى . ولقد

(١) د / مصطفى البادى ، مجتمع الاسكندرية ، ص ٣٧

استمر الوضع على هذه الحال فى عصر الملوك الثلاثة الاوائل من البطلمة رغم انهم لم يتلقوا اضافات جديدة من الدم المقدونى فى القرنين الاخيرين من الدولة البطلمية .

لم يبق جميع المقدونيين جنودا فقط ، وانما ظهروا فى اعمال مدينة ودينية فمنهم من كانوا كهنة ، ومنهم من شاركوا فى جوانب من النشاط المالى والتجارى . ومنهم ايضا من تولوا مناصب المدينة الرفيعة فى حواضر الاقاليم (المتروبوليس) .

وما من شك ان العنصر المقدونى احتل مكانة رفيعة فى الفترة الاولى من الحكم البطلمى . ففى القرن الثالث ق . م . كان المقدونيون من نفس عنصر الملوك ، وكونوا أهم واقوى اقات الجيش ، وتمتعوا بوضع متميز على سائر الاغريق الاخرين ، كذلك يبدو انه كان لهؤلاء المقدونيين تنظيم خاص بهم ، يمكنهم من الاجتماع فى جمعية عمومية (بوليتوما) وقد بقى لهذا التنظيم اهميته وتأثيره السياسى ، طالما كان العنصر المقدونى الأصل قويا فى الجيش ولكن مع نهاية القرن الثالث وطيلة القرنين الثانى والأول ق . م - نجد أن - المقدونيين الجدد يصفون أنفسهم فى المصادر بأنهم من السلالة أى أنهم ليسوا من مقدونيا مباشرة . ولكنهم ولدوا فى مصر من سلالة المهاجرين - المقدونيين الاصليين . وكثير من ابناء هذه السلالة لم يجز فى عروقهم دم مقدونى خالص ، بل كانوا نتيجة زواج مختلط ، ولكنهم خلفوا اباؤهم فى وحدات الجيش المقدونية واحتفظوا لأنفسهم لذلك بصفة المقدونية .

ولكن سرعان ما تناقص اعداد المقدونيين بعد ذلك لعدم امكان الحصول على مهاجرين جدد ، ولم يعد الافراد من ابناء سلالتهم يقدون لتعويض النقص ولذلك لجأ الملك البطلمي الى أن يلحق بوحدات المقدونيين ابناء الجنسيات الاخرى فى اثناء القرن الثانى .

ومن أكبر الجاليات الاجنبية التى وجدت فى مصر فى العصر البطلمي ايضا الجالية اليهودية . ونظرا لكثرتهم العددية وتميزهم الدينى الذى تمسكوا به دائما ، فقد منحهم الملك حق تكوين بوليتويما وعن طريقها يستطيعون تنظيم شئونهم وممارسة عباداتهم الخاصة . ولكن كثير من اليهود تأغرقوا تماما واصبحت اليونانية هى لغتهم الوحيدة منذ منتصف القرن الثانى ق . م لم تكن هناك أى صفة مميزة لليهود ، واعتبروا جميعا اغريقا .

لكن كيف كان حال المصريين اصحاب البلاد ؟ لقد كان المصريون هم أغلبية السكان وعماد المجتمع وتنظيمهم الاساسى كان يتم حسب هرفهم واعمالهم . فيحدثنا هيرودوت⁽¹⁾ ان المصريين كانوا ينقسمون الى سبع طبقات حسب اعمالهم فمنهم الكهنة والجنود ، رعاة البقر ورعاة الخنازير ، التجار والمفسرون واصحاب المراكب ، بطبيعة الحال كانت هناك مئات أخرى ولكن هيرودوت لم يتعرض لها .

ولكن المصريين ، بالنسبة للعناصر الاجنبية المختلطة والتى تشكل السمة الرئيسية للمجتمع فى تلك الفترة ، كانوا فى مركز الضعف ، فهم عمال بناء ورعاة خنازير حائكون وقاطعوا الحجارة ومربو النحل وبحارة وصانعو الفخار ، وفوق كل ذلك فهم الذين يفلحون الارض أما الاغريق فكانوا

(1) Herod . 11 . 163.

يشكلون الطبقة المميزة والوضع الممتاز بين رجال الملك أو الادارة أو الجيش أو الأرض .

ولكن لم يبق المصريون فى مركز المغلوب على امره كثيرا ، ذلك ان انتصارهم فى معركة رفح ٢١٧ ق . م للقضاء على الغزو السليوقى ، كان له آثار وردود فعل بعيدة سياسيا واجتماعيا وماديا لكن لعل اثارها المعنوية بالنسبة للمصريين كانت اخطرها جميعا لقد استرد المصريون ثقتهم بأنفسهم وطالبوا بحقهم فى تولى جميع المناصب ، سواء فى الجيش والقصر والادارة وقد صاحب تحسن مركز المصريين وزيادة نفوذهم فى الدولة ، كثرة الثورات التى قاموا بها لصد الاسرة البطلمية الحاكمة .

لقد ادرك هذه الحقيقة المؤرخ بوليبيوس،^(١) فعبّر عنها بلأى النصر فى معركة رفح كان نصرا مصرية .

هذا التطور فى مركز المصريين وازدياد مكانة عنصرهم تكشفه وتوضحه اشهر وثيقة فى تاريخ مصر القديمة وهى حجر رشيد^(٢) والقرار المسجل على حجر رشيد ، يدل على ان مركز المصريين قد تغير تغيرا جوهريا ، فمن ناحية عقد مجلس الكهنة فى منف العاصمة المصرية القديمة بعد انتقال العاصمة الى الاسكندرية ومن ناحية أخرى سجل النقش محاولات الملك التقرب الى الكهنة واستمالة المصريين لقد تنازلت الدولة عن بعض ديون الافراد المتأخرة للخزانة وصور عفو شامل عن الجنود المصريين الذين انضموا للثورة وكذلك

(1) Polyp. V. 107. Dittenberger, O.G. L.S. 90 .

(2) Bevan, Egypt, pp. 262 ff.

نلاحظ زيادة ظهور المصريين فى مناصب عليا فى الجيش والدولة ومكافآت سخية اعلنها الملك وتخص الجيش بعد معركة رفع .

لقد تطورت العلاقة بين القصر والمصريين وساعد ذلك على ازدياد مكانة العنصر المصرى ، وهذا ما كشفته لنا أشهر الوثائق فى تاريخ مصر .

وعلى أى حال يمكننا القول أن العناصر الاجنبية اختلطت بالمصريين ونتج عن ذلك اختلاط فى العادات والتقاليد ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاتجاه بمرور الزمن ، هو زيادة عنصر الاغريق وغيرهم بالتدريج .

ولكن ماذا كان تأثير هذا الخليط العجيب من الاجناس على لغة سكان المدينة فى هذا العصر ؟

كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، لأنها ايضا لغة الطبقة الحاكمة ، والذى ساعد على انتشار اللغة اليونانية هو وجود العناصر الاجنبية المختلطة واستخدموا اللغة اليونانية . أما المصريون فقد استمروا يتحدثون اللغة المصرية القديمة ، بل أن كثير منهم لم يحاول تعلم الكتابة اليونانية وكان هذا دافعا ايضا لظهور قوانين الملاجىء والمراسيم الملكية والقوانين باللغتين المصرية واليونانية .

هكذا كان هناك فى مجتمع مصر فى العصر البطلمى الى جانب المصريين الذين يشكلون القاعدة الاساسية للمجتمع المصرى ، عناصر أخرى كثيرة اوروبية وأسيوية لكن مع ذلك فقد كان العنصران المصرى والاغريقى هما أهم هذه العناصر سواء من ناحية العدد أو من ناحية التأثير .

النشاط الاقتصادي

ب - النشاط الاقتصادي :

ان الوضع الاجتماعى الذى كانت عليه مصر زمن الاسرة البطلمية يظهر بشكل واضح اذا نظرنا الى الوضع الاقتصادى لمصر فى تلك الفترة .

حقيقة لقد تم اللقاء بين العناصر الاجنبية المختلطة فى المجتمع المصرى كما سبق ان اوضحنا - ولكنه لم ينته بالتفاعل الكامل بينهما لتصبح مصر وحدة اجتماعية ذات صفة عالمية ، وذلك بسبب الموقف السياسى الذى اتخذته البطالمة والذى وضع حدودا اجتماعية وقانونية بين تلك العناصر البشرية الموجودة فى المدينة .

نجد أن الوضع الاقتصادى قد اقترن وتأثر بفكرة الامتزاج الاجتماعى واصبح الطابع الدولى يضيغ نشاط مصر فى الفترة الاسرة البطلمية .

أما عن نفوذ البطالمة فى مصر ، فنحن نعرف انه كان يركز اساسا على استغلال موارد مصر الاقتصادية استغلالا منتظما^(١) .

لكن هذه الموارد واجهت عند قدومهم الى مصر مطالب واسعة كانت حافزا لهم للعمل على تنميتها واعادة تنظيمها ، لاسيما بسبب ما حاق بها من التدهور نتيجة لاضرابات التى شهدتها مصر فى خلال القرنين الخامس والرابع ق . م ابان حكم الفرس فى مصر وثورات المصريين للتخلص من

حكمهم وذلك كان البطالمة فى حاجة ملحة الى المال واستغل هذا النظام خبرة المصريين القديمة العهد ووسائل الاغريق الفنية الحديثة فى مجال

(١) عن سياسة البطالمة الاقتصادية راجع د / ابراهيم نصحي تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ٢٣ الى ٢٢ .

د / لطفى عبد الوهاب : دراسات فى تاريخ مصر ، عصر البطالمة ص ١٤٩ - ١٥٠ .

الانشطة المختلفة^(١)

نجد أن البطالة وجهوا اهتماما كبيرا الى الزراعة فى مصر ، ولدينا وثائق زيبون - وكل اعمال ابولونيوس وزير المالية - شدة عناية الملك بطلميوس الثانى ووزير ماليته بالتعمير والزراعة^(٢) .

نحاول فى جزء من هذه الدراسة أن نوضح الموقف الاقتصادى فى الفترة الاولى من حكم البطالة فان للعناية التى بذلها البطالة الاوائل فى سبيل تقدم المرافق الاقتصادية ، نتائج باهرة .

أولا : الارض :

كانت سياسة البطالة فى مجال نظام الاراضى تهدف الى العمل على بناء دولة قوية تحت الحكم الملكى ثم الحرص على تيسير اقامة عدد كبير من الاغريق الذين حضروا الى مصر وكانوا العنصر الاساسى فى بناء جيشهم وادارتهم للبلد . وعلى هذا الاساس تظهر لنا الوثائق ان هذه السياسة قد تم تطبيقها منذ منتصف القرن الثالث ق . م .

كانت ملكية الارض^(٣) فى مصر مقسمة الى انواع مختلفة وكذلك فئات مختلفة من الارض بحسب مركز الاشخاص المسئولين عن زراعتها وعلاقتهم بالارض ويمكننا ان نميز بين النوعين من الارض على عهد

(1) Rostovzeff SEHHW pp 270 - 7 .

(2) Rostovzeff, Large Estate p. 137.

(٣) عن نظام الاراضى راجع :

د . ابراهيم نصحي : المرجع السابق ج ٣ ص ١٥٧ - ٢١٨ .

د . لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٧ .

د . مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ - ١٣٦ .

النوع الأول :

وهو ارض للملك وكان الملك يستثمرها مباشرة .

النوع الثانى :

فهو ارض العطاء وهى التى منحها الملك لاشخاص آخرين وتدرج تحت هذا القسم انواع مختلفة من الاراضى مثل ارض المعابد والاقطاعات العسكرية والاقطاعات الكبيرة لكبار الموظفين ثم الملكية الخاصة وهذا يعنى . ان الأرض وما تغله من محصول خاضع لادارة الدولة .

بالنسبة لأرض الملك فقد أخذ البطالة فى مجال سياستهم الاقتصادية بعبداً ملكية الدولة ممثلة فى شخص الملك ، ولهذا كانت أرض - الدولة تحتل الرفعة الكبرى من الارض الزراعية فى مصر .

أما ارض المعابد . فقد كانت المعابد المصرية واسعة الشراء نتيجة لما تجمع لها من هبات الملوك واهداف الافراد على مر القرون . وكاتت تحت اشراف الدولة المباشر فكانت الدولة هى التى تقوم باستغلال الأرض وتأجيرها وتجبي عنها الايجارات والدخول المختلفة نظير الانفاق على المعابد والكهنة .

وارض الاقطاعات العسكرية حيث كانت سياسة البطالة الاوائل تتطلب انشاء جيوش كبيرة ، رأوا فى بداية حكمهم الا يعتمدوا فى تكوينها على المصريين لذلك تخذوا من المقدونيين والاغريق فى مصر نواة لجيوشهم . واتبعوا سياسة الاقطاعات فى مكافأتهم للاغريق والاجانب الذين خدموا فى الجيش البطلمى . ويطلق على هذه الاقطاعات اسم « كليروس » وعلى من

يمتلكها اسم « كليروخوس » واختلقت مساحات الاقطاعات العسكرية حسب مراتب الجنود والضباط .

غير أنه مع نهاية القرن الثالث ق . م بدأ البطالة فى استخدام المصريين باعداد كبيرة فى جيوشهم وذلك من معركة رفع ٢١٧ ق . م التى أحرز فيها المصريون نصرا عظيما ومنحوا اقطاعات من الارض مثل الجنود الاغريق ولكنها من مساحات اصغر ولهذا اطلق على اصحاب هذه الاقطاعات الصغيرة من المصريين كليروخوى بينما اطلق على الاغريق « كانوبكروى » أى المستوطنين .

وتحولت الاقطاعات العسكرية بمرور الزمن من كونها منحة من الملك الى أن اصبحت ملكية خاصة فى نهاية القرن الثانى ق . م .

أما اقطاعات الموظفين ، نجد أن البطالة لجثوا فى معاملة رجال الحكومة الى اقطاعهم مساحات من الارض بدلا من منحهم مرتبات نقدية منتظمة وهى وسيلة ناجحة فى زيادة رقعة الارض المزروعة فى مصر ، لأن هذا الاقطاعات مثلها مثل الاقطاعات العسكرية ، كانت تتكون من ارض بور فى حاجة الى استصلاح .

وبالنسبة لأرض الملكية الشخصية ، فقد نما هذا النوع تحت حكم البطالة وذلك بسبب تحول الاقطاعات العسكرية الى ملكية شخصية ثم أيضا نتيجة لبعض مشاريع اصلاح الارض البور التى انتهجها البطالة .

أما ارض المدن ، فان تقاليد ونظم المدن اليونانية تفضى ان كل مدينة يجب أن يتبعها مساحة من الارض الزراعية ونحن نعرف أن بمصر هنا يونانية استمر على النمط اليونانى ، فلا بد أيضا أنها تمتعت بمثل هذا النظام .

وتدل المعلومات على أرض المدن أنها كانت ملكيات شخصية فى أبهى الافراد من مواطنى المدن .

من هذه البداية عن سياسة البطالة فى مجال نظام الأرض ، نستقل للحديث عن كيفية زراعة وتنظيم هذه المساحات الواسعة من الاراضى .

كان الملك البطلمى من الناحية النظرية - هو المالك الوحيد للأرض الزراعية والواقع ان جزءا كبيرا من أجود الاراضى كان يظل تحت اشرافه مزارعى الاراضى الملكية ، التى تؤجر الفلاحين يعرفون باسم مزارعى الارضى الملكية ، وكانت عقود الايجار اختيارية ، لكن لجأ البطالة بعد ذلك الى الاكراه حينما كان يهرب المستأجرى من الالتزامات التى تكبلهم .

وكان مزارعو الملك أحرارا ، ولكن هذه الحرية كان تخضع لبعض القيود فهم لا يستطيعون ترك اراضيهم فى خلال الموسم الزراعى ، كما نسمع عن نقل مزارعى الارضى الملكية الى اماكن اخرى لاستصلاح اراض جديدة . وكان من حق الملك أن يلغى عقود الايجار فى أى وقت يشاء . وان تنقل الارض ، الى مستأجر آخر يقدم عرضا أعلى منه ، لقد كان الملك المالك الوحيد للاراضى .

وهناك اراضى التى لاتخضع لرقابة الملك وادارته المباشرة ، ومن هذا النوع ارض المعابد برغم ان البطالة تولوا ادارتها الا أنها كانت تستغل لصالح المعابد .

ثم كانت هناك ايضا اراض الاقطاعات العسكرية ، فقد اتبع البطالة سياسة الاقطاعات فى مكافأتهم للاعداد الكثيرة من الاغريق والاجانب الذين

خدموا فى الجيش البطلمى .

ومما دفع البطالة الى هذه الوسيلة هو عدة دوافع اقتصادية وسياسية . ذلك أن مصر كانت، وقتذاك بارا نقل فيه النقود ومن ثم لا يكون هناك غير سبيلين لدفع المرتبات ، هما استغلال قطعة من الارض وزاعتها أو استغلال دخل بعض الضرائب . وفضل البطالة الطريقة الأولى لأنها ذات فائدة مزدوجة فهي تضمن ارتباط المتطوعين بالارض التى منحت لهم فيتخذون من مصر وطناً لهم ، وتنشأ بينهم وبين ملوكها علاقات قوية دائمة بحيث يستطيع هؤلاء للمسلوك تجنيدهم كلما بدأ القتال . كما يستطيعون الاعتماد عليهم فى تأييد ملكهم ونشر لواء الحضارة الاغريقية فى انحاء البلاد ومن ناحية اخرى ، هيات طريقة منح الاقطاعات للبطالة فرصة ادخال وسائل اقتصادية جديدة فى البلاد ، فضلاً عن كونها تزيد عدد الايدي العاملة (1) .

هكذا منح البطالة الاقطاعات لرجال قواتهم البرية والبحرية من الاغريق والمقدونيين ، أما المحاربون المصريون فجعلوا اقطاعاتهم صغيرة المساحة بالقياس الى اقطاعات الاجانب ، ولكنها كانت أكثر عدداً، وكذلك منحت الاقطاعات لفريق من المرتزقة الذين فضلوا الاقامة فى وادى النيل ، كما منحت احياناً للأسرى الذين اعتبروا ثروة بشرية قادرة على الانتاج وعلى اصلاح الاراضى واستغلالها . واخذت مساحة الاراضى الممنوحة اقطاعات تزداد على مر الايام تبعاً لتزايد الجيوش التى تتطلبها الحروب . ولدينا وثيقة يردية توضح أن مساحة الاقطاعات العسكرية فى قرية كركيوزيرس (اقليم

(1) Preaux, LEC. Roy. pp. 465-466.

الفيوم) بلغت ٢ ١٣٤ أوروا في عهد بطلميوس الرابع ، ثم وصلت إلى ١١ ١٥٨١ أوروا خلال حكم الملك بطلميوس الثامن . وما من شك في أننا نستطيع اعتبار هذه الحانة مثالا لما حدث في اقاليم مصر الأخرى ، ولاربع ان ذلك التوسع المنطوق في مساحة الاقطاعات العسكرية أدى إلى حدوث نقص منطوق في مساحة الاراضي الملكية ، وبالتالي في الدخل الملكي الذي أنكمش كثيرا بعد أن تقدمت مصر أغلب بمتلكاتها الخارجية ، ولم تنضم إليها ولايات جديدة تدر عليها دخلا يساعدها على تمد نفقات الجيش الباهظة .

وكانت القاعدة المتبعة خلال القرن الثالث هي منح الاقطاعات العسكرية من الاراضي التي اصلحتها الدولة على نفقتها وايضا الاراضي التي قام أصحاب الاقطاعات إلى ملكيات خاصة ، حرم الملوك مساحات كبيرة من الاراضي الملكية ولهذا تقرر خلال القرن الثاني الا يمنح الجنود اقطاعات من الاراضي الصالحة للزراعة التي تدر دخلا للدولة ، وان يقتصر المنح على الاراضي التي اصبحت يمسب ما خلال سنوات الاضطراب ضعيفة الانتاج أو غير منتجة .

ونزل الغرض عن السياسة التي اتبعها البطالمة مع اصحاب الاقطاعات العسكرية يمثل نفس الغرض مع الضياع الكبيرة التي منحت لكبار الموظفين . وقد خصعت هذه الاراضي لشروط استصلاح الاجزاء البور وهذه الضياع التي كانت تمنح لصاحبها مدى حياته فقط ثم يتردها الملك بعد ذلك .

وبالنسبة لاراضي الامتلاك الخاصة ، فهي تتألف عامة من البساتين

ومزارع الخضروات والنخيل والكروم وكانت هذه تزرع كلها فى اراضى تتطلب قسما من الاصلاح ولكنها لاتلائم زراعته القمح والغلال واغلب الظن انها كانت تمنح لاصحابها بموجب عقود ايجار طويلة الأجل ، أو عقود وراثية . ويرعم ان القانون كان يسمح بانتقال ملكية هذه الاراضى من شخص الى آخر الا أننا لانرجح ان اصحابها قد امتلكوها امتلاكا فعليا ، وهذا ما يؤكده أحد المؤرخين حين قال أن الاراضى الخاصة فى عهد البطالمة لم تكن املاكا حرة بالمعنى المعروف انما كانت تستغل استفلالا حرا.

وبفضل هذه السياسة اضال البطالمة مساحات شاسعة للارض المزروعة فى مصر فقد استخدمت امكانيات الهندسة الاغريقية جميعها للقيام بأعمال الرى والاصلاح واتباع الاساليب العلمية فى الزراعة . وقد تنوعت ايضا المحاصيل الزراعية فى مصر تنوعا كبيرا بفضل ادخال انواع جديدة منها كما زرعت المحاصيل القديمة على نطاق واسع.

ضيعة أبولونيوس :

لعلة من المناسب ان نتناول بالبحث ضيعة ابولونيوس فى نوموس منف ، كمثل هام يجذب انتباهنا للنظام الاقتصادى للضيعة ، ولنظام منح اقطاعات للموظفين فى مصر على عهد البطالمة .

تحدثنا وثائق زينون بمعلومات كافية عن ضيعة أبولونيوس - الذى، يكتيس المعروف زمن بطلمىوس فيلادلفوس - وهى ضيعة Owpsd كبيرة تقع فى نوموس منف .

أحدى هذه الوثائق مؤرخ بسنة ٢٥٣ ق . م ، وهى رسالة من كليناكس الى زينون ليقوم بنقل البغال الخاصة به الى ضيعة أبولونيوس فى منف ^(١)

P.C.Z. 59240 (253 B.C.) L.1. 4.

لكن قبل ان اتعرض لارض الضيعة ونشاطها ، وما تغله من محاصيل زراعية وأعمال رعوية ، لابد أن اذكر أن أغلب المعلومات التى حدثتنا عنها وثائق زينون البردية فى هذا المجال متصلة بضيعة أبولونيوس - الديوبكتيس خاصة وان زينون كان وكيل أعمال ابولونيوس ، وشارك بتصيب كبير فى الاشراف على نظان العمل فى هذه الضيعة .

(1) Preaux, Les Grecs en Egypte d' apres les archives de zenon, p. 8. Rostovtzeff, Large Estate, pp. 35 - 55 .

بعد هذه المقدمة البسيطة نتقل للحديث عن نشاط ضيعة أبولونيوس^(١) أول مشكلة يمكن أن تقابلنا فى دراسة هذه الضيعة هى محاولة تحديد مكانها .

يتضح مما تجتمع من مادة أوراق البردى التى نلتزم بها ، أن الضيعة تتكون من قطع متناثرة من الأرض ليس بينها رابطة مكانية واحدة . وهى بذلك تختلف عن ضيعة أبولونيوس فى فيلادلفيا التى نعرف أنها تتكون من قطعة واحدة من الأرض بلغت مساحتها ١٠,٠٠٠ أرورا^(٢) .

ولكن كيف يمكننا الوصول من خلال هذه الوثائق الى مكان الضيعة ، هل كانت داخل مدينة منف ذاتها أم متناثرة فى قرأها ؟

المادة المعروفة عن هذا الموضوع تبرز لنا مجموعتين من أوراق البردى ، مجموعة أولى يتعلق بجزء من الضيعة فى مدينة منف ، ومجموعة ثانية يتعلق بالقرى المتناثرة على أبعاد مختلفة من المدينة . يتضح من ذلك اذن أن نهوس منف تتكون من عدد من القرى تبلغ ٣٨ قرية^(٣) . وانتشرت الضيعة فى خمس قرى منها ، عدا قرىتين يعتريهما بعض الشك فى تبعيتهما لضيعة أبولونيوس ، هذا بالاضافة الى جزء الضيعة الذى يقع فى المدينة ذاتها .

(١) لقد أقدت كثيرا فى دراستى لهذه الضيعة من مقالة كتبها « ايغا فيسنهاك » وتعرضت فيها لكل جوانب الانشطة المختلفة الخاصة بالضيعة .

Ewa Wipszycka, Klio, 39, 1961, The of Apollonios the Dioeketes in the Memphite Nome,

(2) Rostovtzeff, Large Estate, p., 62.

(٣) ما أمكن جمعه من الوثائق هو اسماء ٣٨ قرية فى نوموس منف. لكن لعلها كانت تتكون من أكثر من ذلك .

أول وثيقة يمكن الاعتماد عليها في محاولة تحديد مكان الضيعة يرجع تاريخها الى ٢٥٦ ق . م وهي رسالة الى زينون من أبولونيوس يطلب منه امداد الجوارى فى منف بالكميات اللازمة من الصوف من أجل نسجها فى المصنع .

P.C.Z. 59142 (256 B.C.) L.2.

إذا كانت هذه الجملة ترينا وجود البنات العاملات فى مصنع الصوف فى منف ، فانها توضح ان هذا المصنع يقع فى العاصمة ذاتها وليس فى قرأها .

وجاء فى طلب مرسل من أبولونيوس الى زينون ليحضر براعم كمثرى وشتل فاكهة من حديثه ومن القصر الملكى^(١) فى منف .

Select. Pap. Zenon, 94 (256 B.C.) LL. 1-3.

يتضح مما جاء بالنص ان أبولونيوس يمتلك حديقة فى منف ، أى فى المدينة ذاتها .

ثم تحدثنا وثائق أخرى عن انتشار ضيعة أبولونيوس فى قرى نوموس منف . احدى هذه الوثائق يرجع تاريخها الى (٢٥٨ - ٢٥٧ ق . م) أرسل آدايوس مذكرة الى زينون من فلاحى تايثارو Taitaro يسألونه عن اقامة السدود كما فى بقية الاماكن .

P.S.I., 486 (258 / 7 B.C.) LL. 4 - 6 .

(١) يبدو أن هذا القصر هو نفسه الذى ذكره استرابون ، وقد رآه خرابا عندما زار منف .
Strabo, XVII. 32 .

هذا النص يبرز لنا تبعية قرية تايتارو لضبعة أبولونيوس ، حيث أنه كان يهتم بإقامة السدود وحفر القنوات وغير ذلك من اعمال الري فى كل أرض ضيعته . وهذا ما توضحه كلمة « فى بقية الاماكن » ولعلها تشير الى بقية أماكن ضيعته .

وعرفت قرية أخرى من رسائل زينون هى قرية تابترا Tapteia ، وجاء ذكرها فى أكثر من وثيقة .

P.C.Z. 59130 (256 B.C.) L. 17 .

ولعل هؤلاء المزارعين تأخروا فى دفع ما يستحق عليهم من ضرائب ، ولكن ابولونيوس يفضل عدم مضايقتهم لحين حضور جامعى الضرائب ، حتى لا يآخر العمل فيتسبب فى فساد المحصول . والنص يشير أيضا الى تبعية قرية تابتيا لضبعة ابولونيوس .

وجاء فى وثيقة ثانية يرجع تاريخها الى ٢٥٥ ق . م وهى مذكرة من ارتياموتوس مرسة الى زينون ليقوم بقياس الأرض فى تابتيا .

P.C.Z. 59188. (255 B.C.) LL. 1 - 5 .

يتضح من وثيقة ثالثة ، ان قيمة تابتيا تقع على النيل مباشرة أو على قناة نهريه ، حيث ان مراكب أبولونيوس كانت ترسو هناك .

P.C.Z. 59176 (255 B.C.) L.8.

وهكذا تشير النصوص السابقة الى تبعية قرية تابترا لضبعة أبولونيوس .

(١) ذكر اسم نيكاتور على أساس صلته بضبعة أبولونيوس فى منف . ولكن ليس واضحا ماذا كان يعمل . راجع :

Eea Wipssycka, The *Δωρεα* of Apollonios, pp 168 - 9.

أما القرية الثالثة فهي قرية موثيميس Moithymis^(١) .

تحدثنا وثيقة^(٢) عن موثيميس ، جاء بها أن باس بن بايس يستأجر بها ٨٨٠ أرورا . وما يبرز تبعيتها لضبعة أبولونيوس هو أنه طلب أن يقتطع من هذه الأرض ٢٤٠ أرورا الى سرايس وأسكليبيوس ، والى زيوس ١٢٠ أرورا والى اجيساجوراس والد ياسون ١٠٠ أرورا ، والى حورس حارس الايبس ٥ أرورات .

بالإضافة الى ما تبرزه الوثيقة السابقة عن تبعية قرية موثيميس لضبعة أبولونيوس فهي ترينا مظهرا هاما من خلق ابولونيوس ، ذلك أنه كان حريصا على اظهار ولائه لآلهه الاغريق وآلهة مصر على حد سواء ، فخصص جانبا من ضيعته لبعض هذه الآلهة . لقد كان ابولونيوس رجل دولة أدرك أهمية اهتمامه بالنواحي الدينية في بلد عرف عن أهله رسوخ عقائدهم الدينية .

ثمة دليل^(٣) آخر ، فنسمع ان اسكليبيادس الكليروخوس يستأجر قطعة أرض في موثيميس ، وكان يفلح الارض عمال زينون .

ونسمع من برديات كثيرة ، عن قرية رابعة تتبع ضبعة منف وهي تاسكرو^(٤) .

وهذا دليل ثان على تبعية تاسكور لضبعة أبولونيوس ، ففي وثيقة مؤرخة

(١) اختلف اسم القرية من وثيقة الى اخرى .

P.C.Z. 59257 (252 B.C.), 59094 (257 B.C.)

59176 (255 B.C.), 59337 (248 B.C.)

P.C.Z. 59783 (not dated)

P.C.Z. 59407 (not dated).

(2) P. Mich. Z. 31 (256 / 255 B.C.) LL. 1 - 8 .

(3) P.C.Z. 59257 (252 B.C.) .

(4) P. Tebt. III. 2.889 (early 2nd cent. B.C.) L.13 .

٢٥٠ - ٢٤٩ ق . م . جاء بها أن ديمتريوس يطلب من زينون تسليمه
المركب الموجودة في تاسكرو .

P.S.I. 374 (250 / 491 B.C.) LL. 3-5, 12 - 14 .

بالإضافة الى مانعرفه من هذه الوثيقة عن تبعية قرية تاسكرو لضيعة
ابولونيوس ، فهي توضح أيضا انها كانت تقع على النيل مباشرة أو على قناة
نهرية .

أما قرية سوفتيس Sophthis تحدثنا عنها بردية يرجع تاريخها الى ٢٥٦
ق . م . جاء بها ان سفراجس احدى العائلات في مصنع الصوف الذى
يمتلكه ابولونيوس فى منف ذهبت الى قرية سوفتيس فى نوموس منف من
أجل الحصول على الصوف .

Select. Pap. Zenon, 25 (256 B.C.) LL. 6-7.

ان حصول سفراجس على الصوف الخام من هذه القرية يوضح تبعيتها لضيعة ابولونيوس حيث يتم نسجه فى مصنعه بمنف . يبدو أن ضيعة ابولونيوس كانت تربطها رابطة اقتصادية واحدة ، حيث يتم التبادل الاقتصادى بين قرى الضيعة ، وفى هذا دليل على أن أبولونيوس لم يكن رجل دولة فحسب ، بل كان كذلك على دراية كافية بنظم النشاط الاقتصادى ويعمل على ربط ضيعته بروابط اقتصادية واحدة ، وعلى الاكتفاء الذاتى بين أجزاءها .

أما القرستان اللتان يعتريهما بعض الشم فى تبعيتهما للضيعة هما .
أكانثوبوليس Akanthopolis وتبقى Tephi .

تذكر ايفافيسيسكا⁽¹⁾ فى مقالتها انها لم تعثر على دليل قوى يرجح تبعية القرطين أبولونيوس . بالنسبة لاكانثوبوليس جاءت فى وثيقة⁽²⁾ للأسف غير مؤرخة ، جاء بها ان رجال ثرامسون يقومون بأعمال الرى فى قرية أكانثوبوليس ، نحن نعرف أن ثراسون⁽³⁾ يعمل لدى أبولونيوس فى ضيعته بمنف ، ولكن فى الواقع ليس من الحكمة الاعتماد على هذا النص نظرا لعدم صلاحيته .

أما قرية تيفى ، فقد عرفت لنا من بردية⁽⁴⁾ واحدة فقط يرجع تاريخها الى ٢٤٨ - ٢٤٧ ق . م ، جاء بها ان بليس قبطان المركب يخبر زينون بأنه سلم أرتميدويوس فى منف ٥٠٠ أردبا من القمح من

1) Ewa Wipszycka, The *Δώρεα* of Apollonios p. 172.

(2) P. Mich. Zenon, 92 (not dated).

(3) P.C.Z. 59130 (256 / 254 B.C.);

Select. Pap. Zenon, 90 (256 B.C.).

(4) P. Mich. Zenon, 60 (248 / 47 B.c.).

تيفى . ربما أتى هذا القمح من حقول ابولونيوس ، ولكن ربما أيضا كان مجرد صفقة تجارية ولذلك لانستطيع الجزم بتبعيتها لضيعة منف .

P. Mich. Zenon, 60 (248 or 247 B.C.) LL. 3-5.

كما سبق نستخلص من البرديات السابقة أن ضيعة ابولونيوس تكونت من مساحات مختلفة من الارض تناثرت فى قرى النوموس . ولكن وجدت أيضا بعض مساحات من الضيعة فى المدينة ذاتها . وان بعض القرى التى اشتملت عليها الضيعة يبلغ خمس قرى ، عدا قريتين لانستطيع القطع بأنهما تتبعان الضيعة . ورغم ما حدثتنا به الوثائق عن قرى الضيعة فاننا لانستطيع التأكيد بأن كل قرى هذه الضيعة قد ذكرت فى الوثائق لكن لعلها تمثل على الأقل جانبا من ضيعة أبولونيوس .

على أى حال لعلها محاولة لها أهمية خاصة ، لأنها تلقي الضوء على طبيعة هذه الضيعة ومدى اختلافها عن تلك التى فى فيلادلفيا ، فانها توضح ان ضيعة ابولونيوس شغلت مساحات متناثرة فى عدد من القرى ، ولم يكن لها وحدة أو رابطة مكانية واحدة . ورغم ما تجتمع من مادة ، فاننا للأسف لايمكننا تحديد مساحة الضيعة ، ولكنها على أى حال كانت ولاشك مساحة كبيرة .

ولكن كيف كان يتم العمل فى هذه الضيعة الكبيرة ، سواء من ناحية طرق الزراعة والمحاصيل الزراعية ، أو أعمال الري وإقامة السدود ، ثم المراعى وغير ذلك من الأنشطة المختلفة .

من أهم البرديات ^(١) التى حدثتنا عن ضيعة أبولونيوس ، عن محاصيلها الزراعية وعن طرق استغلال ارضها هى بردية طويلة ، لكن للأسف لم تصل إلينا كاملة ، ويبدو أن ماوصل إلينا هو نهاية البردية فقط . يرجع تاريخها الى سنة ٢٥٦ أو ٢٥٥ ق . م وترجمة النص كما يلي :

« السنة ٣٠ - حسابات أرض أبولونيوس - يقدمها « موسى » ^(٢) .

باسس بن بايس من موثيمس يستأجر ٨٨٠ أروا ، كل أروا نصيبه منها ٥ أرابد من القمح بالجمع ٤٩٥٠ أربا .

وهذه المساحة قسمت تبعاً لوسائل أبولونيوس الى سرايس وأسكليبيوس ٢٤٠ أروا ، والى زيوس لابراندايوس ^(٣) ١٢٠ أروا والى اجيساجوراس والد ياسون ١٠٠ أروا والى حورس حارس الايس ٥ أرووات ، خصص لهم من كل أروا $\frac{٥}{٨}$ أرابد من القمح بالجمع $\frac{٥}{٨}$ ٢٦١٥ أربا . ويتبقى لباسس ٤١٥ أروا نصيبه من كل أروا $\frac{٥}{٨}$ أرابد من القمح بالجمع $\frac{٣}{٨}$ ٢٣٣٤ وقد تسلم ايضاً بذور من أدليوس .

(1) P. Mich Zenon 31 (256 0 255 B. C .).

(٢) كان يشرف على اعمال الزراعة والرعى اثناء عمله بالضيعة .

P. Mich Zenon 31 (256 / 255 B.C.).

P.C.Z. 59086 (257 B.C.).

(٣) الاله المحلى للكاريين

C.C. Edgar, P. Mich Zenon , Introduction, p. 95.

وسلم اليينا برسيم ٢٩,٨٠٠ ربيطة ١٤٩. اردبا من القمح . بلاضافة الى
١٣٤ دراخمة ١,٥ أويل من البرسيم المباع .

بيع قشر القمح فى الجرن بما يساوى ٢٧ دراخمة ، والاينكوس (نوع
من الفول) ٢٠ دراخمة .

أما ترجمة الجزء الثانى من نفس الوثيقة السابقة فهو كما يلى :

• نسبة من الحساب يقدمها موس عن الارض التى تبلغ مساحتها ١٠٠
أرورا - ارض ياسون تبلغ ١٠٠ أرورا . منها ١٣ أرورا تنتج برسيم ، ولهذه
الارض ١,٥ اردبا من البذور لكل أرورا ، بالجمع ١٦,٥ ارادب . ويعطى
الى الزراع أويل لكل أرورا ، بالجمع ٢ دراخمة وأويل .

أما انتاج الاراكوس المزروع على مساحة ١٦,٥ أرورا ، باعه موس بما
يسلوى ٧ دراخمة للارورا بالجمع ١١٦ دراخمة ٣ أويل^(١) وتسلم
المبلغ .

ولهذه الأرض ١,٥ أردب لبذور الاراكوس وتسلم مبلغا من المال ولم
يدخل فى حسابات باولونيوس .. أجر العمال ... دراخمة ، ٥ أويل ،
للعمل فى السد ٢٠ دراخمة ، للاراكوس ٢٠ دراخمة ٢ أويل ،
ثمن الشعير دراخمة ٥,٥ أويل ، ويتبقى ما تسلمه حارس
المراعى .

يمكننا أن نستخلص من هذه الوثيقة عدة أشياء ، أولها انها تحدثنا عن
قطعة أرض بلغت مساحة: ٨٨٠ أرورا فى ضيعة أبولونيوس بقريه

(١) العدد الصحيح هو : ١١٥ . ٣٦ أويل .

موثيميس⁽¹⁾ فى نوموس منف. واستأجر بامس بن بايس هذه الأرض ،
ويبدو أنه هو المسئول عن زراعتها رعا نغله من محاصيل .

ونستخلص كذلك من الجزء الأول منها ، وهو حساب الأرض الذى
يقدمه موس ، كيفية استغلال وكيفية التعامل بين الضيعة والمستأجر ،
فيلاحظ أن ابولونيوس نظم استغلال هذه الأرض تنظيمًا دقيقًا وكانت علاقة
ابولونيوس بالمستأجر تركز - فى الغالب - على عقود مكتوبة تختم عليهم
زراعة الأرض التى استأجرها ، ويشرف على الأرض وزراعتها وعمل
الحسابات اللازمة موظف لدى ابولونيوس .

وما تشير اليه البردية أيضا ان المستأجر كان له نصف المحصول . فانه من
المرجح ان متوسط غلة الارور من الارض تبلغ حوالى عشرة أردب . وهنا
نصيب باس - مستأجر الارض - يبلغ $\frac{5}{8}$ أردب من القمح لكل
أرورا . لقد بلغ نصيبه $\frac{3}{8}$ ٢٣٣٤ اردبا من ٤١٥ أرورا بعد ان اقتطع
أبولونيوس اجزاء من ضيعته لبعض الالهة والافراد . ويبدو أن ذلك كان
يمثل نصف انتاج الارض ، أما النصف الأخر فيذهب لابواونيوس . ويزرع
فى هذه الارض القمح والبرسيم والاراكوس ، كذلك جزء منها يستغل
لرعى الماشية التى يبيعها باس ويسلم ثمنها الى موس .

لكن ليس واضحا اذا كان المستأجر حرا فى زراعة أرضه ، ولعله كان

(1) C.C. Edgar, P. Mich. Zenon, Introduction, p. 95.

وشكله ادخار فى تبعية هذه الارض لضيعة أبولونيوس ولكن هذه الوثيقة تبرز ببعينها
حيث أنها تقس فى قرية موثيموس ، وهذه تتبع ضيعة ابولونيوس كما سبق
القول .

يقترض البذور من ابولونيوس ، الذى كان يعجل لضمان حسن استغلال اراضى الضيعة ، حيث يوفر الماشية والبذور الى جانب الاهتمام بمشروعات الري المختلفة .

ويقوم المزارع بشقل المحصول بعد ذلك الى الجرن ليدرس ، ويتم بعد ذلك بيع قشر القمح أيضا

واذا كنا لانعرف مساحة ضيعة أبولونيوس فى منف فاننا نستخلص من هذه البردية ان مساحة الضيعة كانت ولاشك مساحة كبيرة ، فعلى الاقل مستأجر واحد بها كان يستأجر فى بادىء الامر ٨٨٠ أرورا .

أما الجزء الثانى من نفس البردية فيحدثنا عن مساحة ١٠٠ أرورا استأجرها ياسون^(١) وقدم موس الحساب . ولم يذكر شيئا فى الجزء الأول عن هذه الارض الا اذا كانت هى نفسها التى تخص والد ياسون وذكرت فى الجزء الاول . لكن لعلها لاتشكل جزءا من ٨٨٠ أرورا ، ولكن ١٠٠ أرورا أخرى استأجرها آخر .

هذه البردية تبرز لنا كيفية التعامل الذى يتم بين المستأجر وصاحب الضيعة . ويلاحظ ان استغلال ارض الضيعة يشبه الى حد كبير استغلال ارض الملك وربما ايضا تدفع كل ماهو مفروض على ارض الملك من ايجار وضرائب وكان ابولونيوس صاحب الضيعة بمثابة وسيط بين المزارعين

(١) ربما كان ياسون هذا هو نفسه الذى كان يمتلك كليروس فى نوموس منف .
P.C.Z. 59789 (not dated) L.L. 16 - 18 .

والمملك ، فهو الذى يؤجر الارض للمزارعين ويمدهم بالبذور والماشية ويأخذ منهم الايجار .

لكن يبدو أنه كان لصاحب الضيعة الحق فى أن يتغلها كما يشاء .
يمكننا بعد ذلك ان نميز ثلاثة أقسام نظمت بها زراعة ارض الضيعة .
أما القسم الاول فيوضح ان الارض كانت تقسيم الى مساحات - فى
الغالب - كبيرة يستأجرها مستأجرون مستقلون .

ونعرف من الوثيقة السابقة ان باس بن بايس كان يستأجر ٨٨٠ أروا
فى قرية موثيميس ، ثم بعد أن منح ابولونيوس اجزاء من ضيعته للآلهه كان
لايزال يستأجر بها مساحة كبيرة بلغت ٤١٥ أروا .

أما القسم الثانى فكان يستأجره فلاحون مستقلون مسئولون مسئولية
كاملة عما يتم فى أرضهم من اعمال . هذا ما توضحه وثيقة^(١) جاء بها ان
ادايوس أحد مديرى الضيعة تسلم مذكرة من فلاحى تايثارو ، يسألونه فيها
عن اعمال الرى فى الارض التى يستأجرونها . فلو أن هؤلاء كانوا فلاحين
يسرف عليهم مستأجرون لما استطاعوا ان يرسلوا مذكرتهم مباشرة الى مديرى
الضيعة . ويبدو أن هذا القسم كانت أرضه تتكون من مساحات اصغر من
القسم الاول .

أما بقية الارض فكان يستأجرها عمال تشرف عليهم ادارة الضيعة .
والبردية^(٢) التى تحدثنا عن هذا النوع هى رسالة من موسى بخصوص
سيمبوتس ، الذى أعطى قطعة من الارض ، ولكنه يرفض ضمها اليه ولم

(1) P.S.I. 486 (257 B.C.).

(2) P.C.Z. 29132 (256 B.C).

يقم بحصاد محصولها. ولذلك فان موس يخشى فساد المحصول باعتباره
المسئول عنه .

لعل هذه البردية توضح القسم الثالث من تقسيم أرض الضيعة ، ان
مسئولية حصاد المحصول وعدم فساده ، ومسئولية الارض كاملة ، تقع على
عاتق ادارة الضيعة ولا تقع على عاتق زارع الارض .

وبذلك يمكننا ان نجمل القول بأن نظام تقسيم أرض منف يشبه الى حد
كبير النظام الذى طبق فى فيلادلفيا كما يذكر وسترمان⁽¹⁾ . فانه يوضح
ثلاثة اقسام من الارض .

١- أرض تسلم الى مستأجرين غالبا ما يكونون مقدونيين .

٢- أرض يزرعها صغار الفلاحين

٣- أرض تزرع تحت اشراف زنون ووكلائه

وبمقارنة تقسيم أرض فيلادلفيا بأرض منف نجد أن مستأجرى الارض
ذات المساحات الكبيرة فى منف ، كانوا مصريين بينما فى فيلادلفيا نجدهم
مقدونيين ولعل ذلك يرجع الى الاستقرار الواضح للعناصر الأجنبية فى
فيلادلفيا .

وتوجد بردية ثانية⁽²⁾ يمكننا الاعتماد عليها فى توضيح طرق زراعة أرض
منف . تؤرخ البردية بسنة ٢٥٠ ق . م . وجاء بها ان هناك نوعين من طرق

(1) W.L. Westermann. A Lease of the estate of Apollonius in Me-
moirs of the American Academy in Rome 6. 1927 sqq.
Apud : Fwa W'pssycka, *Die Awpca* of Apollonios in the Mem-
phite Nome, p. 175 .

(2) P.C.Z. 59292 (250 B.C.).

الزراعة ، النوع الاول وهو الذى يزرع تحت اشراف زينون ووكلائه ويتم تسليم البذور الى المزارعين .

النوع الثانى وهى الارض التى تؤجر الى صغار الفلاحين

ومن أجل تنظيم العمل فى هذه الضيعة الكبيرة كان لابد لابولونيوس من زيادة اهتمامه بالاصلاحات الاقتصادية حتى يستطيع الافادة افادة كاملة من زراعة الارض واستغلالها .

نرى أن لابولونيوس اهتماما خاصا ببناء السدود وأعمال الري المختلفة التى نسمع عنها من وثائق كثيرة⁽¹⁾ . لكن أفضل الوثائق تعبيرا عن أعمال الري هى التى يرجع تاريخها الى ٢٥٧ ق . م . جاء بها ان الفلاحين العاملين فى أرض ابولونيوس فى تاتيارو يسألونه عن بناء السد فى الأرض كما فى بقية الأماكن .

ويتلخص عمل ابولونيوس فى اقامة السدود وشق القنوات فى كل ارض ضيعته ، ففى نص يرجع الى (٢٥٦ - ٢٥٥ ق . م) جاء به ان موس دفع لمزارع ٢٠ دراخمة من أجل العمل فى السد .

(1)P.S.I.486 (258/257 B.C.).

P.S.I.488 (258/257 B.C.),

P.S.I.595 (no dated).

P. Mich. Zenon,31 (256/255 B.C.).

P. Mich. Zenon31 (256/255 B.C.) L.33.

وتسمع من وثيقة^(١) أخرى عن حفر قنوات في مزرعة العنب .

ونتيجة لهذا الاهتمام قدمت ضيعة ابولونيوس في منف محاصيل متنوعة كبيرة . ولكن أهمها جميعا هو القمح^(٢) ثم الشعير^(٣) والذرة^(٤) ونبات العدس^(٥) والاراكوس (نوع من الفول)^(٦) لكن للأسف لا يمكننا تحديد كمية الانتاج السنوي للضيعة نظرا لأننا لانعرف مساحتها .

أما الجزء الخاص من الضيعة المخصص لانتاج الفاكهة فقد كان يتطلب عناية كبيرة ، إذ أن رسائل ابولونيوس ترينا انه كان دائما يذكر زيون بموسم غرس براعم الفاكهة ، ويطلب اليه الحصول على اكبر عدد ممكن من صغار الاشجار من منف^(٧) لزراعتها في فيلادلفيا . وقد ورد في الرسائل ذكر الكروم والزيتون وبالتفاح والكمثرى . وفي رسالة من ابولونيوس الى زينون يخبره فيها بأنه موسم زراعة العنب والزيتون ، ويعدده بامداده بكل ماهو مفيد من براعم الفاكهة من منف ليقوم بزراعتها في ضيعته بفيلادلفيا .

(1) P.C.I. 595 (not dated) . L.7.

(2) P.Mich. Zenon, 31 (256/255 B.C.). L.9.

(3) P.S.I. 492 (258/ 257B.C.), L.1.

(4) Ibid., L.2.

(5) P.C.Z. 59147 (256/255 B.C.). L.16.

(6) P. Mich. Zenon, 31 (256 / 255 B.C.). L. 16.

(7) S.B. 6811 (256 B.C.).

وفى رسالة أخرى يرجع تاريخها الى ٢٥٦ ق . م يطلب ابولونيوس من زينون ان يقوم بزرع شجر الكمثرى^(١) بعد أخذ النبات من حديقته فى منف .

مما سبق يتضح لنا ان منف كانت تغد كمشتل يخدم ضيعة ابولونيوس فى فيلادلفيا وذلك لجودة وخصوبة أرضها .

وثيقة أخرى تحدثنا عن وجود زراعة الزيتون فى منف ، جاء بها ان ابولونيوس يطلب الى زينون ان يأخذ من الحديقة فى منف مالا يقل عن ٣٠٠٠ ، ويطلب منه أن يجمع محصول الزيتون ويفرزه .

يسر لنا هذا النص ان الزيتون كان يزرع فى منف ابكميات هائلة .

أما عن مزارع العنب فقد انتشرت فى كل نوموس منف سواء فى ضيعة أبولونيوس أو خارجها ، نسمع من وثيقة^(٢) غير مؤرخة عن حديقة عنب تقع فى كيركه KerKe بنوموس منف وان المزارع (اسمه غير موجود بالوثيقة) يخبر زينون ان هذا العنب يتم تصنيعه الى خمر

ونعرف من وثيقة أخرى عن فرض الضرائب على مزارع العنب ، جاء

(1) P . S. I. 567 (not dated) .

بها أن ياسون يبلغ زينون ، بان ليون فرض ضريبة على مزرعة العنب والحديقة ، وهي ضريبة متأخرة عن خمس سنوات مضت وقدرت الضريبة على أساس ٣ دراخمت لكل أروط .

وفي موضع^(١) آخر من نفس الوثيقة يتضح انه حينما لا يتم دفع الضرائب المفروضة على مزرعة العنب كان جامعو الضرائب يفرضون الحجز على النبيذ حتى يتم تسليم المبلغ المستحق .

وثيقة أخرى^(٢) - غير مؤرخة - تتحدث عن بيع ٢٩ مترتس من الخمر من قرية تاسكرو في ضيعة ايولونيوس .

كذلك غرست في الضيعة صفوف من اشجار الصنوبر من أجل استغلال اخشابها وتحسين منظر الاقليم .

في رسالة من^(٣) أبولونيوس الى زينون يطلب منه غرسى مالا يقل عن ٣٠٠ شجرة من الصنوبر في كل المزرعة وحول مزرعة العنب . ان هذه الوثيقة توضح الاهتمام بغرس اشجار الصنوبر ، ولكنها لا تذكر مكان غرس الاشجار ، ولكن يمكننا القول ان غرس هذا النوع كان يتم في منف وليس في فيلادلفيا ، لأنه يتضح من وثائق أخرى أهمية قرية مبا^(٤) Mea في نوموس منف في انتاج الاخشاب ، بل وتصديره الى فيلادلفيا . اذن نستخلص من ذلك ان البردية السابقة كانت بالتأكيد تخص منف وليس فيلادلفيا^(٥) .

(1) Select. Pap. Zenon, 52 (250B.C.) LL.10-12.

(2) P.S.I.682 (not dated).

(3) P.C.Z.59157 (256 B.C.) 1.

(4) Select Pap. Zenon, 45 (256 B.C.), L4.

(5) P.C.Z.59449 (not dated).

وتشير الوثائق الخاصة بضيعة أبولونيوس فى منف الى ان الاراضى الصالحة للزراعة كانت تدفع ضرائب للحكومة وهذا ما نستخلصه من وثيقة مؤرخة^(١) بسنة ٢٥٦ ق . م أو ٢٥٤ ق . م . وهى مذكرة الى زينون ليتم العفو عن أحد الفلاحين من قرية تابتيا الذى لم يدفع الضريبة المستحقة عليه الى ان يأتى جامعو الضرائب^(٢) حتى يشارك فى فلاحه الارض .

يتضح من بردية اخرى هامة ان هناك منحا من نوع الكايروى فى اقليم منف مثل تلك الممنوحة اباسون ، كما سبق القول لكن بالاضافة الى ذلك فهى تشير الى حقيقة هامة ، وهى ان ابولونيوس كان يستأجر هذه الارض لحسابه من الكلدروخوس ، ويفلحها مزارعون من رجائه والنص كمايلى :

ومما يجعلنا نرجح هذا الرأى هو أن ارتميدوروس يعمل فى ضيعة أبولونيوس، كذلك فان ياسون هو نفسه الذى ذكر فى نصر^(٣) آخر وقد منح ١٠٠ أرورا فى أرض ابولونيوس فى قرية مويشيميس .

وترينا خطابات ابولونيوس اهتماما بتربية الماشية لايقبل عن اهتمامه بغرس أشجار الفاكهة وزراعة الحبوب ، وكان ابولونيوس يمتلك قطعانا كبيرة من الماشية والاعنام والماعز والخنازير . كذلك كان يوجد قطع من اغنام مليتوس عنى بها ابولونيوس عناية كبيرة حتى أنه يقال ان ابولونيوس أحضر معها رعاية

(1) P.C.Z.59130 (256/154 B.C.). Select. Pap. Zenon,90 (256 B.C.?).

(٢) يقوم رجال أبولونيوس مثل بوبالوس وسيندانس بجمع الضرائب المستحقة على الارض للحكومة من الفلاحين ثم يسلموها الى جامعى الضرائب من قبل الحكومة .

Select. Pap. Zenon,90 (256 B.C.?).

(3) P. Mich. Zenon.31 (256/255 B.C.).

ملحين بفن تربيتها والعناية بها من آسيا الصغرى⁽¹⁾ . ولأصواف هذه الاغنام قيمة كبيرة جدا ، الى حد أنها كانت تغطى بالجلود لرقايتها وأنها كانت تنزع منها بدلا من أن تجز⁽²⁾ .

ولكن هل كانت هذه الاغنام تخص ابولونيوس ، أو أنها كانت ملكية خاصة لزينون ؟ لقد كان زينون يمتلك كذلك قطعانا كبيرة من الماشية والاغنام ، لكن ليس من السهل دائما التفرقة بين ما يمتلكه ابولونيوس أو زينون .

ويرى أحدى النصوص الى ملكية زينون لبعض الاغنام وثلاثة خيول⁽³⁾ . وفى وثيقة أخرى⁽⁴⁾ ووضح بها بيان مقدم الى زينون بعدد الماعز التى ذهبت الى منف ، قدمه أحد الرعاة ويدعى هرمياس .

هكذا تشير النصوص السابقة الى نتيجة هامة وهى أن أبولونيوس قد اعتنى بتربية الماشية عناية كبيرة ، ثم بالاضافة الى ذلك اعتنى باحضار انواع من ماشية مايتوس ، وذلك لتحسين الانواع وبالتالي الحصول على أفضل الإصواف وهو الصوف الميايتى من اجل تصنيعه فى مصنعه بمنف ، الذى كان يحتاج الى امدادات مستمرة من الصوف الخام .

كذلك كانت الطيور مثل الدجاج والأوز تربي بكثرة فى ضيعة

(1) P.C.Z.59195 (254 B.C.) Preaux, Ec. Roy. p.107.

(2) C.C. Edgar, Pap. Mich, Zenon, P.159. P.C.Z.59430 (not dated).

(3) P.S.I.372,377 (250/24^c B.C.).

(4) P.C.Z.59429 (not dated).

ابولونيوس^(١)

ومن أهم ما اعتنى به ابولونيوس هو تربية الخيول . نجد في وثيقة يرجع تاريخها الى ٢٥٠ ق . م . دليلا على قيام أبولونيوس بتربية الخيول في منف . جاء بها ان قيليب سايس الخيل يذهب بها من منف الى فيلادلفيا .

يبدو أن اهتمام ابولونيوس بتربية الخيول يرجع الى انها تعد تجارة رابحة ، هذا بالاضافة الى أنه كان رجل الدولة ، أدرك الأهمية العسكرية للخيول في مشاركتها لسلاح الفرسان ، ومن هنا كان اهتمامه بتربية الخيول .

ومن الطريف ان تعلم ايضا ان الفيلة^(٢) كانت تربي في منف ، ويحدثنا بترى عن شحن كمية هائلة من الحبوب على مركب خاصة حمولتها ٩٠٠ اردب الى منف من أجل الفيلة .

ما كان مكلفا به من أعمال وتعدد مجال نشاطه . ولكن يلاحظ انه اذا حاولنا تقسيم اعماله ، يتعذر علينا معرفة متى كان يباشر بعض هذه الاعمال بوصفه وكييل اعمال ابولونيوس ومتى كان يؤدي واجبات عامة ، ومتى كان يباشر اعمالا خاصة به شخصيا .

نستخلص مما تقدم من مجموعة أوراق البردى التي حدثنا عن ضيعة ابولونيوس في نوموس منف ، ان هذه الضيعة لعبت دورا كبيرا وعظيما في مجال الاقتصاد المصرى . وتوحى الادلة بأن منح الضياع ظهر لأول مرة في

(1) P.C.Z.59266 (mid. III cent. B.C.).

(2) Preaux, EC. Roy. PP. 34 - 36 .

عهد بطلميوس فيلادلفوس⁽¹⁾ وكان نظورا هاما في مجال الاقتصاد المصرى.

فقد كان نظام الضيعة نظاما جديدا فى مجال الرى والزراعة ، أما بالنسبة للرعى فقد ظهرت نظم فنية جديدة أدت الى تجميع سلالة الماشية وبالتالي الى جودة الصوف .

وعلى أى حال فان نظام الضيعة يدفعنا للنظر فى أصل هذا المظهر الاقتصادى الذى كان نتيجة لغزو المقدونيين واليونانيون أرض مصر .

ثانيا : الصناعة :

كان طبيعيا ان تكون مصر عريقة الحضارة وفيرة الحاصلات ، أهلة بالجنسيات المختلطة وطنا لعدة صناعات مختلفة ، كذلك تمخضت فتوحات الاسكندر عن فتح افاق واسعة أمام النشاط الاغريقى هذا الى جانب ، ما عرف عن مصر من تقدم ملحوظ فى مجال الصناعات المختلفة فى عصر الفراعنة .

لكن للأسف نجد أن معلوماتنا بالنسبة للصناعة قليلة عادة وان نظام الاحتكار الملكى الذى طبقة البطالة فى مصر وهو النظام الذى لم يكن موحدا بوجه الأنشطة المختلفة ساعد على ازدياد الامر صعوبة . وذلك لأن الاساس الذى قامت عليه سياسة البطالة هو سيطرة الدولة على اقتصاد البلاد . لكن اختلفت درجات هذه السيطرة بين الاحتكار التام والاشراف الجزئى⁽²⁾ .

(1) Rostovtzeff, Large Estate, P.122.

(2) Preaux, EC. Roy. pp. 1-11

فلقد اقتضت سياسة البطالة تنويع الاحتكار الحكومي ليتفق والاحتياجات المختلفة للدولة ، لذلك احتكر البطالة صناعة الزيت والملح احتكارا كاملا- وكان الاشراف الجزئى على صناعة المنسوجات فلم يطبق عليها البطالة سياسة الاحتكار الكامل ولكن اكتفت الدولة بأن يكون لها مصانعها وسمحت بوجود مصانع أخرى خاصة تعمل تحت اشرافها . ويفضل هذه الاحتكارات حصل البطالة على دخل هائل .

أما الاحتكار الذى نعرف عنه أكثر المعلومات مكان احتكار الزيت وكانت مصر تزرع النباتات الزيتية مثل السمسم والخروع وبذر الكتان . وعلى عهد البطالة فرضت وكان صارمة على زراعة هذه النباتات ، فحدوث الحكومة مساحة الارضى التى تزرع بها فى كل اقليم ، وراقبت زراعتها وحصادها مراقبة دقيقة . وكانت الحكومة التى هى تمد البذور ، ثم يحصر المحصول حصرا دقيقا ويقدم ريعه لضريبة للحكومة بينما يقوم الزراع بتسليم باقى المحصول للمتعهدين باسعار محددة من قبل الملك .

يلى ذلك نقل المحصول الى معاصر الزيوت الحكومية و خاضعة لرقابة دقيقة من الحكومة ، لأن الدولة لم تسمح بوجود معاصر فى ملكية خاصة باستثناء معاصر الزيوت الخاصة بالمعابد التى كانت تعمل ولكن فى نطاق ضيق جدا . وكان عمال الزيت رغم كونهم احرارا ، الا أنهم يتبعون الحكومة وملزمون بالعمل فى معاصرها حسب الشروط التى تملئها عليهم . بعد ذلك يخرج الزيت الى محلات تجارية معينة فى المدن والقرى مرخص لها بيع الزيت ولكن باسعار مرتفعة تحددها الدولة على نحو يحقق لها الربح

أرفير قدر هذا الربح⁽¹⁾ بما يتراوح بين ٧٠٪ على زيت السمسم ، ٣٠٠٪ أو أكثر على زيت الحنظل ، أما زيت الزيتون فقد فرضت عليه ضريبة استيراد بلغت ٥٠٪ .

أما الاشراف الجزئي يتمثل فى سياسة مختلفة ، هو احتكار المنسوجات التى كانت تصنع من الكتان أو من الصوف أو من التيل ، وقد سمح للمعابد بالاستمرار فى صناعة منسوجاتها الكتانية الدقيقة التى اشتهرت بها لاستخدامها فى المعابد وكان عليها أن تسلم للملك كمية معينة من انتاجها . فى هذه الصناعة سمح البطالة لقطاع ثالث يعمل فى هذا المجال وهو نسيج الافراد من اصحاب المصانع الخاصة أو الذى كان ينسج فى المنازل ، وفرضت على الافراد كما فرضت على المعابد ، ان يقدموا لها كل عام كمية معينة من المنسوجات المختلفة حسب مواصفات معينة . ثم كانت مصانع المعابد والافراد حرة فى الانتاج والتصدير .

الى جانب هذه الصناعات ازدهر فى مصر عدد من الصناعات الاخرى مثل صناعة الورق من نبات البردى وصناعة الزجاج والفخار والخمور والعطور والتوابل وصناعة الفنون الصغرى ، كما اشتهرت منف العاصمة القديمة بالصناعات الخشبية ، فقد اهتم وزير المالية بزراعة اشجار الصنوبر ليستخدم هذا الخشب فى بناء السفن ونحن نعرف أن منف اشتهرت بصناعة بناء السفن منذ العصور الفرعونية . واذا كانت لمنف فى العصر الفرعونى شهرة خاصة فى صناعة المعادن وخاصة الانية الذهبية والفضية والبرونزية ، فان هذه الصناعة انتعشت ايضا على عهد البطالة الا اننا لانعرف بالتحديد

(1) Tarn, Hellenistic Civilization p. 167.

درجة تدخل الدولة تجاه كافة هذه الصناعات ، سواء خضعت للاحتكار التام أو الاشراف الجزئي .

ويفضل هذه الاحتكارات ، ومن ايجار الاراضى الملكية ، حصل البطالة على دخل هائل . هذا بالإضافة الى الضرائب التي فرضها الملك . كانت هناك ضريبة على اراضى الاقطاعات ، وضريبة على الميراث ، وعلى التراخيص التي تعطى لتداوله مختلف انواع الحرف ، ضريبة على المبيعات ، ضريبة على العقارات وايضا ضريبة على الرأس ، ولكن معلوماتنا عنها لازالت قليلة . وكان هناك ايضا نظام محكم دقيق للرسوم الجمركية التي فرض بعضها لحماية المنتجات المحلية . وكان جامعو الضرائب يخضعون لرقابة صارمة فى كل خطوة حتى لانضار مصالح الملك .

ثالثا : التجارة :

لقد بذل البطالة جهدهم من اجل تنشيط التجارة الخارجية ، فبرغم ثراء مصر الزراعى ، الا أنها كانت فقيرة فى كثير من المنتجات ، وكان لزاما عليها أن تعثر على هذه المنتجات من الخارج . وعلى أى حال فان معلوماتنا عن سياسة البطالة للتجارة الخارجية قليلة . الا أننا نستطيع القول ان من بين ما استورده مصر على عهد البطالة ، الاخشاب والسلك المملح ومختلف انواع الفاكهة والعييد والخيول .

وفى مقابل ذلك كانت مصر تصدر أهم منتجاتها وهو القمح ، فقد كانت مصر أكبر منتج للذلال فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، الا أننا لانعرف مدى احتكار الدولة لأهم صادراتها ، الا أن الادلة الوثائقية اثبتت ان الدولة اخضعت تصدير البردى لسيطرتها التامة . فقد كانت مصر تنفرد

بتصديره الى ارجحاء العالم القديم . كما صدرت الكتان والزجاج ولاسيما النوع متعدد الالوان الذى اشتهرت به الاسكندرية . وكذلك المرمر وغيره من مختلف الاحجار .

لقد كانت مصر مركزا لتجارة عابرة نشيطة فمن الصومال وشرق افريقيا وبلاد العرب والهند ، كان يأتى الذهب والاحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج والقطن والحريز ، وكانت هذه تنقل برا ومن موانى البحر الأحمر عبر الطرق الصحراوية الى فقط على النيل . ولهذا وتيسيرا للنقل الداخلى ، يحتمل أن يكون البطالمة اول من عمم استخدام الجمل فى مصر .

أما الطريق الثانى فكان القناة التى تربط فرع النيل الشرقى بالبحر الأحمر ، تلك القناة التى حفرها سيزومستريس أحد ملوك الاسرة الثانية عشرة ويقال أن حفرها اعيد فى عهد رمسيس الثانى ، وكذلك دارا الأول ، واجزر كسبس ملوك الفرس . أما الطريق الثالث فهو طريق اعالى النيل ولعله كان اقدم هذه الطرق .

وقد وجه البطالمة اهتمام كبير ليس فقط الى طرق التجارة فى بحر ايجيه بل ايضا الى طرق التجارة الوافدة من افريقيا والهند وبلاد العرب والى جعل مصر الطريق الرئيسى لمزور تلك التجارة صوب الاسواق الغربية .

وقد عثر فى حوض البحر الابيض المتوسط على عدد من النقوش تثبت وجود علاقات تجارية بحرية بين الاسكندرية وجريزة ديلوس . كما شملت تجارة مصر الخارجية معظم الدول المطلة على البحر الابيض المتوسط مثل فلسطين وسوريا واسيا الصغرى . وبلاد اليونان فى الشرق وكذلك ايطاليا وشمال افريقيا فى الغرب .

اذن لقد كان لمصر فى العصر البطلمى تجارة خارجية حرة قام بها افراد من رعايا الدولة الى جانب تجار اجانب ، وان هذه التجارة شملت البحرين الابيض والمتوسط .

رابعاً : العملة :

لم يقتصر نشاط البطالمة الاقتصادى على الميدان الزراعى والهناعى والتجارى ، وانما وضعوا نظاما اقتصاديا نقديا متكاملًا فى بلد كان اساس المعاملة فيه ينهض على نظام المقايضة . لقد سك الملك بطلميوس الاول العملة ذهبية وفضية وبرونزية ، وفيما بعد ادخلت على هذه العملة تعديلات كثيرة . وكانت النسب بين العملة الذهبية والفضية وبين الفضية والبرونزية تتغير من وقت لآخر . وانشئت المصارف فى انحاء البلاد ، ونستطيع ان نتبين من وثائقنا البردية وجود نظام مصرفى متكامل لكن هذا لايعنى ان النظام الاقتصادى القديم قد اختفى تماما ، لأن ايجارات الاراضى الملكية وبعض المهنات كانت تدفع غينا . كذلك لم تختفى المقايضة من الحياة التجارية .

خامساً : استعراض الحالة الاقتصادية على عهد البطالمة المتأخرين :

ان الحكم البطلمى قد عاذا على مصر فى أول عهده بتقدم عظيم فى مجال النشاط الاقتصادى . فقد أتى هذا الحكم بنظم جديدة فى مجال الزراعة والرى ادت الى انتعاش فى الزراعة والمحاصيل الزراعية ، ولقيت الصناعة تشجيعا كبيرا . فحين وجه البطالمة عنايتهم الى النهوض بمرافق مصر الاقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا ايضا على دارية الاغريق الفنية والحركة العلمية الاغريقية . كذلك

راجحت التسوية . فان ابطاله الاوائل بوجه شاعر لم يدخروا وسعا في
مجهوداتهم لتقدم المرافقة الاقتصادية للدولة .

لكن لم يقدر لمصر الاحتفاظ بهذا المركز العظيم ، وتعطينا وثائق القرن
الثاني ق . م . صورة حية عن توتر العلاقات ، وظهور الفساد وكثرة اعمال
العنف فبعد شهيد عهد بطلميوس الرابع وولييه بطلميوس الخامس بداية فترة
الانهيار الشديد وبداية ما ورد في قرار حجر رشيد ١٩٦ ق . م على مدى
سوء الحالة في عهدهما .

ان دراسة حجر رشيد تعطي صورة مؤلمة لاحوال مصر في السنوات الأخيرة
من حكم بطلميوس الرابع وبداية حكم الخامس . فالى حسب تيرات العفو
والامتيازات التي قدمها الملك ، نجد ضغط الضرائب ، سرعة تراكم الديون ،
السجون مملوكة بالجرمين ، كثرة من الجرمين متضررين في البلاد يعيشون على
النهب السرقة ، والنتيجة المتوقعة لكل ذلك ضالة العمل وافتقار البلد من
سكانه ، ترك الحقول وفساد المزروعات واهمال اعمال الري والترع والقنوات
وهذه الشرور لا تلبث ان تتفاقم زمن الحرب ^(١) .

واخذت الحالة تسوء دواما باطراد ، فازداد التدهور السريع في عهد
بطلميوس السادس . وبداية التدهور ^(٢) الذي اصدره عام ١٦٤ ق . م على
مجهوداته في محاولة اصلاح شأن الحياة الاقتصادية .

وايبلغ دليل على هذا التدهور هو بيان بوارجتيس الثاني . الملك بطلميوس
الثامن .

(1) O.G.I.S. 1 90 Rostovzeff. SEHW p. 714.

(2) U.P.Z.I. 110

بيان⁽¹⁾ يوراجتيس الثانى هو مجموعة من القرارات وضعها الملك بالاشتراك مع اخته وزوجته فى العام الثانى والخمسين من حكمه ، ويعتبر ذلك البيان من الوثائق ذات الاهمية الاولى فى برديات العصر البطلمى المتأخر ، فهو يقدم لنا صورة واضحة للحالة التى كانت قائمة فى مصر فى القرن الثانى ق . م لقد عمل الملك جاهدا حين اصدر بيان هذا الاصلاح مافسد من امور البلاد ، وقد غطى البيان الجوانب الاربعة . الدينية والاقتصادية والادارية والاجتماعية . وكانت من أهم قراراته القرار الذى تنازل فيه عن الديون المتأخرة على الجميع فقد ازاح بهذا القرار عن كاهل المدنيين ثقل التزاماتهم التى عانوا منها والتى كانت سببا فى هجر البعض لاراضيهم والتجار البعض الاخر الى المعابد للحماية . وكذلك القرار الذى سمح فيه لاصحاب الاقطاعات بتملك الارض والاحتفاظ بها أو بيعها أو توريثها ان هذا القرار كان تعميما لسياسة سابقة كانت قاصرة على الاغريق وطبقها يوراجتيس الثانى على المصريين . ان الملك البطلمى لم يضع بيانه هذا عفوا ولكنه كان يعمل على ايجاد حل لكل مشكلة واصلاح ما فسد من امور البلاد ولكن البيان رغم تنفيذ بعض ما جاء به ، الا أن باقى بنوده لم تنفذ . كذلك فان الاصلاح كان يحتاج لحزم شديد ومقدرة على الادارة اكثر مما تتوفر لشخص الملك أو لادارته فى اعقاب فترة قاسية من الانقسام والحروب الاهلية . ولكنه استطاع بهذا البيان ان يحد بعض الشىء من الفوضى التى كانت قائمة على الاقل فى خلال العامين الذين امضاهما وهو على قيد الحياة بعد صدور بيانه .

(1) P. Jept. 5 A.D. 118 .

وثيقة بردية ثالثة^(١) توضح لنا زمن الاضطراب والفتن الداخلية وتصور لنا وثيقة^(٢) رابعة مظهر آخر من مظاهر اضطراب الاحوال فى القرن الثانى ق. م . فان احدى الزوجات تستعطف زوجها بعد أن ترك خدمة الالهة يفى السيرابيوم ، ان يعود الى بيته رحمة بها وبلطفها ، وحماية لهما من فترات الشدة وما تبع ذلك من ارتفاع فى الاسعار .

وليس أول على سوء الاحوال واضطرابها من أن الحكومة كانت تمنع للذين يؤدون عملا له صبغة اقتصادية منشورات للحماية باسم الملك تضمن لهم الا يعتدى أحد على سلامة اشخاصهم .

يتضح لنا اذن ان مصر شهدت تقدما ملحوظا فى مجال النشاط الاقتصادى على عهد البطالمة الاوائل ، ولكن لم يقدر لها التقدم الاستمرار وانما بدأ الاضمحلال التدريجى مع ظهور فترة الحروب والفتن الداخلية من تاريخ مصر .

(1) U.P.Z. 1 . 14 .

(2) U.P.Z. 1 . 59 .

النظم القانونية

جـ - النظم القانونية ومعماري القانون في العصر البطلمي :

تعدد الشرائع والنظم :

استمر القانون المصري نافذا في هذا العهد ، فكانت تطبق على المصريين وهم غالبية السكان ، شريعتهم الأصلية على الوجه الذي استقرت عليه بعد صدور مجموعة بولجوريس ، وقد عرفت لدى الاغريق في هذا العهد باسم « شريعة الاقليم » أما اهل اقليم مصر وكانوا على فئتين ، فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة نزلاء اهل مصر الاخرى ، فيبدو أن البطالمة قد استنوا للفئة الاولى تشريعات عرفتها باسم « قوانين المدن » أو القوانين السياسية وهي قوانين مقتبسة على القانون الاغريقي ، ولكنها لم تكن في كل مدينة منها مطابقة للقانون المصري في الأخرى . أما بالنسبة للفئة الثانية من الاغريق فقد أصدر البطالمة أوامر ملكية مختلفة لتكون دستورهم وشريعتهم التي يتعاملون بمقتضاها ، ويبدو أنها كانت تحتوي في الغالب على تلك القواعد التي تمثل الأساس المشترك للقوانين المختلفة والمعادن المتعددة التي كانت سائدة في العالم الاغريقي ، لأنه لم يكن من المستطاع بالنسبة لهؤلاء النزلاء تطبيق قوانين مدنهم الأصلية ، نظرا لتعدد المدن التي كانوا ينتمون اليها في الأصل . أما اليهود فقد رأينا أنهم كانوا يعيشون في طوائفهم وفقا لتعاليمهم وشريعتهم الخاصة .

اختلاف القانون باختلاف جنسية الأفراد :

يتبين مما تقدم أنه كانت تسود مصر في عهد البطالمة عدة نظم قانونية تختلف باختلاف جنسية الافراد ، فالقانون لم يكن يطبق تطبيقا اقليميا على جميع القاطنين في مصر بل كان يطبق تطبيقا شخصيا لأنه لم يوضع الا

ليسرى على اشخاص معينين . ولهذا كان يلزم فى كل تصرف قانونى أن يعلن المتعاملون علاوة على البيانات العادية الخاصة بأشخاصهم عن الجنسية التى ينتمون إليها ، حتى يمكن تعيين القانون الواجب تطبيقه عليهم . وكانت هناك جزاءات شديدة لمعاقبة كل من يكذب فى التقرير بجنسيته ، بل كانت هذه الجزاءات توقع أيضا على كل من الموثق والمتعاقد الآخر اذا كانا على علم بهذا الغش

على أنه لما كان البطالة قد استرشدوا بمبادئ وقواعد القانون الاغريقى فيما سانونه من القوانين وما أصدره من الأوامر ، فانه يمكن ارجاع هذه النظم المتعددة الى مصدرين اساسين هما القانون المصرى والقانون الاغريقى ، لأنهما كانا فى الواقع يقتسمان البلاد وفقا لجنسية كل فرد من الأفراد . ولكن رغما عن اختلاف هذين القانونين فى كثير من المبادئ والنظم وتطبيق كل منهما على طائفة معينة من الناس ، فاننا نجد مع ذلك أنه كان بينهما تأثير متبادل وتقارب فيما يتعلق ببعض النظم ، وأن هذه النظم تطورت حتى انتهى بها الأمر الى الخضوع لقانون واحد مختلط يمكن أن يسمى بالقانون الاغريقى المصرى .

ونحدد فيما يلى مدى اختلاف كل من القانون المصرى والقانون الاغريقى فى نظمها ومدى تأثير كل منهما بالآخر ، ثم نتكلم بعد ذلك عن نظام الأراضى ونظام القضاء ومصادر القانون فى هذا العهد .

اختلاف النظم في القانون المصري والقانون الاغريقي

نظام الأسرة :

كان القانون المصري يختلف اختلافا بينا عن القانون الاغريقي فيما يتعلق بنظام الاسرة ، فان فكرة القرابة التي كانت قائمة في القانون المصري على أساس وحدة الدم ، والتي تربط الفرد بأسرة أبوية لم تكن معروفة في القانون الاغريقي ، حيث كان الولد منتسبا الى أبيه وأقارب أبيه ، دون أية علاقج بأقارب أمه . كما أن المرأة المصرية كانت تتمتع بحرية وأهلية كاملة ، فكانت تستطيع أن تتزوج بمحض ارادتها وبشروط كانت عادة ثقيلة على الزوج . اذ كانت تستطيع الانفصال عنه متى شاءت ، وأن تطالبه اذا طلقها بالصداق الذي وعدها به في عقد الزواج وأن تتصرف في أموالها دون الحصول على اجازته ، أما القانون الاغريقي فانه يقرر عدم أهلية المرأة لمباشرة حقوقها ويفرض عليها نوعا من الوصاية الدائمة ، فهي لا تستطيع أن تتزوج الا باجازة أبيها أو اقاربها من الأعصاب مثل أخوتها وأعمامها ، ولا تستطيع القيام بتصرفات الاب اجازة زوجها ، كما أنها كانت تخضع بعد وفاة زوجها لوصاية أبنائها أو اقارب زوجها أو لوصى يختاره لها زوجها في وصيته .

وكان القانون المصري يبيح زواج الأخ من أخته ، على حين كان القانون الاغريقي يعتبر مثل هذا الزواج رجسا فاحشا ، وان كان يبيح زواج الاخوة اذا لم يكونوا من أم واحدة . وكذلك كان القانون المصري يبيح تعدد الزوجات ، على حين كان ذلك محظورا في القانون الاغريقي .

ولم يكن هناك اختلاف في القانون المصري والقانون الاغريقي فيما

يتعلق بالسلطة الأبوية ، فقد كانت سلطة رب الأسرة على ابنائه محدودة في كلا القانونين ، بالنسبة لما كانت عليه في القانون الروماني ، اذ كان للابن البالغ شخصية مستقلة عن شخصية أبيه وكان يتمتع بجميع الحقوق المدنية. غير أن نظام الأموال المشتركة لم يكن معروفا في القانون الاغريقي . ولم يكن رب الأسرة يقوم بتوزيع أمواله على ابنائه حال حياته كما كان الحال في القانون المصرى ، كما أن الوصية لن تكن تختلط بالهبة بل كانت دائما على عكس القانون المصرى ، تصرفا مضافا الى ما بعد الوفاة .

ويلاحظ اخيرا أن القانون المصرى لم يكن يعرف نظام التبني لأن تبني الأولاد نوع من أنواع البيع ، وقد كان القانون المصرى يحرم على الآباء بيع ابنائهم ، كما أن تعدد الزوجات والنسرى وسهولة الطلاق ، كل ذلك وفر للمصريين وسائل متعددة للحيلولة دون انقراض النسل .

نظام الأموال :

وفيما يتعنى بنظام الاموال فأهم ما يميز القانون المشرى عن القانون الاغريقي ، أن الملكية الفردية فى القانون المصرى كانت مقصورة على الأموال المنقولة ولم تكن موجودة بالنسبة للعقار الا استثناء أى بمقتضى منحة ملكية ، لأن الأراضى كانت مملوكة للملك ولم يكن للأفراد عليها سوى حق الانتفاع . أما فى القانون الاغريقي فان حق الملكية الفردية على الأموال الثابتة كان حقا من الحقوق المقررة للمواطنين بصفة مطلقة ، وهذا ما يفسر لنا كيف أن موطنى المدن الاغريقية فى مصر كانوا يتمتعون بهذا الحق داخل اقليم مدنهم . غير أن هذا الحق كان مقصورا عليهم وحدهم ، اذ لم يتوان البطالة على أخذ بنظام الملكية المقرر فى القانون المصرى بالنسبة

لسائر السكان الآخرين من مصريين وأجانب .

وكذلك لم يكن نظام التقادم معروفا في القانون المصري على حين أن القانون الاغريقي كان يقضى بسقوط دعوى المالك بمضى ثلاث سنوات .

نظام الالتزامات والعقود :

وعلى خلاف ما تقدم فانه لم يكن هناك فيما يتعلق بنظام الالتزامات والعقود اختلافا كبيرا من حيث المبدأ بين القانون الاغريقي والقانون المصري . فقد قام هذا النظام في القانون المصري في عهده الاخير على مبدأ حرية التعاقد ، كما قام في القانون الاغريقي على ترك مجال كبيرا لحرية لارادة الافراد . غير أن العقود الاغريقية كانت تختلف عن العقود المصرية من حيث الآثار المترتبة عليها ، فكانت تارة عقود ملزمة للجانبين تنشئ التزامات في جانب كل من العاقدين كالبيع ، وعقوا ملزمة لجانب واحد تنشئ التزامات في جانب أحد المتعاقدين دون الآخر ، كالقرض . أما العقود المصرية فكانت دائما كما رأينا لجانب واحد حتى ولو كان العقد يباع .

الاثبات العقود :

كانت العقود لاثبت الا بالكتابة سواء أكان ذلك في القانون الاغريقي أم في القانون المصري . وكانت العقود الاغريقية على نوعين : عقود عرفية وعقود رسمية . فالعقود العرفية كانت تحرر على يد كتبة عاديين بحضور ستة من الشهور ، وكان لا بد لصحتها من تسجيلها في مكتب سجلات العقود . أما العقود الرسمية فكانت تحرر بمعرفة موثق خاص كانت له

دراية وخبرة يمثل هذه الأعمال ولم تكن هذه العقود تخضع لنظام التسجيل .

أما العقود المصرية فكانت تحرر باللغة الديموطيقية على يد كتبه من كهنة المعابد ، كما كانت تحرر أيضا بمعرفة كتبة عاديين : غير أنه كان لابد لصحة العقود المصرية من تسجيلها في مكتب سجلات العقود ، سواء أكانت محررة بمعرفة الكهنة أو بمعرفة غيرهم من الكتبة .

التأثير المتبادل بين القانونين المصري والاعريقي

السبب في تقارب القانونين :

لا يخفى أنه من الأصول المسلم بها في تاريخ الشرائع والنظم القانونية ، انه اذا وجدت في بلد واحد عدة نظم متغايرة ، فانها لاتلبث ان تؤثر بعضها على البعض الآخر ، وذلك على الرغم من أنها لاتطبق الا على طوائف مختلفة من السكان ، وهو أمر لا مفر منه لأنه اذا سلمنا بأنه من الممكن إخضاع طوائف مختلفة من الأفراد في دائرة الأحوال الشخصية ، كما في الزواج والطلاق والميراث ، لنظم مختلفة وفقا لجنسيتهم أو ديانتهم ، فانه من غير المتصور إخضاعهم فيما يتعلق بدائرة الاحوال العينية لنظم قانونية متغايرة ، اذا من أن تجرى التصرفات المتعلقة بالأموال والالتزامات داخل الطائفة الواحدة ، بل من المحتم أن تجرى هذه التصرفات بين أشخاص ينتمون لجنسيات مختلفة لضرورة تبادل المنافع بين الناس ، ولهذا لاتلبث النظم القانونية في دائرة الاحوال العينية على الأقل ، ان تتأثر بعضها ببعض .

ولذلك لم يكن هناك مفر من اختلاط القانون المصري بالقانون الاعريقي

وامتزاجهما على مر الزمن ، ليس فقط فيما يتعلق بنظم الأموال والالتزامات التي انتهى الأمر بها الى الخضوع لقانون واحد مختلط يمكن تسميته بالقانون الاغريقي المصرى ، بل أيضا فيما يتعلق بنظم الاحوال الشخصية حيث نجد بعض التقارب والتأثير المبادل بين القانونين . ونبين فيما يلى الدور الذى لعبه كل منهما فى هذا التقارب والامتزاج .

التقارب فى دائرة الأحوال الشخصية :

لم يستمر طويلا تطبيق القانون المصرى والقانون الاغريقي بصورتها الأصلية على المصريين أو على الاغريق ، وذلك فيما يتعلق بنظم الأسرة ، بل لقد طرأت عليهما بسبب تدخل الملوك أو بفعل عادة التقليد التي درج عليها المصريون المتأغرقون ، بعض التعديلات التي أدت الى تقارب كل من القانونين .

فنجد مثلا أنه عندما تزوج بطليموس الثانى من أخته تقربا الى قلوب المصريين ، افتقى اغريق مصر خطوات البطالمة فى زواج الأخوة من أخواتهم وحذا كثير منهم حذرهم فى ذلك . غير أننا نجد من جهة أخرى أن المرأة المصرية لم تتمتع طويلا بما كان لها من حقوق بالنسبة للمرأة الاغريقية ، فقد أصدر بطليموس الرابع المحب لأبيه فى القرن الثامى قبل الميلاد ، أمرا ملكيا حظر فيه على المرأة المصرية الزواج دون اجازة وصى والتصرف فى أموالها دون اجازة وصى والتصرف فى أموالها دون اجازة زوجها . فأصبح الزواج المصرى بذلك أدنى الى الزواج الاغريقى من ذى قبل ، واختفت تدريجيا من عقود الزواج المصرية تلك الاشتراطات الثقيلة التي كانت الزوجة تشترطها قديما قبل زوجها كما نجد مصريين يستعملون طريقة الهية للابن

الأصول ، التي كانت تقوم مقام الوصية في القانون المصري ، ولكنهم يشترطون فيها ألا استقلال المال الموهوب إلا بعد وفاتهم ويمتدعون طريقة يستطيعون بها الرجوع في هذا التصرف ، بل ويجد مصريين حرروا وصاياهم طبق للشكل الاغريقي البحث .

ويتبين مما تقدم مدى التقارب الذي حدث بين القانون المصري والقانون الاغريقي فيما يتعلق بنظم الاحوال الشخصية . ويلاحظ أن هذه التقارب قد حدث في أكثر الأحوال بتغليب مبادئ القانون الاغريقي على مبادئ القانون المصري ، ولكنه كان على كل حال بطيئا في سيره لأن أغلبية المصريين كانوا يعيشون في القرى بعيدين عن الاتصال بالاغريق وكانوا شديدي التمسك بنظم البلاد وعاداتها

التقارب في دائرة الأحوال العينية :

يجب أن نتميزها بين التصرفات والعقود التي تتعلق باستغلال ثروة البلاد ونهى الناحية التي تدخلت فيها الدولة ، وبين التصرفات والعقود التي تروك الدولة لإرادة الأفراد تنظيمها .

ففيما يتعلق بالناحية الاولى فانه لما كان حكم البطالة يرتكز قبل كل شيء على استبدال موارد مصر استغلالا منتظما دقيقا وذلك بالحصول على أكبر ما يمكن من غلة البلاد ، فانهم لم يتوانوا عن الأخذ بالقوانين التي وضعها الفراغة لتنظيم الملكية العقارية وانتقالها وتنظيم العلاقات بين الملاك ومستأجرى الأراضي الزراعية ، لأن قواعد القانون الاغريقي لم تكن لتوافق الامد الاغريق المستقلة .

فقد طبقوا المبادئ الاغريقية فيما يتعلق بقواعد القانون

المصرى التى كانت تميز بين الاراضى التى تمنح للأفراد لمدة معينة نظير التزامهم بزراعة الحبوب تحت اشراف الادارة وهى الغالبية ، وبين الأراضى التى يمنح من يملكها ملكية فردية على ما سنرى فيما بعد .

أما التصرفات والعقود التى تركت الدولة للأفراد الحق فى مباشرتها دون تدخل منها ، فان نصيب القانون المصرى فى هذه الناحية لم يكن بأقل مما فى الأولى لقد كان لنظام تسجيل العقود أثر ملموس فى تغليب قواعد القانون المصرى على قواعد القانون الاغريقى ، اذ أن أكثر محررى العقود والتصرفات كانوا من أهالى البلاد ، وكانوا يدفعون الأفراد الى اتباع ماجرى عليه العرف المصرى فى تحرير العقود وصياغتها ، لأنه لم يحظر على الاغريق ان يتعاقدوا وفقا لأحكام القانون المصرى ، كما لم يحظر على المصريين أن يتعاقدوا وفقا لأحكام القانون الاغريقى اذا كان فى ذلك مصلحة لهم .

ولهذا فقد كان للقانون المصرى القديم نصيب كبير فى هذا النظام القانونى المختلط الذى كانت تخضع له نظم الأموال والالتزامات خارج المدن الاغريقية والذى يمكن أن يسمى بالقانون الاغريقى المصرى .

نظام الأراضى :

كان المبدأ السائد فى مصر أن الملك صاحب أرض مصر كلها باعتباره ابنا لحدود ووع وخليفة الفراعنة ، وذلك وفقا للفكرة السياسية والدينية التى قام عليها نظام الحكم فى العهد الفرعونية . ولم يكن تملك الاراضى أو استغلالها خارج المدن الاغريقية الثلاث حقا من حقوق

الأفراد المدنية ، وإنما كان منحة من الملك يسمحها لأى فرد شاء ولهذا كانت الأراضى على نوعين : الأراضى الملكية وهى الأراضى التى يستغلها الملك مباشرة والأراضى التى يقطع الملك حق استغلالها أو ملكيتها للأفراد .

أ - الأراضى الملكية :

هى العالمة الكبرى من الأراضى وقد نظم استغلالها تنظيما دقيقا يرتكز على القواعد التى كانت سائدة فى عهد الفراعنة ، فكانت تؤجر على قطع لمزارعين يدعون تبعا لذلك بمزراعى الملك ، وترتكز علاقتهم بالملك على عقود تحتم عليهم زراعة الأرض التى استأجروها لقاء جانب كبير من المحصول . ولم يكن المستأجر حرا فى زراعة أرضه كما يتراءى له . بل كان مقيدا بالتعليمات الخاصة بالزراعة التى كانت الحكومة تصدرها كل عام ، كما أنه لم يكن له أن يترك قرينة خلال موسم الزراعة الى أن يوفى حقوق الملك .

وقد كانت الأراضى الملكية تؤجر بالمزاد العلنى لمدة غير محددة الى أن يعلن عن مزاد جديد ، غير أنه كان للملك أن ينهى عقد الايجار فى أى وقت شاء ، دون أن يكون للمستأجر الحق فى ترك الأرض أو عدم زراعتها قبل انتهاء العقد من جانب الملك . ولكن رغم هذه الشروط الثقيلة ، لم يكن هؤلاء المزارعون عبيدا أو تابعين ، ولم يقل مركزهم عن مركز غيرهم من المصريين ، وليس أدل على ذلك من أن بعض صغار الملاك ورجال الدين كانوا لا يرون غضاضة فى استئجار أراضى الملك الى جانب مهامهم الأصلية . وفيه^{٩١} عن ذلك فقد كان مزارع المالك يأنسون فى كل قرية

جماعة ، للدفاع عن مصالحهم وتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، وكان على رأس هذه الجماعة شيوخ القرية .

ب - الأراضى المقطعة :

هى « حقول الآلهة » ، والإقطاعات العسكرية وأراضى الهبات والأراضى التى يمنح من يملكها ملكية فردية .

١- فحقول الآلهة هى الأراضى التى منحها الملك للاله لا للكهنة أو المعابد ، ولهذا يتولى ادارتها موظفوا الملك ، وان كان دخلها يؤول فى النهاية الى المعابد والكهنة بعد دفع الضرائب المستحقة عليها . وقد ازدادت مساحة هذه الاراضى على مر الزمن ، نتيجة لمنح البطالة الذين أرادوا بجزل العطاء استغلال عواطف المصريين الدينية لتوطيد عرشهم ، وقد أنضت هذه المنح الى نفس دخل الملك وازدياد نفوذ الكهنة ، الى أن انتهى الأمر بالكهنة الى استرداد حق ادارة هذه الأراضى والحصول على اعفائها من التكاليف المقررة عليها ، وقد وجدت أيضا الى جانب « حقول الآلهة » بعض الأراضى التى خصص دخلها لما كانت تدره على اصحابها من دخل ثابت ، وقد تحمل الكهنة شيئا فشيئا الى استبقاء هذه المناصب فى ايديهم وصاروا يتصرفون فى الاراضى المخصصة لها بكافة أنواع التصرفات من بيع وهبة ورهن ، ويورثونها لأبنائهم بعد وفاتهم ، بحيث تحول حقهم عليها بعضى الزمن الى ملكية فردية .

٢- والإقطاعات العسكرية هى الأراضى التى كان الملك يقطعها لرجال الجيش ، النظامين منهم والمزترقة ، ورجال الشرطة وبعض الموظفين وكانت مساحة القطع الممنوحة تبلغ بالنسبة للضباط بعض المئات من « الأراير »

وتسروح بالنسبة للجنود بين خمسة وعشرين « أروا » ومائة « أروا » وكانت الضريبة المقررة عليها تسروح بين أردب ونصف وأردبين من الحبوب . وهذه القطع كانت تقطع من أملاك التاج أو من الأراضي البور التي منحت للجنود بقصد استصلاحها .

وقد كانت هذه الاقطاعات فى بادىء الأمر موقوتة بحياة المنتفع وتؤول نانية بعد وفاته الى الملك ، ولكنها أصبحت وراثية تؤول بعد وفاة المقطع الى من سيخلفه من أبنائه فى الجيش . على أن الملك كان يستطيع استردادها فى أى وقت اذا ارتكب المقطع جريمة أو اذا أخل بالتزاماته نحو الملك ، لأنه كان مسؤولا عن زراعة اقطاعه وخاضعا لرقابة دقيقة من رؤسائه وموظفى الدولة . ولم يكن للمقطع كذلك فى بادىء الأمر سوى حق تأجير الاقطاع ، ولكنه أصبح يستطيع التنازل عنه لشخص آخر يلتزم بدفع الضرائب المفروضة عليه بشرط أن يكون جنديا مثله . ولهذا سرعان ما تحول حق الجنود على هذه الاراضى الى نوع من الملكية الفردية .

٣- وأراضى الهبات نوعان : النوع الاول عبارة عن أراضى يعتبر دخلها بمثابة مرتب موظف الحكومة الذى منح هذه الارض ، أما النوع الثانى فهو عبارة عن الأراضى الواسعة التى منحها البطالمة على سبيل الهبة لكبار الموظفين المدنيين والعسكريين ورجال البلاط . وهذه الهبات كانت موقوتة بحياة الموهوب له ولا تؤول من بعده الى ورثته ، كما ان الملك كان يستطيع الرجوع اليها فى أى وقت شاء ، لأنها تتصل بالمنصب الذى يشغله الموهوب له فى الدولة .

٤- أما الأراضى التى كانت مملوكة ملكية فردية فلم تكن تشمل فى

لأصل سوى أراضي البشاء وبساتين الخضمر والفاكهة وأراضى النخيل والأعناب . وفى عام ١١٨ ق .م أصدر بطليموس السابع بغية اصلاح الأراضى البور ، أمرا ملكيا قرر فيه أن كل من يزرع الأراضى التى غمرتها المياه أو الراضى الجافة كروما أو بساتين يكتسب ملكية هذه الارض ويعفى من الضريبة فى الخمسة أعوام الأولى ، ولا يطالب فى الثلاث السنوات التالية الا بنصف الضريبة المقررة على الأراضى الجيدة . وقد أدى هذا الأمر الى انتشار الملكية الفردية الى حد ما فى أواخر العهد البطلمى .

نظام القضاء :

كان الملك صاحب السلطة القضائية ومصدر العدالة فى البلاد ، ومن المرجح أنه كان يوجد بجانبه على رأس النظام القضائى ذلك الموظف الكبير الذى يمكن تشبيهه بوزير العدل على أن الملك لم يكن مصدر العدالة فحسب ، بل كان يياشر القضاء بنفسه فى محكمته الخاصة التى يبدو أنها كانت محكمة استئناف عليا وأنها كانت تنظر فى الظلامات التى كان الناس يرفعونها الى الملك باعتباره الملاذ الأعلى الذى يهرعون اليه كلما لحق بهم ظلم . وكانت هذه المحكمة تنعقد بالاسكندرية حيث كان يوجد بالقصر الملكى باب يدعى « باب الأحكام » ولكن يبدو أنها كانت تنتقل أيضا مع الملك أينما ذهب .

وكان الملك ينيب عنه قضاة مصريين للفصل فى قضايا المصريين ، وقضاة اغريقيا للفصل فى قضايا الاغريق . غير أن الشكاوى الموجهة ضد موظفى الادارة وعمال المالية ، والقضايا التى يمس موضوعها موارد الملك أو التى تتعلق بالأفراد الذين يمدون الخزنة بمواردها - مثل زراع الملك وعمال

الصناعات التي تحتكرها الحكومة - فهذه كانت لا تنتظر أمام المحاكم العادية بل كان الموظفون هم الذين يعملون فيها .

وليس لدينا سوى معلومات طفيفة عن المحاكم المصرية لانتسمح لنا بأن نتبين بجلاء كيفية تشكيلها ولا مدى اختصاصها . غير أنه لما كان البطالة قد احتفظوا بالقانون المصري ليطبق على رعاياهم من المصريين ، فانه يحتمل أن هذه المحاكم كانت تمت بصلة الى المحاكم الفرعونية وأنها كانت تنظر في القضاى المدنية والجنائية على السواء . على أنه من الثابت أنها كانت كغيرها من المحاكم البطلمية لاتفصل فى القضايا فحسب ، بل كان يمكن أيضا عقد الصلح أمامها بين طرفى الخصومة . ويدلوا أنه كان يمكن استئناف احكامها أمام محكمة عليا يرأسها وزير العدل فى الاسكندرية أو أمام محكمة الملك الخاصة .

أما المحاكم الاخرقية فكانت محاكم متقلة تتجول فى أنحاء الأقاليم ، وكانت مشكلة من هيئة تتألف من ثلاثة قضاة ، يرجع أنهم كانوا أفرادا من نزلاء البلاد لا موظفين ، يعهد إليهم الملك بولاية القضاة لمدة معينة . وكان لكل هيئة مدعى عام وكاتب ومحضر ، ويقوم المدعى العام بحسب كافة الالتزامات والوثائق المقدمة للمحكمة ، كما يقوم بدعوتها الى الانقاد ، ويوقع الأحكام التى تصدرها . ولا يعرف بالضبط اختصاص المحاكم الاخرقية لقللة المعلومات التى لدينا عنها ، وهل كانت أحكامها تستأنف أماما محكمة الملك الخاصة أم أمام جهة عليا أخرى .

ويلاحظ أنه لما كان من غير الميسور على اللوام تنظيم اختصاص المحاكم وفقا لجنسية الخصوم ، لأنه لم يكن هناك كفو من أن يؤدي التعامل بين

المصريين والاغريق الى منازعات يمون فيها طرفا الخصومة من جنسيتين مختلفتين ، فقد وجدت فى القرن الثالث قبل الميلاد، أى فى بداية الحكم البطلمى ، محكمة مختلطة لايعرف كيفية تشكيلها ولا مدى اختصاصها ، وانكان من المرجح أنها كانت تفصل فى القضايا المدنية بين الاغريق والمصريين . غير أنه لا يوجد أثر لهذه المحكمة بعد القرن الثانى ، أى بعد تطور النظام القضائى فى أواخر عهد البطالمة ، حين عهد بالسلطة القضائية لبعض كبار الموظفين الاداريين مثل قواد المديرىات ومساعدتهم ، مع بقاء المحاكم المصرية والاغريقية قائمة على حالها .

ولكن يبدو أن المحاكم الاغريقية بدأت فى ذلك الوقت تعمل على توسيع اختصاصها على حساب المحاكم المصرية وذلك بالفصل فى الدعاوى التى يكون فيها طرفا الخصومة مصريين ، ولعل هذا ما دعى الملك بطليموس السابع الى اصدار أمر ملكى فى عام ١١٨ ق.م . قضى فيه بأنه اذا قام نزاع بين مصرى واغريقى نتيجة لعقد محرر بينهما ، فان لغة العقد بين الطرفين هى التى تقرر نوع المحكمة التى تفصل فى النزاع ، فاذا كان العقد مصرى فان المحاكم المصرية هى التى تختص بنظر النزاع ، وان كان اغريقيا فان المحكمة الاغريقية هى التى تفصل فى الدعوى .

وأخيرا كانت توجد محاكم للقضاة الاغريق فى المدن الاغريقية ، ولاسيما فى الاسكندرية ، ولايعرف ما اذا كانت محكمة الاسكندرية تختص بنظر قضايا العاصمة فقط ، أم أنها كانت تنظر أيضا فى قضايا بعض المديرىات القريبة منها .

مصادر القانون فى هذا العهد :

كان الملك وحده هو مصدر القانون فى هذا العهد مثلما كان مصدر جميع السلطات . ولكن هذا لايعنى أن جميع القوانين التى كانت سارية فى البلاد ، قد وضعت وصدرت عن الديوان الملكى ، وانما ذلك يعنى أنه لم يكن هناك قانون مطبق فى البلاد مالم يصدق عليه الملك قبل تطبيقه ، فالقانون المصرى لم يكن من وضع البطالمة ولكننا لانعرف بأى قرار ملكى صدق عليه . وقد كانت قرارات الملك على أنواع : قوانين ، وأوامر ، ومراسيم ، ولوائح .

١- لم يرد فى الوثائق التى بين أيدينا سوى ذكر القوانين السياسية التى أصدرها البطالمة للمدن الاغريقية ، ولا يعرف ما اذا كانت هذه القوانين قد صدرت من الملك بعد موافقة المجالس النيابية التى كانت تشرف على ادارة هذه المدن أن أنها صدرت من الملك بدون موافقتها ، وهذه القوانين كانت تعتبر بمثابة دستور هذه المدن من الوجهة السياسية كما أنها كانت تتضمن قواعد النظام القانونى الذى كان ساريا فيها .

٢- والاوامر الملكية هى تشريعات بمعنى الكلمة ، أصدرها البطالمة أما لتبيان القواعد القانونية التى تطبق على الجماعات الاغريقية التى كانت تعيش فى انحاء البلاد ، وأما لاحداث جديد فى النظام القانونى ، وفى هذه الحالة كانت تسرى على الاغريق والمصريين على السواء ، أو لمنح امتيازات لفئة من السكان كالاغفاء من ضرائب معينة .

٣- والمرامىم كان يتم بمقتضاها تعيين كبار الموظفين أو تنزهيهم أو اصدار أوامر اية اليهم ؛ مبانا فى صور رسائلى

٤- أما اللوائح فكان يتعمد بها تنفيذ القوانين ، وكانت أما لوائح ادارية
كلائحة احظر صناعة الزيت ، أو لوائح تشريعية خاصة بالقضاء التي كانت
تتضمن اجراءات التقاضى وقواعد المرافعات أمام المحاكم .

وكانت المحاكم على اختلاف أنواعها ملزمة بتطبيق القوانين وسائر الملكية
على جميع المسائل التي تدخل فى اختصاصها متى كان ، أما قيمة عناصر
الاتراك على القضاء اتباع ما يراه .

النظم الادراية

مامن شك ان مع بداية حكم البطالمة كان الملك البطلمي مؤم صاحب عصر وسيد رعيته المطلق ، الذى تتركز فى يديه كل السلطات فهو الرئيس الدينى ، والقائد الاعلى للجيش والاسطول ، ورأس الادارة الحكومية ، وصاحب السلطة الادارية العليا . وكانت مصر ضيعة الملك وكبار موظفيها الاداريين يخضعون لادارة الملك ، التى كانت تصدر لكل القوانين . وعلى هذا فان النظام الادارى فى مصر يعتبر نابعاً من شخص الملك ومرتبطة بارادته^(١)

ومما لاشك فيه أن البطالمة حين حضروا الى مصر ، وجدوا نظاما اداريا ساريا فى انحاء البلاد منذ العصور القديمة ، فقد كانت مصر تستغل منذ عهد مينا على قسمين مختلفين ، احدهما وادى النيل ويسمى مصر العليا والآخر هو الدلتا ويسمى مصر السفلى ، وتنقسم مصر العليا ومصر السفلى الى عدد من الاقاليم اطلق الاغريق عليها منذ عهد هيرودوت اسم نوموس ولكن هدف البطالمة كان يتجه الى اغرقه الجهاز الحكومى . ثم تطويره بما يناسب الظروف الجديدة .:

ولذلك مع بداية عهد بطلميوس الثانى ظهر فى ادارة البلاد نظام آخر ، يشير الى احتلال البلاد بسلطة عسكرية اجنبية . ويوضع قائد استراتيجوس على كل نوموس وذلك يعتبر تطورا ادخل على نطاق الوظائف فى النوموس ، فاصبح قائدها وحكامها ذا صبغة عسكرية ، وكان الاستراتيجوس دائما من الاغريق وقد وجد الى جانبه موظف يسمى نومارخوس وشه مرؤس -

(١) د . ابراهيم نصبحي ، مصر فى عصر البطالمة حيا من ١٣٥ ق . م .

للاستراتيجيوس ، وكان من أهم اختصاصاته الاشراف على الاعمال العامة وارضى الملك .

كذلك من أهم الموظفين الذين وجدوا في ادارة النوموس هو الكاتب الملكى ويكاد يكون مشغولا عن جميع اعمال النوموس كذلك وجد المراقب وهو مختص بشئون القضاء المحلى ورئيس الشرطة ومشرف مالى يعاونه مدير مالى .

وكانت النوموس تنقسم بدورها الى مناطق تسمى توپارخيا أو نوموس ثم تنقسم النوموس الى كوندى . وكان لكل قسم من هذه الاقسام موظفوه والادارة هذه الاقسام صورة مصغرة من ادارة النوموس .

ولكن كيف نظمت علاقة النوموس بالسلطة المركزية^(١) فى الاسكندرية ؟ .

لقد اهتم الملك بطلمبيوس الاول والملك بطلمبيوس الثانى بالتنظيم الداخلى اهتماما كبيرا ، ومنذ نهاية عصر بطلمبيوس الثالث نجد أن نظام الحكم فى مصر قد استكمل معظم معالمه .

اهم منصب فى الحكومة المركزية فى الاسكندرية عاصمة البطالمة هو وزير المالية المسمى ديوكيبتيس ، ورغم ان منصبه يعنى أنه المدير المالية الدولة الا أنه كان فى الواقع له سلطاته كبير على جميع مرافق الدولة واليه ترفع التقارير والبيانات والاحصاءات والشارات الادارية وكان مركز هذا المنصب الخطير يختلف قوة وضعف حسب اختلاف شخصيات الملوك ووزرائهم بين

(١) د . مصطفى العبادى : مصر من الاسكندر الاكبر ص ١٢٠

القوة والضعف .

وكان لوزير المالية مساعدون مباشرون يحمل كل واحد منهم لقب مساعد وزير المالية . ولعل هؤلاء كانوا بمثابة رؤساء المكاتب التي تنقسم اليها ادارة الوزير بحيث ان كل مساعد لوزير المالية يختص باقليم من الاقاليم مصر . ومن كبار الموظفين ايضا رئيس الحسابات الذى كان يعاون الوزير فى اعداد الاحصاءات وتقدير الضرائب كل سنة ، وكان يساعده عدد كبير من المحاسبين فى انحاء البلاد .

الى جانب هؤلاء الموظفين كان للملك معاونون آخرون ملحقون بالقصر للاشراف على ما يمكن أن يسمى بالديوان الملكى ، ومن هؤلاء كتاب رسائل للملك ، وسكرتير خاص .

ان كانت السلطة المحلية أو الادارة المحلية تخضع للسلطة المركزية فى الاسكندرية . حقيقة من الصعب تحديد كيف نظمت العلاقة بينهما ، الا أننا يمكن القول ان مهمة القائد للاقليم وللادارة المحلية - الاستراتيجيوس انه هو الذى كان يتولى الاتصال بالسلطة المركزية .

نأتى فى نهاية حديثنا عن النظم الادارية الى حكم الممتلكات الخارجية فان مصر فى خلال القرن الثالث تمتعت بامبراطورية خارجية شملت بركة وسوريا (الجزء الجنوبى من سوريا وفينيقيا وفلسطين) ، وقبرص و اجزاء من سواحل اسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وجزر ومناطق فى بحر ايجة . ولعل البطالمة لم يطبقوا نظاما موحدًا فى جميع الاقاليم . ولكن مما لاشك فيه انهم اقاموا حاميات عسكرية فى بعض المناطق ذات الاهمية العسكرية وكان قائد الحامية العسكرية عادة ذا نفوذ كبير حتى يظن انه شغل منصب نائب

الملك فى المستعمرة .

القضاء :

عنى البطالمة باحترم عادات المصريين وقوانينهم ، ولكنهم مع ذلك لم يفرضوها على الاجانب المقيمين فى مصر ، بل أنشئوا لهم من القوانين ما يلائمهم . ولما كان أغلب الاجانب من الاغريق ، فقد استرشد البطالمة بوجه عام فى تشريعهم الجديد بالقوانين والعادات الاغريقية .

ظل القانون المدنى القديم معمولاً به بين المصريين ، وكانت محاكم القضاة الوطنيين ، تفصل فى قضايا المصريين وفقاً لأحكام القوانين المصرية ومحاكم الاغريق المتنقلة تفصل فى قضايا الاغريق المقيمين خارج المدن اليونانية أما القضايا الوطنية التى تنشأ بين الاغريق والمصريين فقد شكلت لها فى خلال القرن الثالث ق . م محكمة مختلطة ولكنها الغيت فيما بعد بصدر قرار ملكى فى عام ١١٨ ق . م^(١) . ينص على عرض القضايا التى تنشأ بين الاغريق والمصريين حول العقود المكتوبة باللغة اليونانية امام المحاكم الاغريقية أما القضايا التى تنشأ حول عقود مبررة بالديموطيقية فتتظر امام محاكم القضاء الوطنيين .

والى جانب هذه المحاكم كان الموظفون الاداريون يقومون بالفصل فى القضايا ذات الطابع الخاص ، كذلك التى تتأثر بها الاحتكارات الملكية فان هذه المشاكل كانت لا تنتظر امام المحاكم العادية . وكانت جميع هذه القضايا تخضع لادارة الملك وهو صاحب السلطة الادارية العليا .

(1) P. Jept 1. 5 .

النشاط الثقافى

هـ - النشاط الثقافي :

تظهر الناحية الثقافية في العصر البطلمي كواحدة من أبرز صور السياسة البطلمية ومن أكثرها نفعا وابعدها الرا اذ نجد أن ملوك البطالة قد حرصوا على أن يجعلوا من الاسكندرية اعظم المراكز الثقافية في العالم المتأخرق⁽¹⁾ بل وفي العالم القديم كله ، ليكون لهم من ذلك قاعدة ادبية يشبتون بها مكاتسهم ويخدمون بها مركز دولتهم في المنطقة.

وان عبقرية بطلميوس الاول التي مكنته خلال فترة وجيزة لاتتجاوز العشرين عاما من ان يضع الاساس الثابت للامبراطورية البطلمية وان يواصل العمل بناء المدينة العظيمة التي ستصبح عاصمة لامراطوريته ، لا بد أنها دلت أيضا على ما يلزم اقامته ليتحتم قبولها كعاصمة عالمية ، لذلك سرعان ما استجاب طموح بطلميوس الاول في خلق مركز عظيم لمدينة الاسكندرية عاصمة ملكه وسط العالم المتأخرق لامتزاج السياسي والفيلسوفى ديوتريوس الفاليزى الذي لجأ الى مصر سنة ٢٩٥ ق م . بعد سقوطه هنا في يد ديوتريوس ابن الكابونوس سنة ٣٠٧ ق م - بتأسيس ذلك العمل العظيم الذي لم يؤثر فحسب في العالم الهلاني ، بل بقيت له مكائنه في العصور اللاحقة الأروهر الموسيون وملحقته مكتبه الاسكندرية اعظم مكيمات العالم القديم .

على أن تأسيس بطلميوس الاول للموسيون والمكتبة في الاسكندرية القديمة اليوم حوله بعض الشكوك ، اذ ترى بعض المسافر القديمة ان

(1) Fraser, Ptol. Alex. p. 306 - 307 .

بطلميوس الثانى هو مؤسسها ، الا انه لايتفق مع هذا الرأى ما هو ثابت من أن أول من اشرف على انشائها هو ديتمريوس الفاليرى مستشار بطلميوس الاول⁽¹⁾

الموسيون (المعهد) :

الموسيون كلمة يونانية معناها معبد ربات الفنون والعلوم .

أما عن انشائه ، فقد رأينا ان بطلميوس الاول حسب اقتراح - ديتمريوس الفاليزى شرع بتأسيس مجمع علمى هو الموسيون (المعهد) وملحقته مكتبة الاسكندرية . وعين ديتمريوس مشرفا على هذا العمل ورئيسا للموسيون وامدة بالمال اللازم بشراء الكتب وجذب العلماء الى الاسكندرية لتنافس الاسكندرية عاصمة اثنيا نفسها كمركز للثقافة والعلوم فى العالم القديم .

وسرعان ماتم بناء الموسيون ، الذى يعد أحد المعالم الرئيسية فى مدينة الاسكندرية ، كان بناء رائعاً فخماً ، اقيم فى منطقة القصور الملكية ، وقد اقام فيه استرابون خمس سنوات لتأليف كتابه فى الجغرافيا .

بعد أن حضر الى مصر فى أواخر القرن الاول ق . م . وان استمرار الموسيون كل هذه الفترة لدليل على قوته وعظمته وان البطالة الاوائل قد نجحوا فعلاً فيما ارادوه لعاصمتهم . وقد وصف استرابون⁽²⁾ الموسيون بقوله

(1) Bouche Leclercq. Hist. d. Lag. 1. p. 119 .

(2) Strabo, xvll, 1 . 8 .

« الموسيون جزء من القصور الملكية ، ويشتمل على منتزه ورواقه به مقاعد ، وبيت كبير به قاعة لاجتماع العلماء اعضاء الموسيون» .

وكان الموسيون يتكون من عدة حجرات للنوم وقاعات للاكل واروقة وارفف ومقاعد للراحة والقراءة ، وكان يقوم فوق كل هذا لتلاميذه ، وخصوصا الباحثين من كل انحاء العالم ، المصادر التي لامثيل لها الا فى مكتبة الاسكندرية ولكل وسائل الراحة التي توفرت فى الموسيون أكبر الأثر فى اجتذاب العلماء والباحثين من جميع انحاء العالم القديم .

ان اهم الدعامات التي يجب ان يقوم عليها الموسيون بعد انشائه ، حتى يكون له اثره كمركز اشعاع للعالم المتأغرق فى العلماء ، فوجودهم هو الذى يعطى الموسيون قيمته ، وقد ادرك ذلك الملك بطلميوس الاول ومن خلفه ، لذلك استقدموا العلماء من جميع انحاء العالم المتأغرق لتعيينهم فى الموسيون والاستفادة منهم . وكان ديمتريوس الفاليري يختص باختيار ودعوة سخية من الدجال القادرين على نشر الثقافة الادبية والعلمية الى عاصمته الجديدة ، كما انهم سكلوا لترغيبهم فى ذلك شتى الطرق ، قد اوقف البطالمة على الموسيون ملكية خاصة وكانت اقامة العلماء فيه مكفولة لهم كما منح كل عالم من علماء الموسيون راتبا سخيا منتظما ويبدو أن هذه كانت سمة من سمات البطالمة .

وكانت هذه الرواتب تدفع لهم من المنح الملكية ، كما كان لهؤلاء العلماء من اعضاء الموسيون امتيازات أخرى خاصة لهم ، منها الاعفاء من

الضرائب والاعفاء من تولى الاعمال العامة التي كان المواطنون يلزمون بها . ذلك كله بالاضافة الى توفير الكتب اللازمة للبحث والاطلاع فى المكتبة الملحقه بالموسيون والتي صارت اعظم مكتبات العالم القديم .

لم تذهب جهود البطالمة فى سبيل اجتذاب العلماء من العالم المتأغرق سوى ، سرعان ما توافر على الموسيون والمكتبة علماء وادباء ومفكرون من جميع انحاء العالم المتأغرق .

من هؤلاء العلماء « اقليدس » وهو عالم فى الهندسة ، ومؤسس البحث العلمى . كذلك « هيروفيرلوس » العالم فى التشريح ومكتشف الجهاز العصبى ، « واستراتوس » العالم فى وظائف الاعضاء . وكذلك استرانون وهو من ابرز العلماء الذين اهتموا بدراسة علمى الحيوان والنبات .

وقد بلغ من قوة السمعة العلمية العالمية التى اشتهرت بها الاسكندرية وخاصة فيما يتعلق بمجال العلوم ، ان ذكر لنا المؤرخ « اميانوس ماركلينوس »^(١) مشيراً الى هذه القوة ، ان خير تزكية كان فى امكان أى طبيب ان يحصل عليها هى أن يقال عنه انه اتم دراسته فى جامعة الاسكندرية .

(٢)
المكتبة :

استفاد بطلميوس الاول من ثقافة ونشاط ديميزيوس الفاليرى بأن وضع على عاتقه انشاء مكتبة الاسكندرية ، ولم يبين استرابون موضع المكتبة من الموسيون فى وصفه ، لكن مما لاشك فيه انه قد الحقت بالموسيون مكتبة

(1) Ammianus Mar. xvll, 16.

(٢) د . مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية القديمة .

كبرى خاصة به يعرفها المؤرخون بالمكتبة الكبرى أو المكتبة الام تميزا لها
عن المكتبة الاصغر التي الحقت بمعبد السرايوم .

وقد انشىء هذا المعبد للاله سيرابيس الاله الرسمي الجديد للدولة
البطامية فى عصر بطلميوس الثالث ، وقد طبقت شهرة هذا المعبد
الامان فى العالم القديم وكان طبيعيا ان تلحق به مكتبة ، وكانت المكتبة
الملحقة به صغيرة الحجم الا أنها سرعان ما نمت وكبرت ، وخصوصا بعد
أن ضاقت المكتبة الكبرى بالمكتب ، وبالتالي امتدت اليها الحركة العلمية
والثقافية .

فى سبيل تركيز الأضواء على الاسكندرية عاصمة الدولة البطلمية
كمركز الثقافة العالمية سعى البطالمة الى سلوك كل سبيل ممكنة لتزويد
مكتبة الاسكندرية القديمة بالكاتب والافائف البردية ، وكانت اول هذه
الطرق هى الشراء ، ولم يدخر البطالمة جهدا أو مالا فى سبيل الحصول على
الكاتب اينما وجدت وكانت اكبر اسواق الكاتب فى ذلك الوقت فى اثينا
ورودس .

كما أن ديمتريوس ، وهو من تلاميذ ارسطو ، استطاع ان يشتري لمكتبة
الاسكندرية مكتبة ارسطو بمبلغ ضخم وكانت تعتبر اكبر مكتبة فى عصره ،
وبالتالى كانت اعظم الكاتب التى حصلت عليها مكتبة الاسكندرية والتى
اعطتها المزيد من الشهرة وهناك رواية أخرى بان بطلميوس الثانى هو الذى
قام بشراء مكتبة ارسطو ، وعلى أى حال فمنهما اختلفت الاراء فيمن قام
بشراء مكتبة ارسطو ، فالمهم هو ان مكتبة الاسكندرية قد حصلت عليها
فعلا - وضممتها الى مقتنياتها .

وفى سبيل رفع شأن المكتبة وجذب الانتباه اليها لجأ البطلمة الى سبل كثيرة للحصول على الكتب لمكتبتهم وخاصة النسخ الاصلية منها.

يحدثنا يوسيبوس ان بطلميوس الاول طلب من سكان القدس موافاته بمخطوطاتهم مترجمة الى اللغة اليونانية ، وقد ارسلوا اليه سبعين شخصا من أكثر الناس دراية بالكتاب المقدس والمتمكنين من اللغتين العبرية واليونانية . واراد بطلميوس أن يختبر هؤلاء المترجمين الواحد عن الآخر فطلب منهم ان يقوموا بالترجمة منفردين وحتى لا يخفوا شيئا من حقائق الكتاب المقدس (التوراة) او يقوموا بتحريفها .

ولقد اشتهرت هذه الترجمة بعد ذلك بالترجمة السبعينية نسبة الى عدد المترجمين الذين اشتركوا فيها . وتعد هذه الترجمة من اشهر التراجم للكتب غير اليونانية الى اليونانية وهى تعتبر اوثق نص للتوراة .

وهكذا يتضح بجلاء ان البطلمة فى سبيل خلق قاعدة ثقافية فى عاصمة ملكهم تكون مركزا للاشعاع الحضارى فى العالم المتأغرق ، بما يمثله ذلك من دعاية سياسية لحكمهم ، سلكوا كل الطرق فى سبيل تزويد مكتبة الاسكندرية القديمة بالكتب فى جميع الفروع وبأقصى قدر ممكن وبأى ثمن يستطيعونه ، حتى ولو لجأوا فى سبيل ذلك الى طرق ملتوية ، وقد نجحوا فى ذلك الى اقصى حد ، حتى صارت مكتبة الاسكندرية اعظم مكتبات العالم القديم بسره واشهرها ، بعد ان حوت اعدادا لا حصر لها من الكتب .

ففى البداية استطاع ديمتريوس الفاليرى فى فترة وجيزة ان يجمع ٢٠٠,٠٠٠ كتاب ، كما انه ذكر لبطللميوس ان فى استطاعته فى فترة بسيطة اخرى ان يجعل عدد الكتب يصل الى ٥٠٠,٠٠٠ كتاب .

كذلك عمل البطالمة على تضيق الخناق على المكتبات المنافسة لمكتبة الاسكندرية فى ذلك الوقت ، وذلك لاضعاف هذه المكتبات وخاصة مكتبة برجامة التى كانت تعتبر المنافس الاكبر لمكتبة الاسكندرية القديمة ، كما زاد تعصب الباحثين عن الكتب من أهل برجامة ، ولم يكن السوق قادرا على مد الراغبين فى الشراء بما يكفيهم ، ولزم لعدد كبير من نسخ المخطوطات كمية ضخمة من اوراق البردى لا بد من استيرادها من مصر ، ووجد البطالمة فرصتهم فى ذلك لاضعاف منافستهم الكبيرة ، بحظر تصدير البردى من مصر ، حقيقة انهم انتجوا نوعا من الجلود صالحا للكتابة ، ولكن رغم ذلك ظلت مكتبة الاسكندرية هى المسيطرة الاولى على كل ما يتعلق بانتاج الكتب ، وهذا يدل على مدى الحرص من ناحية الملوك البطالمة على ان تكون مكتبة الاسكندرية المنافسة من الوسيلة السهلة لكتابة الكتب على اوراق البردى .

وسعى وراء تركيز الاضواء على عاصمة البطالمة كمركز للثقافة العالمية عهد البطالمة بامانة المكتبة الى سلسلة من الامناء كانوا من ابرز العلماء كل فى ميدانه . وقد تعهد هؤلاء الامناء بان يقوموا بتنظيم المكتبة وتصنيف الكتب وفهرستها ، الأمر الذى يسهل عملية استعمال هذه الكتب بالنسبة للدارسين فيها فى شتى المجالات .

وهكذا نجد ان البطالمة قد نجحوا فى سياستهم من الناحية الثقافية الى

ابعد حدود النجاح ، فاصبح الموسييون أو ملحقتة مكتبة الاسكندرية القديمة اعظم مراكز الاشعاع الثقافى فى العالم بأسره بما حوته من كتب عديدة فى مختلف فروع المعرفة ، وبمن انضم اليها من اشهر العلماء فى ذلك العصر ، كما اجتذبت العديد من الدارسين .

الفصل الخامس
روما والشرق الهلينيستي

الفصل الخامس

روما والشرق الهلنستي

أهم مصادرنا عن هذه الفترة :

ولد بوليبيوس ميجالوبوليس باقليم أركاديا بالبلوبونيز . ويعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر لمعلوماتنا عن فترة التوسع الروماني خلال القرن الثاني (٢٠٠ - ١٤٤ ق. م) . كان أبوه قطبا سياسيا فبدأ بالاشتغال بالسياسة في سن مبكرة اثناء فترة حاسمة من تاريخ بلاده وهي احتدام النزاع بين عصابة أو « حلف أخيا » والرومان . ذهب الى روما كرهينة مع ألف من بنى قومه حيث قضى عدة سنوات تعرف فيها على أخلاق الرومان ونظمهم وزعمائهم . سمحت له السلطات الرومانية بالتنقل بين أنحاء ايطاليا . وبعد تدمير كورنث (١٤٦) أسهم في تصفية الموقف مع بلاد اليونان . وكتب بوليبيوس تاريخا عاما أو عالميا في ٤٠ كتابا عالج فيه الفترة الممتدة من ٢٢٠ - ١٤٤ ق. م . والكتل الخمسة الأولى (١ - ٥) كاملة (وفيها يستعرض بإيجاز الحرب البونية الأولى ، والأحوال في روما وقرطاجة والشرق خلال الفترة ما بين عام ٢٦٤ وعام ٢١٦) ، والكتب من ٦ - ٤٠ (وصلتنا في شكل شذرات ، فضلا عن مقتطفات منها وردت ضمن مؤلفات ليفيوس ، وديودور الصقلي وأبيانوس وبلوتارخوس .

أهله خبرته السياسية والعسكرية لأن يكون مؤرخا كبيرا ، وقد رجع بنفسه الى السجلات الرسمية ، فضلا عن معرفته بالشخصيات الكبيرة ، والمامه بالأحداث الجارية . لقد راعه صعود نجم روما في أفق البحر المتوسط ، وتأثر بقوتها وأعجب باستقرار نظمها السياسية ،

وبالدستور الروماني الذي وصفه بأنه دستور متوازن يجمع بين مختلف العناصر : الملكية أو الحكم الفردي الممثل في الامبريون القنصلي ، والارستقراطية الممثلة في السناتو ، والديمقراطية الممثلة في الجمعيات الشعبية ونقاء العامة . لكنه لم يفطن الى أن هذا الدستور كان قد بدأ يختل في أيامه نتيجة للفتوحات والتوسع . أعجب بوليبيوس بأخلاق الرومان ، وعزا هذا التوسع الى صلابه هذه الأخلاق ومتانة الدستور الروماني . لكن بمرور الزمن أحس بوليبيوس بأن تغييرا طرأ على أخلاق الرومان نتيجة للتوسع ، والثروة ، والفساد فتخلى عن نظريته السابقة وبدأ يعزو هذا التوسع الى قوة خفية هي الحظ أو التوفيق .

كذلك توجد عدة نقوش معظمها يونانية نستقي منها معلومات عن هذه الفترة .

الحالة السياسية في الشرق في عام ٢٠٠ :

استطاعت روما في غضون السنوات التي أعقبت معركة زاما (٢٠٢) أن تفرض سيادتها على الجانب الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط مثلما فعلت في حالة الجانب الغربي منه كنتيجة للحربين البونية الأولى والثانية ، أي أن روما بعد أن فرغت من الجانب الغربي ولى وجهها شطر الجانب الشرقي . ولكي نفهم أسباب تدخلها في الشرق ، واتساع سلطانها بسرعة في تلك المنطقة ينبغي أن نلقى نظرة على أحوال الممالك الهلنستية الثلاث التي كانت قد قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر الأكبر وهي مصر ومملكة آل سليوكوس (أو سوريا كما يسميها الرومان) ومقدونيا .

وأما عن مملكة مصر التي كانت تخكمها أسرة البطالمة المقدونية

فكانت تشمل وادى النيل ، وبرقة وساحل سوريا وقبرص وبعض المدن في جزر وسواحل بحر ايجه . وكان البطالة أجناب يحكمون رعايا أغلبهم من المصريين . وكانوا يحتفظون بسيطرتهم عن طريق جيش قوامه من المرتزقة المقدونيين والاغريق ، وعن طريق إدارة مركزية قوية جميع مناصبها في يد الاغريق . ولما كان الملك البطلمي قد استولى على مصر بحد السيف ، فقد اعتبر نفسه المالك الوحيد الأرض - يشتغلون كمستأجرين للأراضي الملكية . وقد فرضت عليهم قيود كثيرة والتزامات جعلتهم في وضع لايتخلف كثيرا عن أقتان الأرض . وكان نظام الضرائب ، والاحتكار معقدا مرهقا ، وبفضله تمكن البطالة من تنمية ائدخل واقتناء ثورة طائفة تحدث عنها الشعراء وعاشوا عيشة البذخ في عاصمتهم الاسكندرية ، وساعدهم ذلك على متابعة سياستهم الاستعمارية .

وبعد عام ٢٦٧ كانت سياسة البطالة تهدف الى توطيد سيادتهم في البحر الايجي - وهو ملتقى أنظار الممالك الهلينيستية الثلاث - وجنوب بلاد اليونان ، (التي كانت لاتزال قبلة أنظار ملوك العصر الهلينيستي بوصفها أما روحية ، وموطنا للخبراء والجنود المرتزقة ، وأداة للدعاية) وفينيقيا الغنية بالاحشاب التي تفتقر اليها مصر . ولتحقيق هذه السياسة اضطر البطالة الى بناء أسطول للسيطرة على مياه الجانِب الشرقى من البحر المتوسط ، غير أن ذلك أدى الى اصطدامهم باستمرار بمقدونيا ومملكة سلبوكوس ، اذ كانت احدهما تسمى دائما الى طرد البطالة من البحر الايجي ، والأخرى تعمل على تطهير ساحل سوريا من نفوذهم .

في عام ٢٤٦ تخطم الاسطول البطلمي في معركة أندروس (Andros) على يد مقدونيا فتضععت سيادة البطالمة البحرية ، ولكنهم لم يتنازلوا عن ممتلكاتهم في سوريا والبحر الايجي . وفي عام ٢١٧ غزا الملك السلتيوكي مصر من الشرق فاضطر بطليموس الرابع (فيلوباتور) هو ووزرائه الى حجة نيد المصريين في الجيش لأول مرة ، وانتهت « معركة رفع » بانتصار البطالمة على العدو بفضل المصريين ، وزال الخطر الخارجي ، ولكن معركة رفع تعتبر نقطة تحول في تاريخ مصر البطلمية لأن هذا الانتصار زاد من اعتزاز الوطنيين بأنفسهم ودفعهم الى المطالبة بحقوق وامتيازات كانوا محرومين منها . وانطلقت الحركة القومية فلنشد الاحتكاك بين العنصرين المصري والاغريقي ، ونشبت الشورات ، الأمر الذي أدى الى انهك قوى الأسرة البطلمية واضعاف مركزها ، وزادها ضعفا استحكام النزاع بين أفرادها ، وهو نزاع لم تستفد منه سوى روما التي تزايد تدخلها في شؤون مصر الداخلية ، وصار البطالمة غير قادرين على حماية ممتلكاتهم في الخارج ، أو الدفاع عن مصر نفسها ضد الغزو في المستقبل .

وأما مملكة سلبيوكوس التي عرفها الرومان فيما بعد باسم « سوريا » فكانت عاصمتها في أول الأمر هي سلوقية التي اسست عام ٣١٢ على نهر الدجلة ثم انتقلت الى أنطاكية على نهر العاصي . وتعتبر أكبر الممالك الهلينستية وأكثرها سكانا ، وتلى مصر في الثروة . كانت في الواقع امبراطورية تمتد من البحر الايجي الى حدود الهند ، وتشمل جنوب آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ، وفارس ، وشمال سوريا . لكن اتساع رقعتها كان عاملا من عوامل ضعفها لتباعد المسافات بين

ولاياتها المختلفة ، وعدم تجانس الشعوب التي تسكنها . كانت أسرة سليوكوس كأسرة بطليموس ، تحتفظ بسيطرتها عن طريق جيش من المرتزقة ، وعن طريق المدن الاغريقية التي أسسها الاسكندر الاكبر وخلفاؤه لتكون مراكز اشعاع للحضارة اليونانية . غير أن هذه المدن التي كانت بمثابة الجزر الصغيرة وسط بحر فسيح لم تحدث الا أثرا طفيفا ولم تنجح الا بنجاح ضئيلا فى صبغ الأهالى بالثقافة الهلينية فظلوا خاضعين للغزاة فى الولايات الشرقية ، والمنازعات بين أفراد الأسرة المالكة . هذا فضلا عن السياسة التي انتهجتها روما ازاءها لاضعافها ماديا منذ عام ١٦٨ حتى لاتقوم لها قائمة .

هذه العوامل أدت الى تمزيق أوصال الامبراطورية لفترة امتدت حتى عام ٢٢٠ عندما تحسن الموقف بفضل جهود ملك قدير عالى الهمة وهو انطيوخوس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) الذى أحدث ثورة حكام اقاليم ميديا وفارس وآسيا الصغرى وقام بعدة حملات مرفقة (٢١٢ - ٢٠٤) استرد بها ممتلكاته الآسيوية حتى بأكتريا وهى تقابل شمال افغانستان وجزء من تركستان الروسية (حيث تقع بلخ) . وكانت قد ضاعت من يد اسلافه ؛ وأكسبته الانتصارات لقب « الأكبر » .

وجدير بالذكر أن البحر الايجى كان موضع نزاع بين البطالمة وآل سليوكوس وكان كل من الفريقين يتطلع الى بلاد اليونان ويعمل على التودد اليها . على أن النزاع بينهما كان على أشده من أجل الساحل الفينيقي أو بالأحرى من أجل ما يعرف « بجوف سوريا » (وهو حوران وجزء من الأردن) .

وكان البطالمة - على نحو ما ذكرنا - فى حاجة شديدة الى

خشب لبنان لبناء الاسطول وأدى الصراع على « جوف سوريا » الى سلسلة من الحروب تعرف « بالحروب السورية » بين مصر وسوريا . وقد أنهكت هذه الحروب قوى الدولتين .

وأما مقدونيا - حيث كانت تخكم أسرة أنتيجونوس الملقب « بالأعور» (مات عام ٣٠١ ق . م) - فهي أصغر الممالك الهلينيستية مساحة وأقلها سكانا وأضالها موارد . ولكنها كانت أمة قوية فى الداخل ، وأكثر تماسكا من الممالك الأخرى . وقد احتفظت أسرة أنتيجونوس بطالع الملكية التقليدية ، وعملت على أحياء الروح القومية بين المقدونيين وكسب ولئهم ، وتمسكت بالنظام والتقاليد العسكرية التى كانت سائدة فى أيام فيليب الثانى وابنه الاسكندر الأكبر . وتهيأ للموكها فرصة تكوين جيش أغلبة من المقدونيين الذين لم يفقدوا صفاتهم الحربية ، وكان هذا الجيش على صفره جيشا وطنيا قديرا . وكانت مملكة آل أنتيجونوس تشمل الى جانب مقدونيا ، تيساليا وشرق بلاد الاغريق بسبب مقاومة الحلفين الآخى والأىولى اللذين كانا يتنقيان مساعدات ضخمة من البطالمة . غير أن المنازعات بين الدويلات الاغريقية أدت الى انحياز الحلف الآخى (عصابة آخيا) الى جانب مقدونيا . وفى عام ٢٢٢ تمسكت مقدونيا من توحيد وسط بلاد اليونان والبلوونيز فى حلف أو عصابة تحت زعامتها . واستطاع فيليب الخامس (٢٢٢ - ١٧٩) ، أن يحتفظ بمركز مقدونيا فى بلاد الاغريق على الرغم من هجمات أيتوليا وبرجامون ورودس من أثناء الحرب المعروفة « بالحرب المقدونية الأولى » (٢١٥ - ٢٠٥) .. وكانت بلاد اليونان ذات أهمية خاصة بالنسبة لمقدونيا لوقوعها بالقرب منها مباشرة . ومنذ أن غزا

فيليب والاسكندر بلاد اليونان لتأمين ظهره قبل قيامه بالحملة على بلاد
الفرس صار لمقدونيا حق التدخل والتسلط ، ولذلك عملت على تثبيت
أقدامها فى تلك البلاد باحتلال ثلاثة مراكز استراتيجية وهى ديميترياس
وخاليكس وكورنثة التى اشتهرت باسم « اغلال بلاد اليونان » . يلاحظ
أيضا أن محاولة تجميع بلاد اليونان فى شكل حلف انما هو تقليد قديم
يرجع الى ايام فيليب الثانى الذى أنشأ عصمة كورنثة تحت زعامته
الشخصية .

هكذا كانت لوضع فى الشرق الهلينيستى عند بداية التدخل
الرومانى - وسنحاول الان معرفة أسباب هذا التدخل .

فى عام ٢٠٤ (٢) مات بطليموس الرابع (فيلوباتور) فتولى
عرش مصر بطليموس الخامس « ايفانيس » (٢٠٤ - ١٨٠) وكان
لايزال صبيا لم يبلغ سن الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) على تجديد المحاولة
لانتزاع ممتلكات مصر فى سوريا . وكانت انتصارات الملك السليوكى فى
حملته الآسيوية (٢١٢ - ٢٠٥) التى استرد بها ما ضاع على يد
أسلافه ، قد أثارت الغيرة فى قلب فيليب الخامس ، ملك مقدونيا ،
فهاجم فجأة بعض مدن على ساحل طراقيا تدخل فى نطاق الحلف
الآيتولى ، وبعض جزر البحر الأيجى ، وقام باحتلالها فى عام ٢٠٢ .
وقد قيل فيما بعد أنه كان هناك اتفاق سرى أو توافق بين أنطيوخوس
وفيليب على اقتسام دولة البطالمة أو على الاقل اقتسام ممتلكاتهم الموجودة
خارج افريقيا . غير أننا نشك فى أن هذا مثل هذا الاتفاق قد تم بين
الملكين ، لأن مصالحيهما كانت متضاربة الى حد أن قيام هذا الاتفاق
يعتبر أمرا مستبعدا . ولم يأت عام ٢٠١ حتى كانت اعتداءات فيليب

على جزر البحر الايجى قد أدت الى اصطدمه ببرحامون وروودس اللتين استتجدتا بروما نظرا لعجزهما عن وقف اعتدائاته . وهذه الخطوة التي اتخذتها برجامون وروودس هي التي أدت الى تدخل روما فى شئون الشرق الهلينيستى والى قيام « الحرب المقدونية الثانية » .

الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠ - ١٩٧) :

لم يكن لروما سياسة شرقية محددة حتى عام ٢٠١ . وأما اصطدام روما مع دول أخرى كالليريا (٢١٩) ومقدونيا (٢١٥) فقد نجم عن عدوان هذه الدول عليها أو على حلفائها ، ولم ينجم عن سياسة عدوانية مرسومة من جانبها . وكانت طبقة ملاك الأراضى الارستقراطية فى روما منصرفه عن بلاد الاغريق والشرق الهلينيستى ولم تدخلهما بعد فى نطاق مطامعها . وهناك أكثر من قرينة على أن روما كانت لاهية عن شئون العالم الهليني ولا تكثرث بها ولا تخشى أى خطر من جانبه ، بدليل شروط الصلح السهلة التي فرضت على فيليب الخامس بعد الحرب المقدونية الأولى وعدم تلبية السناتو نداء يتوليا لنجدتها من عدوان فيليب فى عام ٣٠٢ ، وعدم أهتمامه بشكاوى مصر ضد أنطيوخوس « الأكبر » ونواياه السيئة نحوها . غير أن السناتو بدأ يفىق من غفوته ويغير موقفه السلبى من الأحداث الجارية بالعالم الاغريقى ، بل بدأت تساوره المخاوف على المصالح الرومانية تحت تأثير ادعاءات أتالوس الأول وروودس أن فيليب وأنطيوخوس يتأمران سرا على اقتسام ممتلكات مصر . وكانت صورة الصراع القريب مع هنبسال (٢١٨ - ٢٠٢) لاتزال ماثلة فى أذهان الرومان فساورهم القلق من احتمال غزو ايطاليا مرة ثانية ، وارتابوا فى أن تكون الحملة التي يقوم بها فيليب فى طراقيا

والبحر الأيحيى ليست سوى مقدمة لغزو إيطاليا نفسها بمساعدة حليفة أنوطيوس . لذلك قرروا العمل بسرعة للقضاء على فيليب الخامس قبل أن يزداد قوة . وتلمسوا ذريعة لاشهار الحرب عليه فاتهموه بالعدوان على مملكة حليفهم أتالوس دون مبرر مع أن اتالوس كان فى الحقيقة هو المعتدى ، وأن فيليب كان حريصا على أن لا يتحرض بحلفاء روما فى العالم الاغريقى . ولم يتقنع الجمعية المقوية بقرار اعلان الحرب الذى أوصى به السناتو ، ولم تصادق عليه الا بعد تردد ، وبعد أن أفهمها السناتو أن إيطاليا قد تتعرض لغزو جديد اذا لم يبادر بوقف عدوان فيليب . وكانت روما قد أوفت سفراء الى بلاد الاغريقى لأرهاب فيليب وتشجيع أعدائه هناك ، ولم تلبث أن عهدت اليهم بتقديم انذار نهائى رسمى الى الملك المقدونى الذى استولى على مدينة ليسياماخيا عام ٢٠٢ وكان مشغولا وقتئذ بحصار « أبيدوس » على الدردنيل (٢٠١-٢٠٠) ، وتضمن الانذار المطالب التالية : الكف عن مهاجمة أى مدينة اغريقية وممتلكات بطليموس الخامس (ابيفانيس) ، وقبول مبدأ التحكيم فى نزاعه مع برجامون ورووس .

ولما رفض فيليب قبول الانذار بدأت الحرب . وعندئذ عهدت روما الى سفرائها بالاتجاه الى رودس ثم زيارة أنطيوخوس الثالث فى سوريا للتوسط لديه من أجل مصر فى الظاهر ، ولشوكيد حسن نوايا الرومان نحوه فى الواقع حتى لا ينصرف عن حملته ضد مصر ، وينضم الى فيليب .

وفى أواخر عام ٢٠٠ عبر جيش رومانى البحر الأدرىاتى الى الليريا . وحاول التوغل فى قلب مقدونيا ولكنه فشل فى تلك السنة والتى

بعدها على الرغم من المساعدات التي تلقاها من الحلف الآيتولى وبرجامون وروودس وأثينا ، ولم يستطيع أن يلحق بفليب هزيمة فاصلة أو أن يغزو مملكته . لكن في عام ١٩٨ تغير الموقف بوصول القنصل فلامينيوس الذى استطاع أن يكسب الحلف آخى الى جانب الرومان ، وأن يرغم فيليب على اخلاء مراكزه فى ابيدوس ، والانسحاب الى ثيساليا . وجرت مفاوضات لعقد الصلح انتهت بالفشل لأن الرومان أصروا على جلاء الحاميات المقدونية عن كورنثة وخالكيس وديميترياس ، وهى القلاع الثلاث التى اشتهرت بأنها « الأغلال التى كان فيليب يكبل بها بلاد اليونان » . وفى عام ١٩٧ استؤنف القتال فى ثيساليا حيث جرت معركة كينوسكفلاى التى انتصر فيها الرومان انتصارا ساحقا . ويعزى النصر الى المساعدات الكبيرة التى قدمها الحلف الآيتولى ، وبخاصة الى تفوق الفرقة الرومانية فى تشكيلها العسكرى المرن على الفيلق اليونانى الجامد . ولاذ فيليب بالفرار الى مقدونيا . وكان الحلف الآيتولى يرغب فى القضاء على فيليب قضاء تاما ، ولكن فلامينيوس أدرك أهمية مقدونيا كسياج منيع يقى حضارة العالم الاغريقى من اغارات القبائل الكلتيية المتبريرة الزاحفة من حوض الدانوب الأدنى ، فلم يساير الايتوليين فى رغبتهم . وأملى السناتو على فيليب شروط الصلح التى قضت باستقلال بلاد اليونان ، وتجريد مقدونيا من ممتلكاتها فى بلاد اليونان ، والليريا ، وجزر البحر الايجى ودفعتها تعويضات حربية (صغيرة) قدرها ١٠٠٠ تالنت ، وتنازلها عن كل السفن الحربية تقريبا . وأذعن فيليب لهذه الشروط (١٩٦) بل صار حليفا للرومان بعد ذلك .

وفى حفل الألعاب الدورية الذى أقيم ببلدة اسشموس (بالقرب من كورنثة) عام ١٩٦٦ أذاع البروقنصل فلامينيوس « تصريحه » الشهير الذى يقضى بتحرير الشعوب التى كانت خاضعة لحكم مقدونيا . وأثار التصريح موجة من الحماس الشديد فى معظم المدن اليونانية . وقضى فلامينيوس فترة ليرقب آثار تصريحه ويشرف على تنفيذ ما جاء به ، ولينظر فى مطالب المدن اليونانية . وعماد فلامينيوس الى روما فى عام ١٩٤٤ تاركاً للاغريق حرية التصرف ، ويبدو أنه قد تأثر هو وغيره من القواد الرومان بالثقافة اليونانية . غير أن الرومان لم يكونوا مستعدين للتنازل عن ثمرات النصر التى جنوها فى الحرب الأخيرة ، وكانوا يريدون ضمانا ضد الغزو من الشرق ، وبدأوا ينظرون الى بلاد الاغريق كمنطقة نفوذ رومانية ، ويأملون فى ألا يتعارض ذلك مع الحرية التى منحوها للاغريق ، وقد توقعوا أن يجدوا فى بلاد الاغريق التى حرروها من سيطرة مقدونيا حلفاء موالين لهم ، وسياجا يقيمهم من عدوان فيليب أو أنطيوخوس .

الحرب مع أنطيوخوس :

أثار نشاط أنطيوخوس الثالث ريبة السناتو الرومانى ، وأصبح ينذر بالاحتكاك وندلاع الحرب . وكان الملك السليوكى قد أتم غزوه جوف سوريا (Coele syria) فى عام ١٩٨ ، ثم انتهز فرصة انشغال فيليب بالكفاح ضد الرومان ، وولى وجهه شطر آسيا الصغرى وطراقيا على أمل أن يسترد الممتلكات التى كانت قد يد سلفه سليوكوس الأول (نيكاتور) . وفى عام ١٩٦ عبر أنطيوخوس الدردنيل ليوطد أقدامه فى طراقيا . وحاول الرومان اقناعه بالانسحاب دون جدوى . وبعد حوالى سنتين دخل

في مفاوضات مع السناتو على أمل أن يحصل على اعتراف الرومان بحقوقه في طراقيا وبعض المدن في اسيا الصغرى التي رفضت الاعتراف بسيدته اعتمادا على تأييد روما لها . ولم يفلح في ذلك لأن الرومان كانوا يرون في احتلاله لطراقيا خطرا دائما على مصالحهم في بلاد الاغريق . وفي الحق أن أنطيوخوس كان لا يضمّر أى نوايا سيئة نحو روما ، ولكنه لم يكن مستعدا للتنازل عن ممتلكاته الأوروبية . وبدا له أن يساعد العناصر المناوئة للرومان في بلاد الاغريق هادفا بذلك الى الضغط على روما فتسلم بمطالبه في أوروبا . وعلى ذلك فقد ستقبل انطيوخوس سفراء الايتوليين الذين كانوا يحملون وقتئذ لواء المعارضة ضد الرومان في بلاد الاغريق . وكانوا قد حالفوا روما في الحرب المقدونية ، وبالغوا في قيمة المساعدات التي قدموها لها ، غير أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا عليها وزداد حقتهم عليها لأنها لم توافقهم على تمزيق أوصال مقدونيا والقضاء عليها ، ولم تسمح لهم بتوسيع رقعة أراضي دولتهم الاتحادية على حساب جيرانهم . وبالأجمال كان « الحلف الأيتولى » يطمع في أن يتبوأ المركز الذي كانت مقدونيا تتبوأه بين الاغريق من قبل . وكان يرى في الحرب وسيلة مشروعة لتحقيق أطماعه ، وتنمية ثروته دون اعتبار لمصالح الغير ، وهو شيء لم تقره روما لأنه كان لا يتمشى مع سياستها التي تهدف الى اقرار السلام في ربوع بلاد اليونان . وكان الأيتوليون قد بدأوا عقب معركة كينوسكفلاي يعملون على تفويض النفوذ الروماني بين الاغريق ، فلما تبين لهم موقف انطيوخوس من روما وما بينهما من جفاء وتوتر في العلاقات أخذوا يحرضونه على تحديها والاصطدام بها.

وفى عام ١٩٢ هاجم الآيتوليون بعض المدن المناصرة لروما واستولوا على قلعة ديميترياس ، وعرضوها على أنطيوخوس ، ووعدوه - على غير أساس - بالحصول على مساعدة فيليب ، ملك مقدونيا . واستنادا الى هذه الوعود عبر انطيوخوس البحر من آسيا الى بلاد الاغريق . وعند وصوله انتخبه الآيتوليون قائدا عاما لقواتهم . كذلك أخذ هنيبال - الذى كان قد اضطر الى الفرار من قرطاجة بسبب مؤامرات خصومه واللجوء الى قصر انطيوخوس عام ١٩٥- أخذ هو الآخر يحرضه على غزو ايطاليا ولعل أنطيوخوس كان حكيما حين رفض أن يعمل بنصيحة القائد القرطاجى نظمو لتعذر تنفيذها ، ولكنه أخطأ خطأ جسيما بتفويته فرصة الانتفاع بمواهب هنيبال العسكرية . ولم يكن هنيبال أعظم قواد عصره فقط ، بل كان أيضا ألد اعداء الرومان .

ولم تقف روما مكتوفة اليدين فأنفذت فى ١٩١ جيشا عبر البحر الأدرىاتى تحت قيادة القنصل جلابريو الذى نزل ببلاد الاغريق والتحم بقوات أنطيوخوس وأتزل بها الهزيمة فى موقعة ثرموبيلاي . وفر الملك السليوكى الى آسيا وقد خاب أمله فى الاغريق ، اذ عجز الايتوليون عن شد أزره وتعرضت بلادهم نفسها لخطر الغزو ، وتبين له أن وعودهم كانت جوفاء لأن فيليب والحلف الأخرى وفقا الى جانب الرومان ، وانضمت سفن رودس ويوميس الثانى ، ملك برجامون الجدى (١٩٧ - ١٦٠) الى الاسطول الرومانى .

وعندما لم يستجب أنطيوخوس لشروط الصلح التى وضعها الرومان قرر هؤلاء غزو آسيا الصغرى ، وتمكنوا من تدمير اسطوله فى معركتين بحريتين بفضل مساعدة رودس وبرجامون ، وبالتالى من السيطرة على

مياه البحر الايجي ، مما سهل لهم مهمة الدردنيل فى عام ١٩٠ . وكان
الرأى فى روما يميل الى اسناد قيادة الحرب الى سكيبيو قاهر أفريقيا
الأكبر .. غير أنه لم يكن من الجائز حينئذ اعادة انتخابه قنصلا ليتولى
هذه الحملة ، ومن ثم فقد رأى السناتو أن يتخطى هذه العقبة بترشيح
أخيه « لوكيوس » قنصلا ليتولى القيادة على أن يرافقه أخوه بوبليوس
كنايب مساعد له (Legatus) ويمارس بذلك الشراف على الحملة من
الناحية الفعلية .

وأحرز الرومان انتصارا حاسما فى معركة مجنيسيا فى خريف عام
١٩٠ ، وجنح الملك السليوكى للسلم ووضع لشروط « صلح أباميا »
الذى تم فى عام ١٨٨ ، وفضت بانسحابه من جميع الراضى التى تقع
شمالى جبل طوروس وغربى بامفيليا ، وتسليم كل فيلة الحرب وكل
اسطوله ماعدا عشر سفن ، ودفع تعويضات حربية تعتبر من أفدح
الغرامات التى فرضتها روما على عدو مهزوم ، اذ بلغت ١٥,٠٠٠
تالنت، على أن تسدد على ١٢ قسطا سنويا ، والكف عن مهاجمة
حلفاء روما ، وتسليم هنيبال الذى أتاح له انطيوخوس فرصة الهرب الى
بروسياس ملك بيثينيا ، فلما انهزم الاخير على يد الرومان ورأى أن لامفر
من تسليم هنيبال ، أثار القائد القرطاجى أن ينتحر بالسم على أن يقع فى
يد أعدائه ، ومات فى سنة ١٨٢ ، أى بعد سنة واحدة من موت
خصمه سكيبيو افريكانوس . ويلاحظ أن روما لم تعامل أنطيوخوس
معاملتها لقرطاجة من قبل اذ تركت له حرية الدفاع عن مملكته ضد
أى هجوم .

وكان من الطبيعى أن تكافىء روما حليفتيها برجامون ورودس

وتسمح لهما بتوسيع رقعة أملاكهما على حساب الملك السليوكي . ولا
مراء فى أن برجامون كانت المستفيدة الأولى من هذه الحرب وأن ملكها
« يومنيس » هو الذى أوعز الى الرومان بضرورة طرد أنطيوخوس من آسيا
الصغرى . وورعت روما بينهما الأراضى التى انتزعت منه هناك ،
فاستولت رودس على ليكيا وكاريا ، واستولت برجامون على بقية
الممتلكات السليوكية فى آسيا الصغرى ، ووضعت يدها على الدردنيل
(شبه جزيرة غاليبولى) ، والمدن اليونانية التى ادعى يومنيس ملكيته لها
من قبل ، وتركت المدن الأخرى محتفظة باستقلالها . وشرعت روما فى
توطيد السلام فى ربوع آسيا الصغرى بأن أخضعت القبائل الكلثية فى
جلاتيا ، وهم أعداء برجامون ، وأرغمتهم على دفع غرامة جريبة كبيرة .
وجدير بالملاحظة أن روما لم تحتفظ لنفسها بأى أراضى فى آسيا
الصغرى ، بل آثرت عملاً بمبدأ « فرق تسد » توزيعها بين الدويلات
المتنافسة حتى لا تقوى واحدة منها فتتجرأ على تحديها أو مناوئتها فى
المستقبل .

وجاء دور الآيتوليين الذين جردت روما حملة عليهم فى عام
١٩٠ سعوا بعدها الى عقد الصلح وخاصة عندما هاجمهم أيضا فيليب
ملك مقدونيا . وطالبهم الرومان بالاستسلام دون قيد أو شرط . ورفضت
الشروط فاستؤثف القتال . ومضى عام دون أن تتخذ روما ضدهم
اجراءات حاسمة ثم أنفذت اليهم فى العام التالى (١٨٩) جيشاً بقيادة
القنصل نوبيلير الذى مضى فى قتالهم بهمة وشدد الحصار على قلعتهم
الحصينة فى أمبراكيا . لكن ازاء مقاومة الايتوليين العنيفة ، ووساطة
الأثينيين بين الطرفين ، تنازل الرومان عن طلب الاستسلام غير المشروط

، وعقد الصلح (١٨٩) الذى نص على تنازل الحلف الأيتولى عن حقه فى كل الاراضى التى استولى عليها أعداؤه فى الحرب ، وعقد محالفة دائمة مع الرومان على غير قدم المساواة مع الالتزام بمساعدة روما ضد جميع أعدائها، وتسليم قلعة أمبراكيا . وقد نهبت هذه القلعة واحتلت القوات الرومانية جزيرة كفالينيا ، وكر القراصنة .

الحرب المقدونية الثالثة (١٧١ - ١٦٨) :

لقد وطدت المحالفة الاخيرة بين روما والحلف الأيتولى أقدامها فى بلاد الاغريق بصفة مستديمة ، وكان انتصارها فى الحرب على انطيوخوس معناه أنها تبسط نوعا من الحماية على العالم الاغريقى . ومع هذا فان السناتور لم يبد منه أنه يرغب فى نقض سياسة فلامينيوس ، فبقيت الدويلات الاغريقية سديقة لروما طالما كانت تتمتع باستقلالها السياسى . غير أن هذه العلاقات الودية لم تيمر طويلا واعتراها فتور أعقبه توتر شديد ، مما دفع روما الى التدخل فى شئون الاغريق والقضاء فى النهاية على استقلالهم الظاهرى . وكان السبب الجوهرى فى ذلك التغيير هو أن روما كانت تفسر استقلال الاغريق بمعنى حرية التصرف بشرط الا يتعارض ذلك مع تنظيمات روما ورغباتها ، بينما كان الاغريق يفسرونه بمعنى تمتع الدويلات المستقلة بالحرية المطلقة ، ومن ثم فانهم كانوا يبغضون أى انتقاص أو مساس بحقوقهم . وازاء هذا التضارب فى وجهات النظر ، لم يكن هناك مناص من قيام المشاكل ووقوع الاصطدام .

والاسباب الرئيسية التى أدت الى تغيير سياسة روما هى المتاعب التى أثارها الحلف الآخى ، وتجدد أطماع مقدونيا . كان هذا الحلف

(أو الدولة الاتحادية) يضم دويلات كثيرة على غير ارادتها فكانت تسعى الى استرداد استقلالها ، ولكن الحلف كان يقاوم هذه النزعات الانفصالية . وقد ساءت علاقات اسبرطة بالآثيين بسبب سياستهم نحوها في مسألة اعادة المنفيين الاسبرطيين ، مما دفعها الى الاستنجاد بروما . وقد جرح القرار الروماني كبرياء الاتحاد الآخى دون أن يحسم هذه المشكلة وأثار تشبث الاتحاد بحقوقه خنق الرومان . وقد ظهر فى الاتحاد الآخى حزبان ، حزب يناصر سياسة روما ولا يرى غضاضة فى الأذعان لأوامرها ، وحزب قومى يصير على التحسك نحقه فى حرية التصرف . وكانت روما قد عمدت منذ عام ١٨٠ الى تقوية الاحزاب الارستقراطية فى الدويلات الاغريقية لأدراكها بأن هذه الاحزاب اثبتت على الولاء لها وأكثر تمسكا مع سياسة السناتو . وترتب على ذلك أن الاحزاب الديمقراطية بدأت تبحس عن المعونة الأجنبية ، فولت وجهها شطر مقدونيا .

وفى ذلك الوقت كانت علاقات فيليب الخامس قد بدأت تسوء مع الرومان لانهم رفضوا مطالبه بضم الاراضى التى فتحها عندما كان يعاونهم ضد انطيوخوس فى الحرب السورية . وكان الرومان يخشون من توسع مقدونيا ويؤثرون بقاءها ضعيفة حتى لاتصبح خطرا عليهم مرة أخرى . ويتحول فيليب بسبب موقفهم منه الى عدو لدود ، ويكسر جهوده لقوية جيشة حتى يناوىء سيطرة الرومان فى بلاد الاغريق مرة ثانية . غير أن فيليب ترفى فى عام ١٧٩ تاركا وراءه جيشا يتراوح عدده بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، ورسيدا فى الخزانة قدره ٦٠٠٠ تالنت . وخلفه على عرش مقدونيا ابنه برسيوس الذى ورث عنه كبراهيته

للرومان ، وسياسته في توثيق العلاقات مع أعداء روما في كافة أنحاء بلاد
 الاغريق . ولم تخف ثوابا برسيوس على السناتو (مجلس الشيوخ
 الروماني) الذي كان مطلعا على تدابيره ، فبادر الى افسادها قبل أن تتم
 والى لرغامه على القتال - مثلما أرغم أباه من قبل - قبل أن يستكمل
 استعداده ، وكان ملك برجامون يعمل كأبيه أنطونس الاول على تشويه
 سمعة ملك مقدونيا والرشاية به والايقاع بينه وبين السناتو الروماني ،
 وأوفد اليه السناتو سفارة رومانية لتتقدم اليه ببعض مطالب كان قبولها
 منه القضاء على استقلال بلاده . وكان من الطبيعي أن يرفض برسيوس
 هذه المطالب . وحدثت السفارة في روما حيث أعلنت الحرب على
مقدونيا في عام ١٧١ .

ولما تبين لبرسيوس أن الرومان جادون في عزمهم ، حاول تلافى
الخطر بتهدئة عواطفهم واسترضائهم . ولكن بدون جدوى ، اذ نزلت
قوة رومانية في بلاد الاغريق عام ١٧١ ، واتجهت نحو نيسابيا . لكن في
حملات هذه السنة والتي نتج عنها لم يتسطع القواد الرومان أن يحرزوا أى
تقدم . كذلك لم يظهر برسيوس أى مقدرة على استقلال الفرص التي
سنت له ، وحال يخله وقتيره حول الحصول على مساعدة قبائل الكلت
والفرديانين والديسناناي والتي تفتن على حدود مملكته . ولم يتلق سوى
مساعداً ضئيلة من جمهورية ابيروس الاتحادية ، وأحد زعماء الليريا
يرضع مدان في إقليم بويوتا . وأخيرا استندت قيادة الجيش الروماني الى
رجل قدير ، وهو القنصل أمبيليوس باولوس الذي رفع الروح الجنود
اللتوية وانصر على برسيوس ~~لصكراً شامخاً~~ في معركة بيلنتا في يوم ٢٢
يونيو (حزيران) عام ١٦٨ . ولقد الملك المقدوني بالفرار ثم ارتغم على

تسليم نفسه ، ونقل الى روما حيث عومل معاملة مهينة ومات في الأسر ، وانهارت مملكة مقدونيا ، وقسمت اراضيها الى اربع جمهوريات مستقلة منعت من تبادل حقى التعامل والزواج كامل الأهلية ، وفرضت عليها جزية قدرها ١٠٠ تالنت . واستولت روما على المناجم والضياع الملكية . واغلقت مناجم الذهب والفضة لفترة من الزمن .

وكأذات روما أنصارها وعاقبت خصومها ، وكان القتل أو النفى جزاء زعماء الاحزاب المعارضة لجا في كل مكان (وقد وجدت السلطات الرومانية اسماءهم في أوراق برسيوس التي سقطت في يدها) . ومع أن الآخيين لم يبدرو منهم شيء يدل على عدم ولائهم للرومان ، فقد أمرت السلطات (عام ١٦٦) بترحيل ١٠٠ زعيم من زعماء آخيا الى روما بحجة افاحة الفرسة لهم لكي يدافعوا عن انفسهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، وكان من بينهم المؤرخ الشهير بوليبيوس . وكان الغرض الحقيقي هو الاحتفاظ بهم كرهائن في ايطاليا كضمان لسلوك الحلف الآخى في المستقبل وحتى رودس التي كانت قد حاولت التوسط بين روما وبرسيوس لحسم النزاع بالطرق السلمية ، أزغمت على التنازل عن مملكتها في آسيا الصغرى ، وأصبحت تجارتها بضرية قاصحة عندما جعل الرومان مرسى ديلوس ميناء حرة . وأما يوميس ملك بوجامون الذي أثار بتمرداته ارتياح الرومان في ولايته ، فقد ساءلته روما معاملة مهينة وان تركته يحفظ بملكته سليمة . لكن مصير ايروس كان أسوأ ، اذ ذهبت اهلها السبعين ، وبيع أهلها البالغ عددهم ٥٠,٠٠٠ في أسواق الرقيق .

وبالإجمال صارت روما منذ ذلك الحين السيد الحقيقي في

الجانب الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط . ولم يعد حلفاؤهم وأصدقائهم يتمتعون الا بالاستقلال المحلى ، ولا يملكون الا اطاعة أوامرهم . وليس أدل على تلك الحال من قصة « دائرة بوبيليوس » ، وهى قصة شهيرة . ففى أثناء الحرب المقدونية الثالثة غزا أنطيوخوس الرابع ملك سوريا ، مصر (١٦٨) ، فلما انتهت روما من الحرب مع برسيوس ، أوفدت الى مصر سفارة برئاسة بوبيلوس لايناس لكى تطلب الى الملك السليوكى الجلاء عن مصر . والتقت السفارة بالملك عند ضاحية اليوسيس (الحضرة أو النزهة) قرب الاسكندرية ، حيث سلم بوبيليوس الملك قرار السناتو . وقرأ الملك القرار ثم طلب مهلة ليتدبر الأمر مع مستشاريه . ولكن السفير الرومانى رسم بعصاه دائرة على الرمل حول الملك الواقف أمامه ، وأمره بالاجابة على رسالة السناتو قبل أن يغادر الدائرة . وذهل الملك من لجهة الأمر العنيفة ، ثم رضخ قائلاً بأنه سيعمل ما أمر به السناتو . وعندئذ فقط مد بوبيليوس يده اليه مصافحاً كصديق وحليف للشعب الرومانى (١) .

وقد تضخمت ثروة روما بفضل الغنائم التى استولت عليها فى الحرب المقدونية الى حد أنها ألغت منذ عام ١٦٧ ضريبة الاملاك المفروضة على المواطنين الرومان (tributum civium romanorum) . وأتاح ازدياد الدخل الناتج من كافة الامبراطورية للحكومة اعفاء المواطنين الرومان من كل الضرائب المباشرة .

(١) عن هذه الواقعة ، انظر مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، (الترجمة العربية

١٩٦٨) ص ٨٣ - ٨٤ .

مراحل تطور العلاقات بين روما ومصر فى العصر البطلمى

بدأت العلاقات الرومانية بمصر فى عصر الملك بطليموس الثانى فيلادلفوس وانتهت باختلال روما لمصر فى آخر عهد الملكة كليوباترة السابعة . ومرت هذه العلاقات بثلاث مراحل : اتخذت أولها صورة ودية بين مصر - الدولة القوية التى كانت فى أسمى عصورها فى عهد بطليموس الثانى وروما الدولة الفتية التى بدأت قوتها فى الظهور فى حوض البحر المتوسط فى ذلك الوقت . وقد اتخذت مصر بارسال سفارة فى سنة ٢٧٣ ق . م . ، وردت عليها روما بأن بعثت سفارة الى مصر فى نفس العام . لقد اختلفت الآراء حول الغرض من هذه السفارات ، هل كانت تهدف الى توطيد أواصر الصداقة بين البلدين ، أو كانت تهدف الى عقد محالفة سياسية بينهما ، أم أنها سعت الى تنمية العلاقات التجارية بين كل من مصر وروما . ونرجح الرأى الأخير اذ أن العملة التى سكنت فى عام ٢٦٩ ق . م . فى كمبرانيا كانت تشبه الى حد كبير النقود التى سكنت فى مصر بمناسبة وفاة الملكة أرسينوى زوجة بطليموس فيلادلفوس فى عام ٢٧١ ق . م . ويبدو أن جايوس قابيوس وكويتوس أوجولينوس اللذين كانا قنصلين فى سنة ٢٦٩ ق . م وكانا من المبعوثين فى السفارة الرومانية الى مصر هما اللذان سكاها . وذلك يشير الى وجود معاملات عالية بين البلدين .

استمرت علاقات الوفاق بين مصر وروما ، حتى خرجت مصر من الحرب البونية الأولى منتصرة ، وبدأت العلاقات بين البلدين فى اتخاذ مظهر سياسى جديد حيث بدأت كل دولة تعرس خدماتها ومساعدتها للدولة الأخرى وتقف مساندة لها فى وجه خصومها . فقد أرسلت روما

سفارة الى بطليموس الثالث بوارجتيس الأول تبذل . ومن خلالها الوعود بالمساعدة ضد انتيومس ملك سوريا الذى شن عليه الحرب ، لكن بطليموس الثالث لم يقبل العرض شاكرا لأن القتال كان قد انتهى من الغريب أن نجد فى تلك الفترة ايطاليين من كمبانيا ، بل وأيضا من الرومان يعملون بالقوات البطلمية فى القرن الثالث ق . م مما يجعلنا نظن أن مصر قد طلبت من روما استئجار جند مرتزقة .

وفى عهد بطليموس الرابع فيلوباتور بعثت روما تطلب القمح من مصر ويبدو أن مصر قد أجابتها الى طلبها كما سيتضح فيما بعد . ولكن من الجدير بالذكر فى هذا العهد أننا وجدنا شخصا رومانيا يدعى « لوكيوس جايوسوس الرومانى » وقد أوفد من قبل الملك البطلمى فيلوباتور الى كريت ليتولى أحد المناصب الادارية هناك ، وقد كانت العادة فى ذلك الوقت أن يتولى مثل هذه الوظائف موظفين من فئة الاسكندرانيين وأحيانا من اليونانيين . ولكن أن يتولى أحد الأفراد الرومان مثل هذه الوظيفة وفى هذا الوقت المبكر فهو أمر غير متوقع على الاطلاق .

فى حوالى ٢٠٠ ق . م . أرسل الرومان الى بطليموس الخامس ايفانيس سفارة بعد انتهاء الحرب البونية الثانية ، ليعلنوا له نأ هزيمة هانيبال وليشكروه على ولائه الذى استمر على الرغم من تخلى الأصدقاء عنهم وطالبوه أن يظل على ولائه القديم اذا ما أعلنوا الحرب على فيليب . وقد بعث بطليموس الخامس ايفانيس الى روما سفارة يخبرهم أن الاثنين قد سأله المعونة عند فيليب ، وأنه على الرغم من أن أثينا حليف مشترك ، الا أنه لمن يرسل أسطولا أو جيشا للدفاع أو للهجوم دون موافقة

الشعب الروماني ، فاذا شاء الرومان الدفاع عن حلفائها فسيظل ساكنا في مملكته ، أما اذا أثروا ألا يتخذوا أية خطوة ما فان بطلميوس على استعداد لأن يرسل قوات في وسعها أن تخمى أثينا من عدوان فيليب . وقد شكر السناتو الملك وأبلغه أن الشعب الروماني قد اعترم حماية حلفائه فإذا احتاجوا للمعونة في تلك الحرب فسوف يخبرون بطليموس لثقتهم بأنه في وسعهم دائما الاعتماد على موارد مملكته لسد حاجات الجمهورية .

وبذلك يمكننا أن نقول أن العلاقات بين مصر و روما مازالت تتسم بالصدقة والود وان كانت قد تخللها بعض المظاهر العسكرية في الاستعداد لتقديم المساعدة العسكرية . وفي ظهور الدولتين كدولتين حليفتين . ويبدو أن طلب القمح السابق قد أجيب وأن مصر قد أرسلت الي روما لقمح المطلوب . فالسناتو يذكر صراحة امكانية الاعتماد على موارد مصر لتغطية احتياجات روما . واذا كان الملك البطلمي قد أرسل مبعوثيه الي روما لاستشارتها في أمر مساعدة الاثينين ، فلعله كان هناك اتفاق بين البلدين قصد منه حفظ التوازن السياسي في بلاد الاغريق .

بدأ بالمرحلة الثانية لتطور العلاقات الرومانية بحصر في القرن الثاني ق . . وفيها بدأ التدخل السياسي لروما في مصر واضحا ، وبدأت تفرض حمايتها على الملوك البطالمة ، وكان أول الأسباب الي ذلك تطلع فيليب الخامس الملك المقدوني وانتيوخس الثالث الملك السوري الي ممتلكات مصر الخارجية ، وعملهما على تقسيم هذه الممتلكات بينهما ، فما كان من روما الا أن تدخلت بحجة حماية مصر ، ويقال أنها عينت ماركوس لبيدوس وصيا على الملك المصري ، ولعل الغرض من ترويع

هذه الاشاعة هو ايجاد ضمانا لحماية عرش الملك المصرى وممتلكاته فى الخارج من أطماع ملوك سوريا ومقدونيا .

ولكن أثبتت الأحداث التى توالى فى الفترة التالية من حكم البطالمة أن أطماع السليفوفيبس لم يكن لها حدود . ففى عهد الملك بطلميوس السادس فيلوستور ، استغل انتيوخس الرابع الملك السورى صفر سن الملك وقرابته له وجاء الى مصر حيث احتل منف وتقدم منها بغية الاستيلاء على الاسكندرية ، وعند بلوزيو الثانى الملك السورى برسول روما وكان اللقاء مثيرا . فقد رفض السفير الرومانى الرد على تحية الملك وقدم بدلا منها قرار السناتو طالبا من الملك السورى قرائنه ولاجابة عليه ، ولأن انتيوخس رغب فى الماطلة فى الرد بحجة استشارة زصدقائه ، فقد رسم المبعوث الرومانى حول الملك دائرة بفرع صغير ، وطلب منه الرد قبل الخروج منها ، فبهت انتيوخس الرابع لهذه الوقاحة ، ولكنه لم يجد مفرًا من الاستسلام والرد بأنه سيفعل ما يميله عليه الرومان .

إذا كانت حادثة الملك السورى والسفير الرومانى قد كشفت بشكل واضح عن مقدار الصيف الذى وصلت اليه الدولة البطليمة ، فان فيارمتور واحتمائه بروما عندما أثار أخاه بطلميوس يوارجيتيس الثانى جمهور الاسكندرية ضده ، انما بين حاجة الملوك البطالمة الى نصير بدود عن عرشهم ويؤيد حفهم فيه . وعلى مصالحهم ضد منافسيهم ، ولذلك كانوا يلجئون الى روما . فقد استرد بطلميوس السدس فيلوتور عرشه واتفق مع أخيه على تقسيم المملكة بأن يحكم هو مصر وقبرص ويحكم يوارجيتيس الثانى قورنيه . وقد حضر هذا التقسيم بعثة من أعمار السناتو ، وعلى الرغم من ذلك بدأ بطلميوس الثامن يوارجيتيس الثانى فى السعى

الى ضم قبرص تحت حكمه وذهب الى روما يناشد السناتو أن يحقق رجاءه . وقد وافق السناتو على طلب ملك قورنيه فقد كانت مصلحة تتفق مع مصالحهم . وأمر يضم قبرص اليه . ويوضح هذا الأمر كيف كانت روما تعمل على استمرار النزاع بين الأخوين البطلميين ، وهي تهدف من وراء ذلك الى أن تمنح لها الفرص للتدخل فى شؤون مصر .

كانت تصرفات الملك يوارجيتيس الثانى توحى دائما بتبعيته للرومان وتزلفه الدائم اليهم ، وأكبر دليل على ذلك أنه كتب وصية تعد الأولى من نوعها أوصى فيها بأن تؤول مملكته الى الرومان اذا لم يخلفه وريث ذكر . ولكن لعب الحظ دوره ، ولم تنفذ هذه الوصية اذ سرعان ما سقط فيلوستور فتيلًا فى إحدى المعارك بسوريا ، وعاد يوارجيتيس الثانى ليحكم الامبراطورية المصرية كلها ، وكان الرومان وراء عودته الى العرش . وعندما بدأت الخلافات بين بطلميوس الثامن يوارجيتيس الثانى وبين كليوباترة الثامنة على العرش وضع التدخل الرومانى حدا لها ، فقد ظهر فى الاسكندرية الرسول الرومانى ليوكيوس ثيرموس ، صديق بطلميوس ، ولم يكن ظهوره بالطبع وليد المصادفة ، فقد كان من مصلحة روما أن يتولى يوارجيتيس الثانى حكم البلاد فهو يدين بالولاء الكامل لروما ، وكان قليل الشعبية فى الاسكندرية ، بل لقد سبق أن طرده أهلها من الحكم فهو اذن فى حاجة دائمة الى تأييد رومانى ليتمكن الاحتفاظ بعرشه مستقبلا . وهكذا كان حاكم قورنيه هو الشخص المفضل لعرش مصر فى نظر روما ، فمن خلال تمكنها السيطرة على زمام الأمور وتحريكها وفق ما تقتضيه مصالحها . يبدو طبيعتها اذن

أن تسرع روما الى التدخل فى هذا الموقف بإرسال سفيرها الى الاسكندرية ، متوارية خلف حجاب التوفيق بين الجهات المتخاصمة .

فى حوالى دار ١٣٦ ق . م أرسل السناتو بعثة الى الشرق بقيادة سكييو ايميليانوس ، جاءت البعثة الى الاسكندرية وهى تنوى معرفة كل شىء عن المملكة المصرية ، واهتموا بمراقبة أحوال المدينة عن قرب ، ولاحظوا أهمية الفنار ، وصعدوا فى النيل حتى منف ، واسترعى انتباههم خصوبة التربة وفوائد فيضان النيل ، وعدد قرى ومدن مصر ، والاعداد الكبيرة من السكان ، وموقع مصر ، ووجدوا فيها من مميزات ما يضمن أمن وعظمة الامبراطورية . وقد عقب الرومان على ما شاهدوه بأن مصر يمكنها أن تشكل قوة عظيمة اذا ما حكمها حكام جديرون بها . ومن مصر رحل المبعوثون الرومان وقد حملوا معهم الى السناتو بياناً بما شاهدوه معلنين أن مصر بلد ثرى لايجب أن يتعد عن الرصاية والحماية الرومانية . ولقد كان لزيارة سكييو ايميليانوس وزملائه من الرومان الى مصر فعل فى الاسكندرية . فقد ازداد غضب أهل المدينة ، وأحسوا باعتماد ملكتهم على مساعدة الرومان ضماناً لبقائه على عرش مصر ، وكان هذا أحد أسباب ثورتهم عليه فى ١٣١ - ١٣٠ ق . م وهروبه الى فيرص . ورغم خطورة موقف يوارجيتيس الثانى الا أن روما لم تتدخل فى هذه المرة ، فانه لم يكن هناك اى خطر على سلطتها فى الشرق من الحرب الأهلية فى مصر ، بل على العكس فق كانت روما تسعد بهذه المعارك .

أما البحارة والتجارة الرومان الذين كانوا يقيمون فى الأسكندرية فقد عبروا عن مشاعرهم الطيبة عندما استرد الملك بطليموس يوارجيتى

المدينة وذلك على نقش فى ديلوس أهدهو إلى لوخوس بن كاليمديس قريب الملك والملكة اعترافا بفضله وخيراته ويبدو أن هؤلاء التجار كانوا مقيمين بالأسكندرية وقد أفادهم استتهاب الامن والنظام فى البلاد . ويبدو أنه كان هناك نشاط تجارى بين الاسكندرية وايطاليا ، وأنه كان هناك أعداد كبيرة من الايطاليين فى الاسكندرية فى القرن الثانى ق . م كان بعضهم يزور الاسكندرية زيارات متقطعة ، وكان البعض الآخر يقيم فيها غاية دائمة ، وكان هناك تبادل تجارى تجارى بين ديلوس والاسكندرية وبين التجار الايطاليين فى كليهما ، كما كانت هناك نقوش تصور العلاقات التجارية بين التجار الرومان فى ديلوس والاسكندرية . ويبدو أن لوخوس المذكور فى النقش ، والذي كان أحد قواد يوارجتيس الثانى واستراتيجوس فى طيبة فى نفس الوقت وقد ساعد التجار الرومان فى ١٢٧ ق . م . عندما استعاد يوارجتيس الثانى المدينة .

بعد بعثة كيبو ايميليانوس بدأت تتوافد على مصر شخصيات رومانية هامة فى زيارات غير رسمية ، مما يبين ازدياد اهتمام الرومان بشئون مصر ومعرفة أحوالها . وكان الزائر فى هذه المرة عصوا من السناتو وجدناه يقوم بزيارة الى الفيوم بقصد السياحة ومشاهدة المناظر الطبيعية . فقد كتب أحد كبار الموظفين بالاسكندرية الى موظف يدعى اسكلمياديس خطابا يخبره بأن لوكيوس بيموس ، عضو السناتو الرومانى ، سيقوم برحلة من الاسكندرية الى الفيوم بغرض السياحة ، ويقدم الموظف هنا التوجيهات لاستقبال الصيف والترحيب به .

وبعد وفاة وارجتيس الثانى تولى بطلميوس أيون - ابنه غير الشرعى - حكم قورنية حسب وصية أبيه . وقد أوصى أيون بدوره بأن

تؤول مملكته الى الشعب الرومانى بعد وفاته ، اذ يقول أيمانوس أن اثنتين من الممالك ق انتقلتا الى روما بطريق الوصية حيث ترك لهم نيكومديس بشينيا ، وترك لهم بطلميوس ، الملك البطلمى الذى يدعى أيسون ، قورينه ، وكانت هذه هى أول خطوة رسمية فى تحول جزء من الدولة البطلمية الى التبعية الرومانية .

فى المرحلة الثالثة من العلاقات الرومانية المصرية ، أصبحت مصر جزءا من عالم السياسة الرومانية وأصبح التدخل الرومانى فى شئونها تدخل صريحا ، ليس بالأساليب السياسية فقط ولكن العسكرية أيضا . فعندما توفى بطلميوس سوتير الثانى الذى لم يترك وريثا لعرشه كان الاسكندر بن الاسكندر الأول مقيما فى ذلك الوقت فى روما ، فتدخل الرومان فى تحصيله ملكا على مصر . ولكن اذا كانت روما قد اختارت ملك مصر فى ذلك الحين ، فلا يعنى ذلك أن على أهلها الاستسلام لقرارات روما . فعلى الرغم من تبعية البيت البطلمى المالك للرومان وخضوعه تماما فى هذه الفترة للأوامر الرومانية ، الا أن الاسكندريين الذين اعتادوا منذ عهد فيلوستور التدخل فى اختيار الملك الذى يحكمهم ، لم يرضخوا لأوامر روما ، وقاموا حسبما يروى أبيان بسحب الملك المتوج من قبل روما الى الجمنازيون وقتلوه ، بعد أن قُتل من شهر من توليه الحكم ، خاصة وقد قتل الملكة بزنكي الثالثة التى تزوجها والتى يجبها الاسكندريون .

بعد وفاة الاسكندر الثانى تولى عرش مصر بطلميوس الثانى عشر الزمان ولما كانت ولايته العرش قد تمت بغير الرجوع الى روما فقد رفضت روما فقد رفضت روما الاعتراف بالملك الجدى ، واختلقت

وصية تقول بأن الاسكندر الثانى قد أوصى بأن تؤول مصر بعد وفاته الى روما . لذلك عمل بطلميوس الزمار (أوليتيس) لكسب تأييد قيصر - الذى أصبح قنصلا فى عام ٥٩ ق . م . وساد الاعتقاد بأن برنامجيه السياسى يشمل ضم مصر الى روما - وكان ذلك مقابل ٦٠٠٠ تالنت دفعها اليه ، واعترف قيصر فى مقابلها بأولييتيس ملكا على مصر ، رغم اعتراض النبله ، واعتبره حليفا وصديقا للشعب الرومانى .

وقد صدر فى ٥٨ ق . م . قانون رومانى يضم قبرص وجعلها ولاية رومانية ، وهكذا استولت روما على قرورية ثم على قبرص ، ولم يتبق من الامبراطورية البطلمية سوى مصر تحت حكم بطلميوس أوليتيس . وعلى الرغم من انتحار حاكم قبرص وهو أخ للملك البطلمى ، لا أنه لم يحرك ساكنا مما يجعلنا نظن أنه كان هناك ثمة اتفاق بين الملك الزبير وبين قيصر على ضم قبرص بالاضافة الى الرشوة التى سبق أن دفعها . أدى سكون أراء نيس ازاء هذا الموقف الى ثورة الاسكندريين عليه وطرده من العرش . وبالطبع لجأ الى السناتو ليعيده الى عرشه ، لكن أختلست الآراء حول الشخص الذى سيعيده وطريقة اعادته . وفى النهاية اتفق الملك البطلمى مع جاينينوس والى سوريا ، وهو من أعوان بومبيوس ، على اعادته بالقوة الى الاسكندرية فى مقابل ١٠,٠٠٠ تالنت فخرج جاينينوس ومعه ماركوس انطونيوس والملك بطلميوس فى حملة متجهين الى مصر .

وفى هذه الحملة ، تم امداد جاينينوس ، طبقا لتعليمات هيركانوس بالقمح والسلاح والأموال بواسطة انتيباتروس الذى كسب اليهود فى بياوزيون لصفة ، وجعل منهم حلفاء يتصرفون كحراس

لداخل مصر . وهكذا وبمساعدة اليهود تمكن جانيبيوس من اعادة بطلميوس لحمايته وليس استمرار الوضع كما أفره بالاسكندرية .

أوصى بطلميوس أوليتيس بأن يتولى العرش من بعده ابنته كليوباتره السابعة وأخوها بطلميوس الثالث عشر ، على أن يقوم الرومان بتنفيذ الوصية والاشراف على تحقيقها . وبعد وفاته بدأت كليوباتره فى ممارسة الحكم مع أخيها الأصغر ، وفى أثناء ذلك قامت الحرب الأهلية بين بومبيوس وقيصره ، فاحتاج الأول الى قوات جديدة لمواجهة الثانى ، واستطاع أن يجمع أسطولا كبيرا من عدة دول من بينها مصر ، كما طلب مبالغاً كبيرة من الأموال من بلاد كثيرة . وقد تمكن أبنه من الحصول على ٥٠٠ من رجال جايمينيروس الذين تركهم مع الملك بطلميوس فحراسته فى الاسكندرية ، وتم الحصول على القمح من عدد من البلدان من بينها مصر أيضا .

وفى ٤٨ ق . م . انتصر قيصر على بومبيوس فى معركة فارسالوس فلجز بومبيوس إلى أغنى بلاد العالم وهو فى حاجة شديدة الى المال مؤكداً أن الحكومة المصرية تدين له بمبلغ كبير ، ولا يحالج أحد الشك فى أنه كان يعوزه المال لمتابعة معركته ضد أبناء ومؤيدى بومبيوس . وقد جاء على لسان الشاعر لوكانوس أن قيصر رأى ثروة مصر بعيون شرهة وكان يرغب فى التذرع بأى حجة حتى يستولى على الغنيمة . وقد أعلن قيصر أنه سيفى فى مصر ليحقق هدف أرابتيس وليفصل بين الأخوين المتصارعين على السلطة .

وقد جمع قيصر بطلميوس الثالث عشر وكليوباترة السابعة وأعلن عليهما وصية بطلميوس أوليتيس ، وأمرهما أن يعيشا سويا تبعا للتقاليد

المصرية ، وأن يكون الشعب الرومانى وصيا عليهما .

ولكن ماذا كان من أمر الاسكندر بين ازاء قدوم قيصر الى مصر وظهوره كوصى على الملكين الصغيرين ؟ لقد كان الاسكندريون يكتنون كراهية شديدة للرومان وذلك منذ عهد الملك يوارجتيس الثانى عندما كانوا يشعرون بأنه يستمد قوته من تقربه الى الرومان وتزلفه اليهم . وقد عبروا عن كراهيتهم هذه من خلال عدد من الأحداث : منها قتلهم للأسكندر الثانى الذى اختارته روما ليكون ملكا على مصر ، وطردهم لبطلميوس أوليتيس الذى اعتمد على السناتو لتشيته على عرشه . وبورثهم على رايويوس بوستوموس ، المرابى الرومانى الذى أقرض بطلميوس أوليتيس الكثير من الأموال أثناء اقامته فى روما ، والذى وضعه الملك فى منصب ديويكتيس حتى يوفى ديونه مما اضطره للفرار من الاسكندرية . كما أوضحت معاملتهم للرومانى الذى قتل احدى القطط مدى شعورهم بالحق والظلم والخوف فى وقت واحد من روما ، فقد اندفع العامة متزاحمين أمام منزله ، ولم ينقذ الرجل من العقاب لا الموظفون الذين أرسلهم الملك ليتمسوا العفو منه ولا الخوف من روما الذى يشعر به الجميع .

أدى سلوك قيصر الى إثارة كل العواطف المعادية للرومان سواء فى الحكومة أو بين السكان ومن بينهم الفرق العسكرية الملكية . فأعلنوا حربا ضده عرفت باسم حرب الاسكندرية . وكان الفوز فيها حليفا لقيصر على الرغم من عنف المعركة وقوتها ، وقد ساعده على الفوز انضمام اليهود اليه . وبعد الحرب أعلن قيصر على عرش مصر كليوباتره السابعة وأخاها بطلميوس الثالث عشر فى الوقت الذى كان يستطيع فيه

أن يضم مصر الى الحكم الرومانى . ووفقا لرواية سويتونيوس فان السبب الذى منعه من ضم مصر هو الخوف من أن يتولى حكم مصر عندما تصبح ولديه رومانية حاكم قوى يستطيع أن يستخدم هذه الدولة المركزية الثرية كمركز لاشعال الثورت ضد روما . وقد سبق أن ناقش قيصر هذه الفكرة مع السناتو فى سنوات سابقة . ولايفرتنا أن نبين أن خوف روما المستمر من هذه الفكرة قد ظهر بعد ضم مصر فى العصر الرومانى . اذ اتهم والى لها بأنه تجاوز حضوره ، وضم عزله من منصبه . لذلك ترك قيصر كليوباترة ملكة على مصر وهو واثق من ولائها له ، اذ أنه لم يكن هناك رومانى واحد يأمن له قيصر ويجعله حاكما لمصر ، خاصة فى ظروف الحرب لأهلية وتخطيط أبناء بومبيوس لتكملة معاركه .

وقد أعلن قيصر اعادة قبرص الى الحكم البطلمى ، وسعى من وراء ذلك الى كسب تأييد الاسكندرانيين . أما كليوباترة والتي سعت منذ البداية الى كسب قيصر الى جانبها فلم تعد تخشى شيئا طالما تحظى بتأييد أعظم الرومان شأننا فى عصره . وطالما تخلصت من منافسيها بطلميوس الثالث عشر بوفاته غرقا وأرسينوى الرابعة بترحيلها مع الأسرى الى روما . وقد أنجبت كليوباترة من قيصر ابنا دعاء الاسكندرانيون " قيصرين " بقصد السخرية . وليس من المستبعد أن الأمل راودت كليوباترة فى أن تصبح امبراطورة على الامبراطورية الرومانية وذلك بالزواج من قيصر . ولكن سرعان ما خابت آمالها عندما بدأت الاشاعات تنتشر فى روما حول رغبة قيصر فى تحويل الجمهورية الى ملكية يجلس هو على عرشها ، اذ دبرت مؤامرة ثم فيها اغتياله آمال وتطلعات كليوباترة

فاضطرت الى القنائة بعرش مصر وضمت ابنها بطلميوس قيصر معها فى الحكم .

انتهت الحرب الأهلية التى قامت بعد مقتل قيصر بفوز اكتافيانوس وماركوس انطونيوس . ، وقد اقتسم الطرفان الامبراطورية ، فكانت الولايات الغربية من نصيب الأول فى الولايات الشرقية من نصيب الثانى . وقد أرسل انطونيوس فى استدعاء كليوباترا مستنكرا عدم مساعدتها لهم ضد اعداء قيصر . وقد تجلت مظاهر الثورة والعظمة فى رحلة كليوباترا لتقدم البرهان لأنطونيوس على عظم ثروة مصر فتنمو بمظاره بشروة هذه البلاد ، وقد التقت مصالحي انطونيوس مع مصالحي كليوباترا ، فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن أن بمصر معيننا منها لاينضب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها وتحقيق أغراضها ومطامعها السياسية .

أمضى أنطونيوس مع كليوباترا الشتاء التالى ، وأسفرت علاقتهما عن ميلاد توأمين . وعلى الرغم من كراهية الاسكندرانيين للرومان ، الا أن انطونيوس استطاع أن يكسب حبي ، ولعل ذلك راجع الى احترامهم لكليوباترا وقبولهم للمكانة العالية التى أضفتها عليه ، وأخيرا يرجع الى شخصيته الساحرة .

وفى أثناء ذلك عرف انطونيوس عن غزو البارثيين للشرق ، وعن شورة زوجته الأولى بولفيا وأخيه ضد اكتافيانوس ، وقد لفت نظره الى خطورة الموقف جماعة من الجنود الايطاليين الموجودين بالاسكندرية ، فسافر فى النهاية الى ايطاليا وكانت بولفيا قد توفيت . وهناك تم عقد صلح بين أنطونيوس واكتافيانوس فى ٤٠ ق . م . على أن يظل

أنطونيوس سحاكما على الممالك الشرقية ، وأن يبدأ حربه مع البارثيين .
وضمانا لتحقيق المعاهدة تم زواجه من أخت اكتافيانوس وقد سرت هذه
المعاهدة الرومان في الوقت الذي أغضبت فيه كليوباترة . وقد سعت
اكتافيانا بعد زواجها من انطونيوس الى الحد من الخلاف بين أخيها
وزوجها والتقريب منهما . وفي عام ٣٧ ق . م . ذهب انطونيوس
شرقا لملاقاة البارثيين ، وقد صاحبتة في رحلته زوجته اكتافيانا ، ولكنه
أعادها ثانية الى ايطاليا ، وبمجرد ودراه الس سوريا ، أرسل في
استدعاء كليوباترة ، فقد كان في حاجة الى معونة مصر ، أغنى بلاد
الشرق .

ولعل انطونيوس اضطر في ذلك الوقت الى أن يعلن زواجه من
كليوباترة ويهبها البلاد التي فتحها في مقابل أن تضع تحت تصرفه كل
ثروة بلادها . فقد أهداها هي وابنائها فينيقيا وجوف سوريا وقبرص وجزء
كبير من كيبليشيا ، ومن البلاد العربية أهداها اقليم البلم في يهودية
وكل أقاليم النبطيين التي تنحدر ناحية البحر . ويحصل كليوباترة على
هذه الأراضي تكون قد استردت أملاكها التي كانت لها أيام ملوك
البطالمة الأولين وبخاصة على عهد كل من بطلميوس الثاني وبطلميوس
الثالث ، وكان الرومان قد استولوا على بعضهما في عهد الملوك
الضعفين من هذه الأسرة ، ولذلك فإن كليوباترة تستحق أن تغبط
نفسها على هذا النصر إذ استردت أملاك مصر ومجدها الذي كان لها
أيام أعزاهم أهداها .

وقد وسع المؤرخون القدامى كليوباترة بالبغاء واتهموها بالسيطرة
الكاملة على أنطونيوس ، في حدثنا ديوكاسيوس بأن انطونيوس أحب

كليوباترة منذ رآها فى كيليكيا وجعلت يسير وفق هواها . فلم يعد يهتم بالأعمال الأخلاقية ولكن أصبح عبدا للملكة وكرس نفسه لحبها مما أدى الى قيامه بأعمال كثيرة مثيرة للاسمتزاز ، ولعل وصف الكاتب تأثر بالدعاية التى شنها أكتافيانوس عند انطونيوس ، فان كليوباترة لم تكن مجرد محظية أو لعبة فى أيدى القواد الرومان ، بل لاشك أنها هدفت من علاقته بأنطونيوس الى المحافظة على استقلال مصر وتوسيع حدودها والاحتفاظ بالعرش من بعدها لأبنائها . ولعل كليوباترة كانت فى نظر الكثيرين من الشرقيين رمزا لمقاومة روما وضمانا للخلاص من استعبادها .

فى عام ١٤ ق . م خرج انطونيوس فى حملته على ارمينيا ، وبعد اخضاعها عاد الى الاسكندرية ليحتفل بمهرجان انتصاره على غير العادة التى تقضى بأن يكون الاحتفال فى روما . وقد أعلن فى هذا الاحتفال أن كليوباترة ملكة مصر وقبرص وليبيا ووادى سوريا ويشاركها ابنها قيصر بن قيصر ، وأعلن أن ابناءه منها هم ملوك ابناء ملوك ، وقسم بينهم الولايات الشرقية .

بدأ اكتافياس بعد طلاق أخته من أنطونيوس فى حملة التشهير ضده ، وارتكز فى هذه الحملة على أفعال أنطونيوس التى تتسم بالخيانة لروما ، ومنها تقسيم انطونيوس للمالك الشرقية التابعة للامبراطورية الرومانية على كليوباترة وأبنائها ، واحتفاله بانتصاراته كقائد روماني فى الاسكندرية بدلا من روما ، وزواجه بزوجه أجنبية ، وجعله قيصر من قيصر وريشا مع أمه كليوباترة . وكانت نتيجة هذه الحملة أن أعلن الرومان الحرب على كليوباترة ملكة مصر ، فان روما التى لم تخشى أى

شعب من شعوب العالم آثارها الفزع طوال تاريخها ، كانت المرة الأولى من هانيبال والثانية من امرأة وهي كليوباترة .

وقد شهدت احدى المؤرخات الحديثات الملكة كليوباترة بأنها كانت مثل اكتافيانا زوجة انطونيوس الثانية فى اخلاصها لبلادها ، ومثل فولفيا الزوجة الاولى فى قسوتها ، كما شبهتها بالملكات الهلنستيات السابقات فى طموحهن غير المحدود وبالاسكندر الاكبر فى براعته ورغبته فى تكوين امبراطورية عالمية . وقد شكلت كليوباترة تهديدا كبيرا لاكتافيانوس ولروما لأن لديها ابن قيصر الوحيد « قيصرين » ، والى جانبها ماركوس انطونيوس القائد المشهور أحد اعضاء الحكومة الثلاثية للامبراطورية الرومانية والذى كان محبوبا بين فرق الجيش والارستقراطية الرومانية . وفوق ذلك كان لدى كليوباترة وتحت امرتها ثروات مصر ومنابع خيراتها .

لذلك كان الرومان يكتنون لكليوباترة الكراهية الشديدة . فهى بعلاقتها مع قيصر واعترافه بينوه فيصرون كانت تسعى الى أن تصبح ملكة على روما فرفضوا أن تتحول الامبراطورية الى مملكة يحكمهم من فوق عرشها المملكة المصرية التى يمحنتونها ويخشونها فى نفس الوقت . فدبروا لاغتيال قيصر وتمكنوا بذلك من القضاء على احلام كليوباترة والخلاص منها . ولكن أن تعود كليوباترة لتسيطر للمرة الثانية على انطونيوس أكبر القواد الرومان ، والذى يتولى أمر نصف ولايات الامبراطورية ، ثم تحمله على توزيع هذه الولايات عليها وعلى أبنائها ، فكان أمرا مهينا لا يطاق ، وخيانة علنية لا تغتفره ، لذلك أعلن اكتافيانوس هو والرومان الحرب عند كليوباترة عدوة الشعب الرومانى ،

فكانت حرباً قومية ضد الخطر الاجنبي وعلى الرغم من أن كليوباترة قدمت الكثير من الأموال والعناد والسفن من أجل المعركة ، وعلى الرغم من الجهد الذى بذله انطونيوس فى قيادة الجند ، إلا أن النصر فى النهاية كان حليف اكتوبريانوس فى موقعة اكتيوم واضطر انطونيوس وكليوباترة الى الانسحاب والانتحار فى آخر الأمر .

وهكذا انتهت فترة حكم البطالمة بانتحار كليوباترة التى كان طموحها أكبر من طموح الملوك البطالمة جميعاً ، فبعد أن كانت مصر على وشك الوقوع فى أيدي الرومان والتحول الى مجرد ولاية رومانية ، أصبح الرومان يخشون بأس المملكة المصرية ويخافون من أن تصبح يوماً ملكة على روما نفسها . فان ديوكامنيوس يذكر أن كليوباترة كانت تأمل فى أن تحكم الشعب الرومانى ، وقد اقسمت انها مستحکم من الكابيتول .

كانت كليوباترة تخطط دائماً لتحقيق هذا الأمل ، بل وأعلنت ذلك صراحة ولكن شاءت القدر أن يحالف كليوباترة سوء الحظ مرتين ، كانت المرة الأولى عندما قتل قيصر وكانت على وشك ان تبرع الى جواره على عرش روما فلجأت الى الفرار الى مصر ، وكانت المرة الثانية عندما منيت بالهزيمة فى حربها مع انطونيوس ضد اكتوبريانوس ، واضطرت الى أن تضع حداً لحياتها وخاتمة للعصر البطلمي الذى امتد طيلة ثلاثة قرون . كان هذا اذن هو الأساس الذى قام عليه وضع مصر عندما قام اكتوبريانوس بفتح مصر عام ٣٠ ق . م . فمصر كانت دولة مستقلة بعيدة الى حد كبير عن فكرة الامبراطورية بمدلولها الشامل الدقيق . أما بعد أن تم الفتح فقد تغير وضع مصر كلها - لتصبح إحدى الولايات التى تشكلت فى مجموعها الامبراطورية الرومانية .

الملوك البطالمة

ق. م. .	٢٢٣ - ٤/٢٨٥	بطلميوس الاول (سوتير)
ق. م. .	٢٤٦ - ٤/٢٨٥	بطلميوس الثانى (فيلادلفوس)
ق. م. .	٢٢١ - ٢٤٦	بطلميوس الثالث (يوارجيتس)
ق. م. .	٢٠٤ - ٢٢١	بطلميوس الرابع (فيلوپاتور)
ق. م. .	١٨١ - ٢٠٤	بطلميوس الخامس (ايفانس)
ق. م. .	١٤٥ - ٨٠ - ١٨١	بطلميوس السادس (فيلپتور)
ق. م. .	١٤٥	بطلميوس السابع (يوباتور)
ق. م. .	١٤٥ - ٦٩ - ١٧٠	بطلميوس الثامن (يوراجيس الثانى)
		(بالاشتراك مع أخته فيلوميتر)
ق. م. .	١١٦ - ١٤٥	منفردا

كليوباترا الثالثة مع ابنائها بطلميوس التاسع

سوتير الثانى

وبطلميوس العاشر (الاسكندر الاول)

بطلميوس الحادى عشر (الاسكندر الثانى)

ق. م. . منفردا ٨٨ - ١٠١ بطلميوس العاشر (الاسكندر الاول)

ق. م. . منفردا ٨٠ - ٨٨ بطلميوس التاسع (سوتير الثانى)

ق. م. . ٨٠ برينيكى الثالثة

ق. م. . ٥١ - ٨٠ بطلميوس الثانى عشر (نيوس ديونيوس)

كليوباترا السابعة مع أختيها بطلميوس الثالث عشر

بطلميوس الخامس عشر

ق. م. . ٣٠ - ٥١ | بطلميوس الرابع عشر وابنها

(قيصرين)

مصادر ومراجع الدراسة

أولا : المصادر :

- Arrian : Bibliotheca Teubnerian .
Curtuis Rufus : "" ""
Diodo%siclus : Loeb.
Herodotus : Loeb.
Manetho : Loeb .
Pausanias : Loeb.
Pliny Naturalis Historia (Loeb).
Poly bius : Loeb.
Quintus Curtius.
Strabo Loeb .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

- A. Badawi : Memphis als zweites Lond hauptstadt. B.I.F.A.O.,
1948 .
- H.I. Bell : Cults a . Greeds in Graeco - Roman Egypt, Liverpool,
1953.
- H. I. Bell : Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest,
Oxford 1948.
- Ed. Bevan : A History of Egypt under the ptolemaic Dimasty, Lon-
don, 1914.
- Bouche - Leclercq : Histoires desLagides, 4vols. paris, 1903, ff.
- E. Breccia : Alexandria ad Aegyptum Bergamo 1922.
- J. Breasted : A History of Egypt from the earliest times the persian
conquest, London, 1948.
- The Cambridge Ancient History, vol. vii, the Hellen- Sistic Monar-
chies and the Rise of Rome, ed by. S.A. Cook,
F E Adcock, M.P. Charles-worth, Cambridge
1928 .
- E.Dnoton et J. Vandier, les peuples de L' orient Mediterranee L'
Egypt. Paris, 1934.
- V. Eherenberg , Alexander und Agypten (Der Alte Orient Heft 7)
Leipzig 1926 .

- C. Figeac : *Egypte Ancienne*, paris 1847.
- P.M. Fraser : *Ptolemais Alexandria* Oxford, 1972.
- F. Heichelheim : *Wirtschaftliche Schwankungen der Zeit von Alexander Bis Augustus*, Jena, 1930.
- " " " : *Die Auswärtige Bevölkerung in Ptolemaierzeit*.
Leipzig 1925.
- W. W. How, a. Wells : *A Commentary on Herodotus*, 2 vols. ox-
ford, 1957 .
- H. Junker : *Die Götterlehre von Memphis* Berlin, 1340 .
- B. H. Macurdy : *Hellenistic Queens* Oxford 1932.
- Mariette : *Le Serapeum de Memphis* 2 vols. paris 1882 .
- W. Otto : *Priester und Tempel im hellenistischen Ägyptens*. 2vols.
Leipzig-Berlin 1908.
- Cl. Preaux : *L' Economic Royale des Lagides*, Bruxelles, 1939 .
- " " : *Les Grecs en Egypte* Bruxelles 1947.
- M. Rostovzeff : *A Large Estate in Egypt in the third century B.C.*
Madison, 1922.
- " " : *The Social and Economic History of Hellenistic
world*, 3vols. oxford 1953.
- U. Wilchen : *Alexander der Grosse*, Leipzig, 1951 .

ثالثا : المراجع العربية :

د . ابراهيم نصحي : دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة .

تاريخ مصر فى عصر البطالمة ٤ أجزاء .

ايدرس بسل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى

ترجمة د . محمد عواد حسين ود . عبد اللطيف

أحمد .

د . لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات فى تاريخ مصر عصر البطالمة .

د . مصطفى عبد الحميد العبادى : مصر من الاسكندر الاكبر الى الفتح

العربى . مكتبة الاسكندرية القديمة .

هيروdotus يتحدث عن مصر ترجمة الدكتور صقر خفاجه وتعليق الدكتور

أحمد بدوى

كفاحنا ضد الغزاه : تأليف نخبة من الاساتذة .

مجتمع الاسكندرية عبر العصر تأليف نخبة من الاساتذة .

د . عبد اللطيف أحمد على : محاضرات فى العصر الهلينستى .

محتويات الكتاب

٧	الفصل الأول : مصر والفتح المقدوني
٩٧	الفصل الثاني : العصر الهلينيستي
١٢٣	الفصل الثالث : دولة البطالمة وتاريخها السياسي
		الفصل الرابع : معالم التنظيم والحضارة في مصر
٢٢٩	العصر البيزنطي :
٣١٩	الفصل الخامس : روما والشرق الهلينيستي
٣٥٩	المراجع :